

الكتاب

فصلية ثقافية



81

خريف 2004



رئيس التحرير

محمود درويش

مدير التحرير

حسن خضرم

تصدر عن : مؤسسة الكرمل الثقافية

مركز خليل السكاكيني الثقافي - ص ب ١٨٨٧ - رام الله - فلسطين

هاتف : ٩٢٤٩٢٤ (٠٢) - هاتف / فاكس : ٢٩٨٧٣٧٤ / ٥ (٠٢)

E-mail : editor@alkarmel.org

الكرمل على الانترنت : <http://www.alkarmel.org>

تصدر طبعة الاردن عن : دار الشروق للنشر والتوزيع. ص ب ٩٢٦٤٦٣

الرمز البريدي ١١١١ - عمان - الاردن - هاتف : ٤٦١٨١٩٠ / ١ - فاكس : ١١٠٠٦٥

باريس : Mr. S. Hadidi

17, avenue Georges Duhamel

94000 Cretell

France

الاشتراكات السنوية : ٨٠ دولاراً للأفراد ١٢٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)
نرسل الاشتراكات شيكاً الى العنوان البريدي او حوالة بنكية على حساب المؤسسة

Al-Carmel Cultural Foundation

Arab Bank - Manara branch - Rputing number : 49852

Ramallah - Palestine

العدد 81

خريف 2004



فصلية ثقافية

سعدني يوسف في السبعين

منذ قرأت شعر سعدي يوسف، صار هو الأقرب إلى ذاقتي الشعرية. في قصيدته الشفافة صفاء اللوحة المائية، وفي صوته الخافت إيقاع الحياة اليومية. وقد أجازف بالظن أنه، ودون أن يكتب «قصيدة النثر» السائدة اليوم، أحد الذين أصبحوا من ملهميها الكبار، فهي تتحرك في المناخ التعبيري الذي أشاعه شعر سعدي في الذائقة الجمالية، منذ أتقن فن المزج بين الغنائية والسردية.

وهو أحد شعرائنا الكبار الذين قادهم الشعر أو قادوه إلى التمرد على تعالي اللغة الشعرية، وإلى تأسيس بلاغة جديدة، ظاهرها الزخند، وباطنها البحث عن الجوهر... ليصبح الشعر في قصيدته هو الحياة بسليقتها وتلقائيتها، والحياة هي الشعر، حين تكتبه ذات ليست ذاتية تماماً. فقد تماهت الذات مع الموضوع، وتآلف الموضوع مع الخصوصية الذاتية... دون أن يتخلى الشاعر عن قدر من «حياد» موضوعي، يخفف عن القصيدة طابعها الأوتوغرافي، ويؤكدها استقلالاً عن سيرة صاحبها. الشاعر أم القصيدة؟ ليس هذا سؤال سعدي يوسف، فقد بلغ من النضج خبرة قادرة على أن تجعل حياة الشاعر وحياة النص واحدة ومنفصلة في آن واحد، فهو يحبر عن نفسه، ولا يعبر عنها وحدها، في اللقاء الحميم بين داخله الذاتي وخارجه الموضوعي في عملية مركبة يتبادلان فيها الأدوار. سعدي يوسف، الذي يحاور نضج الشعر في تاريخ الشعر، لا يشبه شاعراً عربياً آخر. لكن الكثيرين من الشعراء أرادوا أن يشبهوا سعدي، وعانوا مما أسماه هارولد بلوم «قلق التأثير». لقد بهرتني بساطة سعدي المعقدة، في نزوعها إلى البحث عن شعرية الأشياء الصغيرة الكامنة في نثر الحياة، والبحث عن العلاقات السرية بين اليومي والتاريخي. وبهرني أكثر من ذلك إلحاحه على محاولة الإمساك بالحاضر الهارب.

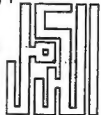
وإذا كان صحيحاً أن في داخل كل شاعر مجموعة من الشعراء - كما يقول أوكثافو باز، وأن النص هو محاوراة مع نصوص أخرى، فإن سعدي يوسف كان أحد الشعراء الذين درّني شعرهم على التنقيب عن الشعري في ما لا يبدو أنه شعري، وأغراني بمقاومة الإغراء الإيقاعي الصاخب، وبالاقتصاد في البلاغة.

وكم شغلت عن فترات نبات شعري مررت بها، وكنت أقول دائماً: ما دام سعدي يوسف يكتب، فإنني أشعر بأنه يكتب نيابة عني!

صديقي منذ ثلاثة عقود. لم نتوقف عن صيانة المودة المتبادلة، النادرة بين الشعراء، منذ التقينا للمرة الأولى في بغداد. كان في آخر الليل متهوراً يقود سيارة همة، كادت تسقط بنا في دجلة. كم خفت من موت عشي ينتظرنا في قاع النهر. لكننا اليوم، نحفل بعيد ميلاده السبعين. هو في لندن، وأنا في رام الله.

أذكره في منافي عديدة، في بيروت، وفي عدن، وفي نيقوسيا، وفي باريس، وفي عشان...

يعتني بأصص الصبار. لقد أدمن سعدي يوسف المنفى، فصار جزءاً عضوياً من حياته ومن لغته، لا باعتباره مكاناً جغرافياً نقيضاً للوطن فحسب، بل باعتباره مجالاً حيويًا لتعريف الذات إلى نفسها في الآخر، وللتأمل في الأشياء الأولى من بعيد، وباعتباره قيمة أدبية تعبر عن غربة وجودية، كنا دائماً نؤمن بأن الغد أجمل. لكن التاريخ يفاجئنا دائماً بخيبة أمل جديدة، تغري الشاعر بمدح اسم. بيد أن الشعر لا يمثل إلى هذه الحنة، لأنه أدمن النظر إلى أبعد... وإلى أعلى!



الفهرست

دبيد تاج		
۳۲-۷	امعياز دياب	امسك الخشب يا أبو مراد
ملف		
		إدوارد سعيد الحاضر، دائماً
۵۰-۳۳	إدوارد سعيد	أفكار حول الأسلوب الأخير
۶۷-۵۱	لهلى غاندي	إدوارد سعيد ونقاده
شعر		
۷۹-۶۸	محمود درويش	طباقي
۹۴-۸۰	مريد البرغوثي	أنت خلقت للبهجة
۱۰۱-۹۵	زهير أبو شايب	ليل يسمي الأرض
۱۲۰-۱۰۲	غسان زقطان	تعلاّت
۱۲۷-۱۲۲	برنار مانسييه	طفل البصرة
دراسة		
۱۵۸-۱۲۸	فبصل دراج	طه حسين وأنسنة التاريخ المقدس
مطالعات روائية		
۱۹۲-۱۵۹	علي الشوك	إعادة اكتشاف ستانداي



المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي « الكرميل »

تخصص

سلحفاة تصعد إلى سمائها

حفلة

ليانة بدر

٢٠١-١٩٣

أقواس

التشاؤم أمنا الوحيد

خوزيه سارماغو

٢٠٥-٢٠٢

أكتب كي لا أموت

غارسياماركيز

٢١٠-٢٠٦

أندحرج على موجة

تشسلاف ميلوش

٢١٦-٢١١

مكتبة

سليم بركات:

كهوف هايدراوداهوس

بيان سلمان

جاءك اماتيس:

يوسف الخال و«مجلته» شعر

دومة الشكر

كاثلين كروستسن:

فلسطين في العقل الأميركي

نعوم تشومسكي:

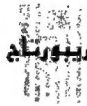
الهيمنة أم البقاء

عمر كوش

جورج فرم:

شرق وغرب: الشرق الأسطوري

رندة بعث



امسك الخنثب يا أبو مراد (لاجئون في لبنان وقلوبهم في رفح) امتياز دياب

قصة سعاد

جلس محمد معروف ابن علي معروف، ونهاد سرور، في حجرة يسمونها «صالون». كانت الحجرة صغيرة لدرجة أن نقطة الوضوح في الكاميرا لا تطيعني لالتقط صورة دون أن أحشر ظهري في الزاوية، والصق رأسي بجدار أكلته الرطوبة، ونشرت عليه بقعاً غامقة، عفنة، انبعثت منها رائحة الموت.

جلست على كنية تجاوز طولها طول الغرفة ببضعة سنتيمترات، وحاولت أن أميز ألوانها فاختلط

امتياز دياب، صحافية فلسطينية تقيم في جنيف

علي الامر: اعتبرتها بنية اللون، تعلوها رسوم، ربما كان لونها ذات يوم أبيض. تفصلني عن محمد طاولة صغيرة الحجم متأكلة القوائم. سمعت عنه من هدى ترك، التي تعمل في قسم الإعلام في الأونروا [وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين].

وكان ذلك عندما سألتها عن حالات اجتماعية خاصة تعنى بها الأونروا. وها هو محمد يجلس أمامي شابكا أصابعه، شاخصا بعينين قويتين النظرات.

رد على سؤالي ما إذا كان من سكان شتيتلا، وما يشغله في هذه الدنيا، بهمس ثابت كخبر الماء المنبعث من نبع أبدي الجريان، يترقق على حجارة ملساء معقوفة كحرف القاف قال:

«أنا من دير القادسية قضاء عكا، عمري ١٥ سنة، وبدي أدرس فلسفة، لأن الموضوع يساعدي على ما أنا فيه، ويكون في ايدي أداة عشان أقدر أقول اللي في قلبي، عشان أفهم ليش الناس ما احتراموش كلام حكمائهم، وانقادوا لأوامر حكائهم؟ ليه؟».

«أنا بعرف إنني لو حصلت على شهادات عالية مش راح أشتغل، لأنه ممنوع على الفلسطيني العمل، وخصوصا في الوظائف الرفيعة، وأنا بعرف انه راح أظل عالة على أهلي، وعلى الأونروا، ويعرف انه راح أبقي ساكن هون، في هذه الدار، لأنه ممنوع الفلسطيني يعمر دار بدواعي عدم تشجيع التوطن. بس (لكن) أنا راح أتعلم وأكمل، انتي جايه تعرفي عن أوضاع المخيمات؟ الوضع الحمد لله كله تمام مقيش مشاكل».

دخلت نهاد والدة محمد، وأربعة أطفال آخرين، باسمه مرحبة، تلبس ثوبا أخضر موشى برسوم بيضاء، وعلى رأسها منديل أبيض برسوم خضراء. جلست على طرف الكنية، وهمست بشيء ما لصغير لم يتجاوز طوله ذراع الكنية إلا بسنتمرات قليلة. وقد قطع بعدها المتر الذي يفصله عن باب الدار الخارجي، ركضا، وكأنه سيقطع باحة متسعة الأرجاء، ثم ابتلعه ضوء من شمس بخلت بدفعها على كنية رطبة، تهدد من يجلس عليها بنزلة صدرية.

انزعزت نفسي من أحلامي بالشمس، وقلت إن الأونروا ستعقد اجتماعها السنوي للدول المانحة، وستحاول إقناع الدول بحاجة الشعب الفلسطيني للمساعدة.

وسال محمد:

«وانت شو شايفة؟»

شفتي بيتنا؟ شفتي مدارسنا؟ شفتي شوارعنا؟

شو رأيك؟ إحنا بحاجة أم لا؟»

جاء صوت المذيع من الغرفة الداخلية : إن «خطّة الفصل» التي عرضها شارون في استفتاء داخل الليكود تجهّز أي أمل بقيام دولة فلسطينية. يرد محمد على المذيع : «الليكود لا يقرر مصير الشعب الفلسطيني».

وسالت محمد : ماذا يحدث لو لم تقم فلسطين.

فتح محمد عينيه متسائلاً :

«وشو بصير لو أزلنا أمرنا؟ وشو بصير لو أزلنا الصين؟

ها؟ شو بصير؟

أنا بسال حالي دائماً، ليش الإنسان، أو شو يكون الإنسان اللي يلاقي سعادته في إبادة أخوه الإنسان؟

كثير مرات بسال هذا السؤال لأولاد بيتقاتلوا في الشارع، ويقول الواحد منهم للثاني : بدّي أموتك.

بسال اللي بهدد : ويتكون ميسوط لو مات؟

بتنتهي مشاكلك في الدنيا بدون وجوده؟

عاد ابن نهاد الصغير، حاملاً زجاجة مشروب غازي وضعها في حضن أمه، التي نهضت في الحال، ويلمح البصر عادت وفي يدها صينية عليها أكواب ملأتها بالسائل الأصفر، الذي ما زال يطلق الغاز بأصوات كصوت شرار النار، في صمت ليلة باردة، في شتاء مظلم.

قطعت نهاد الصمت وقالت :

«محمد مثل مرة في مسرحية، كان يمثل دور ختیار يضربه الجيش الإسرائيلي». محمد قاطعها،

وقال : «وإنتي خفتي، وكنتي تصيحي عليهم، وتقوليلهم هذا إيني، فضحتينا»

ابتسمت نهاد في حياء وترد :

«آه، والله خفت، شعرت كأنه صحيح، تذكرت أيام مذبحه صبرا، بعدني بخاف، اللي شفتنا مش

قليل يمه». قاطعتها فسألت ما إذا كانت في صبرا أثناء الحصار؟ ردت علي، ولحّت ظلاماً سقط على

عينها السوداوين :

«آه، كنت، هم رشونا، رشونا كلنا». همست : كيف رشوكم؟

« رشونا هيك » كان إصبعها في الهواء متجها نحوي، وقد أراحت مرفقها على يدها الثانية. وهل أصيب أحد بسوء؟ وضعت كفها على رقبته، خففت من عقدة منديلها على عنقها، ثم شبكت يديها على صدرها، وتمتمت مع صوت المذياع الذي كنا نسمعه: بسبب انعدام إمكانية دفن الشهداء في رفح، وضعت الجنائين في ثلاث المنازل، وعلمية قوس قزح ما زالت مستمرة.

« أبوي بالأول وقع، وبعدين رشوني أنا.. أنا وأمي المنجرحنا.. تمددنا على الأرض وعملنا حالنا ميتات، ثلاثة من أخوتي راحوا، والصغيرة شادية كان عمرها سنة ونص، و... لا، إسماعيل راح بعدين، هذاك نفد، بس راح بعدها بثلاث سنين بحصار.. بعدين.. بحصار الخيميات ».

توقفت نهاد عن التأتأة، سكنت شاخصة بعينيها إلى هسيس خفيف جاء من الكؤوس التي لم يجرؤ أحد على لمسها، وصمتنا جميعاً نراقب فقاعات الغاز التي بدأت بالموت في مساحة الفراغ المتبقي بين سطح السائل وحافة الكأس. طال الصمت، فاستجمعت شجاعتي، وسألته ببطء، وبعدين؟ قالت: « بعدين ولا شي، قمت أنا وأمي، ولما رجع صوتهم، رجعنا نحنا. لما راح الصوت قمنا، لاقينا سعاد أختي مصابة كثير، معرفناش نحملها، حطيت لها جلن مي وسدينا الباب، والأجث.. جثث ودم، وناس تركض، زي الأشباح كانت الدنيا الصبح بكير، ورحنا ندور على أخوي محمد في مستشفى غزة، وضاع عنا إسماعيل وماهر. وبعدين؟

« وبعدين سمعنا كانوا راجعين على البيت، ولاقوا سعاد وحد منهم أخذها ».

أخذها لوين؟

نظرت نهاد في وجهي وقالت وكأنها تتحدث بلغة متعارف عليها في ما بيننا: « ما أخذوها على محل، أخذوها في الدار. سعاد مشلولة منذ ذلك اليوم.

اللي بدري بدري، واللي ما بدري، بقول كف عدس.

ضرب الحاج أبو هشام كفا بكف وقال:

« وشو اللي صار يا عالم؟ حتى وصل حالنا إلى أسفل الدرك، شو اللي صار يا عالم يا هو... شو اللي صار يا ناس؟ ».

رفع الحاج يده إلى ذقن مشدبة، أمسك بها، وقال:

« هذه الذقن البيضاء شاهدة على أيام سوداء، وأيام أسود من سودة، إذا بتهذا الحال في لبنان بتولع

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد

في غرة، وإذا بتهدا الأحوال في غرة، بتولع في رفح، من رفح إلى الفالوجة، إلى افغانستان، كله عدو واحد يستعمل ذات العميل، وإحنا قاعدين! هيك اختفت الشعوب العربية؟ شو اللي صار ما بعرف. بديك تفهمي يا عمي على السياسة العالمية؟ لازم تفهمي السياسة والقضية الفلسطينية، واللي ما بفهم هذه القضية ملوش علاقة في السياسة. وأقلق أحسن من هيك! إذا بتفهمي ليش مخيم البداوي هيك، كمان بتفهمي شو اللي صاير في العالم».

أهلاً في شوارع البندقية

خرجت وأبو مراد لوباني، إلى أزقة مخيم البداوي الفارقة في مياه المجاري، نصل إلى زقاق ضيق يقول أبو مراد : هذا زقاق. يقهقه أبو مراد لكن حنجرته لا تساعد على مواصلة الارتفاع، فيضطر إلى اختصار القهقهة بما يتناسب ونزله الصدرية، التي أثقلت على رثتيه المعباتين بدخان علبتي سجائر. وقفنا على باب الزقاق بانتظار عبور امرأة لأمس كتفاها جدران بيوت التنك، باعدت بين قدميها، وتركتهما تتحسسان حافتي القناة الجارية بيتهما، سمعت صوت شاب من على السطح، لاحظ قلقي من عبور الزقاق، فرحب بي ساخراً : «ولكم نو فنيس لاند».

في الأثناء وصلت السيدة إلى حيث نقف، وقالت بعد التحية، وكأنها تواصل حديثاً بدأ قبل فترة : ها يا أبو مراد، قالوا لي انك جايب ناس تزور المخيم، والله لفيت عليكم، بديك تجميعهم على بيتنا، خليفهم يشوفوا بلكي على الله أجا دورنا، وصلحولنا السقف أو أعطونا بالمرة الدور للعمار؟ ودون انتظار إجابة أمسكتني من رسغي، وشدتني إلى وراء، ثم على اليمين باب أو بابان، وفتحت باباً وجدت نفسي في غرفة نوم، أو غرفة تمدد فيها رجل، ما أن سمع الصوت حتى جلس في فراش ممزق، ولا أدري إذا كان يدخن وهو ونائم أم أنه أشعلها بلمح البصر؟

ولكن برغم الظلام المطبق لم ألاحظ اشتعال عود ثقاب! سعل الرجل بشدة، فحولت وجهي إلى الجهة الثانية تفادياً للعباب يطير نحوي لا محالة، ورأيت مرحاضاً خلف ستارة، ففهمت أن حالة الاختناق التي حلت بي تكمن هنا وليس هناك من الفراش. وبلحظة فقدت كل مشاعر اللطف والأدب، وجميع دروس التواضع التي بثتها والدتي فيّ على شكل خنوع، وهرولت خارجة ضاربة بجميع ضروب الآداب عرض الحائط.

لحق بي أبو مراد قائلاً :

« مثل هذا البيت يوجد ٩٥ بيت تنك في البداوي وحده ».

تحاول الأونروا البحث عن تمويل منذ عشرين سنة. لكن المال غير متوفر، والأرض غير متوفرة. اللاجئون في لبنان هم أشد اللاجئين حرماناً، لأنهم لا يستفيدون من الخدمات الحكومية إلا بشكل محدود، ويتعين عليهم الاعتماد بشكل شبه كامل على وكالة الغوث « الأونروا » للحصول على التعليم الأساسي، والخدمات الصحية، والاجتماعية.

كذلك، تبقى مسألة دخول مواد البناء مرهونة بالحصول على موافقة السلطات العسكرية، وهي موافقة لا تمنح دائماً. هذا بالإضافة إلى البطالة، وتحريم حقوق الميراث على الفلسطينيين. هناك بعض اللاجئين من الذين انعم عليهم بالجنسية عام ١٩٩٤ لكن البعض يحاول إسقاط الجنسية اللبنانية عنه.

وضع اللاجئين في لبنان أسوأ من وضع اللاجئين في سوريا، ففي سوريا يستطيع اللاجئ الاستفادة، وبصورة كاملة، من الخدمات الحكومية السورية، مثل التعليم والصحة والإسكان، والمرافق والأمن. ترقف أبو مراد أمام مبنى ناصع البياض بدا غريباً في بياضه وارتفاع طبعته، قال أبو مراد: « هذا حي الشانزليزيه الخاص بالخيم، هؤلاء السكان كانوا يسكنون بيوت زنك مثل البيت الذي شفنيه قبل شوي ».

تطل سيدة برأسها من النافذة وتقول: « امسك الخشب يا أبو مراد، امسك الخشب، مع إله كُله بفضلكم، بس يعني بتعرف الحسد ما يعرف صاحب ».



من رفح إلى النهر البارد

هبة مدير مخيم النهر البارد لاستقبالي بحرارة ومودة قائلاً:

« حفظك مش ولا بد، الخيم مقلوب فوقاني تحتاني عشان مشروع الصرف، بس أهل الخيم مبسوطين، بلكي يرتاحوا الشتوية الجاي، بس يعني يتشوفي الخيم على طبيعته، مش بالضبط على طبيعته لأنه الوضع في الشتاء غير في الصيف ».

كان علينا السير على أطراف حفر الصرف، ولكي لا نسقط فيها تشبثنا بحواف النوافذ المطلة على القناة. وكان بالإمكان النظر إلى داخل البيوت، ومعرفة نوع الطعام الذي يطهى سواء من خلال

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد

الرائحة، أو من خلال النظر إلى سلة، أو بالأحرى، تنكة المهملات، هذا إذا كانت النافذة تطل على المطبخ. أما إذا كانت مطلة على غرفة المعيشة فيمكن متابعة الأخبار في رفح، أو الفالوجة، أو النجف. رغم الاعتذار عن تطفلنا بإدخال رؤوسنا إلى داخل البيت إلا أنهم - وعلى ما يبدو- كانوا قد اعتادوا هذا النوع من التطفل، فتراهم أحياناً يأتون إلى حافة النافذة، ويتبادلون معنا أطراف الحديث. أو يدلوننا على أفضل الأمكنة لتفادي السقوط.

أطلت سيدة لتساعدا، ولكنها رأت أبو عماد، فسألته عن دورهم في البناء. وانتهزت الفرصة عندما حاول أبو عماد الاحتفاظ بتوازنه لتقول شيئاً ما عن ألواح الزنك البالية، لكن صوت المذيع في التلفاز غطى على صوتها قائلاً: إن سجن أبو غريب سيذمر، وإن معارك طاحنة تدور في مدن جنوب العراق.

تحاول السيدة رفع صوتها، لكنه يختلط مع الحبر الذي أعلن عن سقوط جنود إسرائيليين، وسقوط ٨٥ جريحاً فلسطينياً. وبدلاً من خفض صوت التلفاز، زعقت على أبو عماد:

«ما أنت شايف هذه ألواح الزنك بقطع طول الليل، وهذا بالشتا والله ما بنشغلنا فراش، وهذا الولد الصغير طول الوقت بمن (يمن) من الربو، وأنا عندي القلب، والضغط، والسكري، دخيلك يا أبو عماد تقلهم للأونروا عن أحوالنا».

علا صوت شاب من الداخل: «يقولوا انه الدنيا قايمه في رفح، ومدير الأونروا عاد من بيروت على عجل، وبستغريش انه الاسرائيلية هدموا البيوت على أصحابها».

تلاحقنا السيدة برأسها وتقول لأبو عماد:

«بقطع الزنك، والله بقطع، والأولاد ما يعرفوا يناموا».

نظرت إلى أبو عماد الذي استمر في سيره معتقداً أنني أسير وراءه. كان ينقل قدمين ثابتتين من مطب إلى آخر دون تردد، ولم يمر بشخص جالس في دكان، أو متكئ على حافة نافذة، دون طرح السلام، وأحياناً ينني على السلام بكيف الحال على كل شخص بالاسم. وإذا كان العابراً طفلاً يسأله توصيل السلام إلى الوالد أو الوالدة، ولا يتردد بأن يربت على كتف صغير مستعملاً مهارات المقاتلين اليابانيين للحفاظ على توازنه.

أخيراً انتبه إلى أنه يسير وحده، فوقف دون انزعاج منتظراً للمحطات، ثم غير رأيه ودق على إحدى الأبواب منادياً على أبو مصطفى، ثم أشار لي بيده لالحق به إلى الداخل، وسرعان ما غاب، فهاجمت

وراء لاهثة لكي لا أضيع الباب الذي لا يختلف عن بقية الأبواب .

سنة أبواب، ووصلت إلى باب يؤدي إلى درج يوصلنا إلى طابق تحت الأرض . وصلت إلى باب مفتوح على صالة عديمة الضوء، لحقت بالأصوات المنبعثة من غرفة بدا فيها الظلام أكثر كثافة، فتلمست الأرض بحذر حتى وصلت إلى حيث يقف أبو عماد، الذي كان يحاول إيقاظ رجل ناداه بأبي مصطفى .

وفجأة غرقت الغرفة بضوء ساطع أشعلته عجوز صغيرة الحجم رقيقة العظام سعيدة الملامح . نهض الرجل النائم، تعرف على أبي عماد، فاحتضنه بحرارة نشرت في أرجاء الغرفة دفئاً طرد سكون المكان . انزلق أبو مصطفى من على الفراش، فبانت ساقه مربوطة بالجلبس، شرح بسرعة أنه سقط سهواً عندما أراد التشبث بحافة في الشارع اعتاد على وجودها، لكنهم أزالوها دون علمه، فسقط متدحرجاً على الدرج .

بعدها، تحول من قصة ساقه إلى هذه الزيارة المفاجئة، معبراً عن ابتهاجه بمد يديه ممسكاً بيدي وكأنه يعرفني أنا الأخرى، وحاول الوقوف، فسارعت العجوز السعيدة وناولته عصا للاتكاء عليها، وقالت بهمس : زارتنا البركة، ثم تركتنا بصحبة أبي مصطفى الذي قادنا إلى غرفة وثيرة الأثاث، اعتلت جدرانها صور كبيرة احتلت حائطين . أما الجدار الثالث فاحتلته مكتبة رصت فوقها كتب ضخمة، ورغم قديمها كانت خالية من الغبار . عندما رأي أبي مصطفى أنظر إلى الصور قال : « هذا الله يرحمه استشهد، وهذا في ليبيا الله يرضى عليه، وهذا محمد في الدائمك الله يحفظه، وهذه الله يصبرنا على فراقها، وهذا مصطفى هون في الخيم الله يديمه لنا ولاولاده »، ثم تحول عن الموضوع وقال :

« أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً، ها . . يا با جاي من جنيف ؟ بقولوا في مؤتمر في جنيف للدول المانحة والاونروا بتطالب بأربع ميت (مائة) ألف دولار، بعد اللي صار في رفع، وغرة، بدهم قدمه على مرتين، صحيح واللا أنا غلطان ؟ والله يا با الاونروا بتساعد من هون وشارون بهدم من هون . شفتي أجيال أهل الخيم يا با ؟ كانوا متأملين بزيارة - هانسن - كل الخير، مع إله دائمركي، لكن إنسان بحينا قولي هم الدائمركيين مكنوش عاطلين معانا هم والسويد والنرويجية وسويسرا، هذا يا با لأنه ولا مرة استعمرنا بلاد غيرهم، ولا سرقوا خيرات بلاد الناس » .

« هوشوفي، يا با خذي وقيسي بريطانيا لأنها استعمرت العالم، بتلاقيها أوسخ القائمة، وفرنسا بتيجي

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد وراها، وإيطاليا وهولندا على طول من بعدهم، وأما أميركا فهذه قصة لحالها، لكن أهل كربلاء والتجف والغالوجة مظلّعين عينيهم، والخير لقدام بابا، شعوبنا بدّها الحرية، بابا، وبدّها الديموقراطية، لكن هذول حكامنا أغبياء، أي هو يعني بوش وبليز مقطعين الديموقراطية من ذيلها؟، طيب ما يعملوا حكامنا مثلهم؟ شو ناقصهم؟ لا ناقصهم مال ولا أحمال، لكن إحنا قتلنا الجهل. الامية مش عند شعوبنا وبس، الامية عند حكامنا أولاً، لأنه الامية مش بفك الحرف وبس».

« شوفي ثقلك، وإسمحيلي كثر كلامي يعني » أنا فلاح ابن فلاح، وشعبنا كله فلاح مسالم، لا كان عنده سلاح، ولا كان بدو يقاتل، كان عندهم شوية بواريد (بنادق) صيد مش أكثر. لكن العدواني عدواني، بعثولنا اليهود من عندهم لأنهم ما بدّهم إيّاهم وبعد ما ذهبوا منهم لشيوعوا، هذول أجوا يقاتلوا قبل ما نحكي معهم، قبل ما نعرف شو بدّهم من عندنا. ولليوم بقاتلوا وبقتلوا وما بوّفّقهم إللاّ اللّي رتاها» «خذي على سبيل المثال الولد الشقي، بظل يتشاقى ويشاكس ويصعّد وصعّد تنوّ (حتى) يلاتي حدا يوّفّقوا، أصلاً هو تبع من المشاكسة لكن مش قادر يوقف. شوفي شارون من مذبحة صبرا وما وقف ولا حدا قالو وقف فبالنتيجة ما وقّف».

توقف أبو مصطفى عن سيل الكلام، ونظر إلى صورة صغيرة الحجم بالأبيض والأسود لشاب وسيم، وقال مبتسماً:

« هذا محسوبك أنا لما كنت شباب، لكن راح العمر لما راح ابني في عملية في أفريقيا، ومن يومها والشيب دب بالراس وبهذه اللحية، ثم أغمض أبو مصطفى عينيه وهمس: معلى كلّه فداك يا وطن. فلسطين حلوة بابا، صفورية بلدنا جنب الناصرة، كان في مركز قيادة في صفورية، والله الأرض سليبة وما بترجع من حالها».

نور

نور حسن حريري أصعب حالة اجتماعية عندي في مخيم الرشيدية. قالت هنادي العاملة الاجتماعية، وهي تنظر في الملفات أمامها بعينين خضراوين زينتاً وجهها قمحياً فاتحاً خالياً من أي زينة، ثم تابعت- وهي ترفع خصلة من شعرها انزلت من وراء أذن صغيرة الحجم:

« والد نور في السجن، ووالدتها تعمل في التنظيف بشكل متقطع، لأنها تعمل فقط داخل المخيم لان الخروج من المخيم صعب ومكلف، هذا إن وجدت الفرصة. نور بنت صعبة ومشاكسة، وبذيئة

اللسان، ومزعجة في البيت، والمدرسة. نور في الصف الأول تذهب إلى مدرسة الأونروا، وتخصص الأونروا لها مبلغاً صغيراً لكن غير ثابت، لأنه متعلق بالميزانيات المتوفرة لهذا المجال. لنور شقيق أصغر منها بعام يعني عمره خمس سنوات أو أقل».

سالت هنادي عن أسباب صعوبة التعامل مع نور على صغر سنها؟ ومع انتهائي من السؤال سقط التحفظ الذي وضعته هنادي وقالت دفعة واحدة:

«مش عارفين نتعامل معها، مجنني أمها، ويتضرب أخوها الصغير لأنه محبوب أكثر منها، لأنه هادي ووديع، مجنني المعلمة في المدرسة. وكمان بتروح على مؤسسة أطفال الصمود، حاولوا إيجاد كفيل ليكفلها، بتعرفني عندهم في الجمعية عدد كبير من الأطفال أحوالهم المادية جداً صعبة بسبب فقدان الأب، أو الأم، وأحياناً الأب والأم».

«بالتالي يعيش مع أحد الأقارب الجد أو الجدة، والكفيل فاعل خير يتبرع لهذا الطفل بمبلغ شهري بقيمة ٣٥ دولار، نور ما زالت في الانتظار هي وأخوها ما فش حظ، لما بتسكر الدنيا بتسكر من جميع الجهات».

في مدرسة القادسية سالت عن نور، فوجدتها طفلة آية في الجمال، نحاسية الألوان، عسلية العينين، عقصت شعرها المجد ذيل فرس، فبدت رقبتها النحيلة كأنها تشي بجمال واحد. جلست نور أمام مكتب مديرة المدرسة مندهشة من هذا الاهتمام البالغ فيه، وغير المتوقع، واحتارت من هذا الكم من الأسئلة الموجهة إليها، بدلا من الأوامر، والنصائح التي اعتادت عليها.

وقد شعر الحاضرون وكان من واجبهم المساهمة بأسئلة كانت في الأغلب بلا معنى، بدءاً من مدرسات ينتظرن حصصهن، إلى المديرة، إلى عدنان الذي رافقني في مشواري، وحتى خليل السائق. وما زاد الطين بلة، عندما حاولت التدخل ليكفوا عن توجيه الأسئلة، وسألتها إذا كانت ترغب في الخروج من المكتب لتتحدث في الخارج، أنها أرخت عينين لوزيتين وجمدت في مكانها بصمت. كائنني رايت ستائر من الفولاذ قد أسدلت، عندئذ سكثت، وفهمت، أن نور أقفلت الأبواب. وعندما رأت المديرة هذا الوضع بادرت إلى إبطار نور بالمديح، فهي ذكية عندما تدرس في البيت، ويمكن أن تكون من الأوائل إذا أرادت.

وتابعت: «نور بحاجة إلى تشجيع، لكن أمها مشغولة، والعاملة الاجتماعية لديها عدد من الحالات يفوق طاقة الإنسان، والمشاكل تزداد مع ازدياد البطالة، ونور نتيجة لوضع عام يحتاج انخيم».

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد

« ونور بالذات بحاجة لنشاط جسدي، رياضة سباحة، وفي الخيم هذه النشاطات شبه معدومة، لا توجد لدى الأونروا إمكانيات خارج إطار النشاط التعليمي، تبقى منظمة أطفال الصمود، التي تقدم مساعدات، ولكن بشكل محدود وعلى نطاق ضيق. فالمشكلة الأساسية بما فيها مشكلة الأونروا، هي المكان، والمدارس مشغولة، في الصباح المدرسة للصغار وبعد الظهر للكبار، هذه الطريقة في التعليم غير موجودة في العالم إلا في مدارس الأونروا، والمنهج الدراسي يخلو من الرياضة أو الرسم أو الموسيقى.

البحث عن الرياح في برج الشمالي:

سرت مع عدنان إلى برج الشمالي، سرتا في الأزقة، ومررتا بثلة تراب، انتصب من ورائها جدار إسمنتي، عبر من فتحة جانبية فيه طلاب مدرسة برج الشمالي، وللمعبر كان عليهم أن ينتظموا بطاير طويل. سألت عدنان لماذا لا يوسعون الفتحة في الجدار، ويزيلون تلة التراب التي تعيق السير، إذ يتوجب على الأطفال أن يتزلجوا عليها مستعملين أقفيتهم لكي يصلوا سالمين؟ وإزالة كومة من التراب لا تطكلف الكثير؟

نظر عدنان إلى التلة وقال:

« ممنوع إزالتها لأن الحكومة حطت هذا المتراس لمنع إدخال مواد البناء ».

ثم دعاني لزيارة دكان للحدادة، وصلنا إلى المكان الذي أسماه دكان الحدادة، حيث تجمع عدد من الشبان يتبادلون أطراف الحديث، فقال لهم عدنان:

« إحكموها عن الساتر يا شباب ».

تبرع شاب بلبس قبعة بيسبول، وقميصا مربع الرسوم، يتكئ على لوح حديد علاه الصدا قائلا:
« الساتر يعني الطرق اللي بتوصل للمخيم، دون العبور بالحاجز العسكري اللي في مدخل الخيم، المكان اللي انتو دخلتو متو، عشان تنفادي مصادرة حاجاتنا، لأنه إذا بدنا نمرق يعني دعامة خشب، أو لوح زنتك، أو أي شيء بخدم في الممارنمر عن الساتر، هم العسكر اللي حطوا الساتر، المهم بنحط أغراضنا عند الساتر، وبنلف من عند العسكر وبنعبر فاضيين، بعدين بنرجع بنحط السيارة على هذه الناحية من جوه الخيم، وبنحتمل اللي جنبنا، بنوديه على الدار، أو وين لازم...

هذا هو الساتر ».

وسألته عن سبب المنع؟ فوقف منتصباً، وقال بصوت خالٍ من الرخاوة التي رافقت صوته حتى تلك اللحظة:

«لأنه ممنوع البناء، وإذا مسكونا ومعانا فرشاي، بتعرفي الفرشاي؟ فرشاية دهان ... هذاك اليوم واحد كان جاي ومعاه فرشائتين دهان، كان حططهم في سطل تنر عشان ما ينشفوا، قال له الجندي: شو هاط، جاوبو: ما أنت شايف شو هاط، فراشي للشغل، قال له الجندي: ممنوع، رد عليه: والله يا عمي هذول للشغل، قال له: ممنوع. عندها تدخل شوفير (سائق) التاكسي، وقال لهم: يا عمي بدنا نروح على دورنا، صار الزلّة جايهم، قال له الجندي: انتو اعبرو، لكن الفراشي ممنوع، قام صاحب الفراشي مسكهم وزتهم (رمى بهم) على الطريق تنهم عبروا».

ثم بدأ جميع الشباب بالمشاركة في الحديث، وسرد القصص عن الساتر، وقال صاحب المائدة: «يا اختي إذا مسكونا مع لوح حديد بوقفونا، يوم.. يومين، وبدفعونا مخالفة، ويتوصل المخالفة عشرين، وثلاثين ألف ليرة (خمسة عشرة إلى عشرين دولار). يعني ربح الشهر بيهروح، علشان هيك بنهرهم عن الساتر. إذا مات حدا من ها الخيم، بدنا ندفنه، وبنني له قبر، عشان نفوت ثلاثين حجر لبناء قبر بدنا نصريح، وبدون تصريح لا يمكن بناء القبر، هذا قانون من سنة ١٩٩٦، قال على أساس ما يدهمش الفلسطينيين يتوطنوا».

تدخل شاب آخر في الحديث قائلاً:

«تصديق لكلام أخونا حسن، ليش العالم وقف مع مانديلا وشعبه؟ ومش على مستوى شعب ويس، وكمان على مستوى حكومات وقف العالم مع شعب جنوب أفريقيا، شو عمل مانديلا؟ اللي عملو منديلا معمولوش بعض السياسيين عندنا. طيب هذا ابني اساليه: أنت من وين؟ بقلك أنا من البص في فلسطين، وابنه راح يقول نفس الشي، بدي أقول إذا طالت قضيتنا معليش، ولكن مش معناه نختصرها، واللي تعب يروح على كندا».

تدخل الشباب بعد هذا الحديث للمشاركة، وتجمعت حولنا جمهرة منهم، وكان على الواحد منهم أن يرفع من صوته ليتمكن من إنهاء جملته، قال أحدهم بصوت مرتفع:

«خلص، يا عمي بدنا نرتاح، بدنا نعيش يوم من دون خوف، إحنا تعبنا، كلنا تعبنا، والعالم تعب معنا، ومنا، ومن قضيتنا».

وقال آخر:

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد

« احنا تعبنا صحيح، لكن العالم ما تعب كفاية، لو تعب العالم كانوا حلوها ». وآخر:
« بدهم يحلوها بجلنا »

وآخر:

« اللي تعب يروح على كندا »

وآخر:

« أنت شو فاكركندا منفي؟ والله كندا مش حل غلط، على الأقل نعلم أولادنا وندخلهم مدارس وجامعات، ونكمل من هناك، هم الفلسطينيين ليش ما عملوا مثل اليهود، اليهود فاتو على جميع الحكومات والمناصب، ومن هناك يحاربوا، لو عرب أميركا وصلوا في أميركا كان حالنا غير هذا الحال، وقضيتنا مش موضوع جدل ».

يرد عليه آخر:

« معاك حق، لكن المشكلة اليوم حتى اللي واصلين من قلتهم، يحاربهم الصوت الصهيوني، شوفو شو عملوا مع إدوارد سعيد، حاربوه واتهموه بالعنصرية، ولما مات نوه. نوه يحذر، حتى كوفي عنان قال في النعي، لم أوافقك الرأي دائماً. طيب هل هذا وقته؟ اللي بنعي بنعي من غير ما يقول هيك عن واحد مات ».

سال آخر: « صحيح هيك قال كوفي عنان؟

« قال هيك ونص، مع انه كئنا نفكر عن كوفي عنان انه شخص عادل ».

وآخر: « عادل وين يا عمي، لو بدو يكون عادل كان طالب بإدانة المضروب والضارب!!

وآخر: « بس إن جيتو للحق عنان وقف منيح للأمريكان في العراق، ضمن الممكن ».

يضحكون من عبارة « ضمن الممكن ». شاب صغير يطلع بصوت ويغني ساخراً:

« يمكن آه، يمكن لا، ويمكن ما يمكنشي، واطلع يا ولد ». وبدأ الهرج والضحك وضربات خفيفة على الرقبة. لكن الشاب واصل الغناء، وأنشد بفتح، أو دلج المغنيات الجديديات، وباللهجة المصرية:
« مش ممكن بأقل الممكن، ولا أقصى الممكن، ما أقدرش على الممكن، لأن الممكن بيتعيني، بيتعيني، آه منك آه يا متعيني، خذني وحياتك على المش ممكن أصله أنا غاوي عذاب ».

زاد الهرج وتصاعدت الضحكات خالية من الهم، وشرعت جوقة من الشبان في إنشاد « أنا غاوي عذاب، غاوي عذاب ». وصاح أحدهم: « الله عليك، يا عليان والله بتنفع لسوبر ستار ». فابتسم

عليان ورفع يديه مبتهجاً، وأنشد بعدها بأسلوب الموال:

«آه... آه عليك يا مستربوش، الوعد بالحرية بعده طري، وأهالي الفالوجة والنجف اشتغلوا في قفالك شغل السمكري، وأنت مش عارف إن الحرية ما بتتنشري شري أوف... أوف، ولك يا رفح بنشرب كاسك لكن أنا حياتي مهرة هري (بالية) ويللا شباب... زقفة شباب».

أشباح من الماضي

على أحد سطوح مخيم برج الشمالي، غير بعيد عن دكان الحدادة، أحاط بنا الغسيل المنشور على الجهات الأربع. جلست على كرسي قبالة أحمد سرور، الذي جلس أمامي محتاراً، لم ينظر إلى وجهي، مع أنه كان ينظر في جميع أنحاء المكان، بدا وكأنه يراقب ألوان الثياب المعلقة على حبال الغسيل، ثم حطت نظراته على وعاء غسيل أحمر.

وبعد صمت دام دقائق قال:

«أنا مكنتش مع أختي نهاد، وباقي أهلي، لما صارت القصة».

— قصة شو؟

— القصة اللي بتحككي عنها.

— وين كنت؟

— هربنا لما سمعنا عنهم.

— من هم؟

— في شاب قال أهرو، وهربنا مع أخوي الثاني.

— أي واحد من أخوتك؟

— محمد،

— متى عرفت بما حدث لاهلك؟

— الناس قالوا لي.

— شو قالوا لك؟

— قالوا لي اللي صار.

— وشو صار؟

-اللي صار معهم كلهم.

-احكي لي.

-ما أنا حكيتلك!

تناول أحمد قلما من جيب قميصه الزهري، فتحه وأغلقه عدة مرات، ثم أعاده إلى جيبه. ورغم الأربعين عاما التي قضاها، إلا أنه يقوم بحركاته الحائرة صغيراً وصغيراً جداً. تفرقت في عينيه دموع وقال:

«اعذرني، أنا لا أتحدث في هذا الموضوع.. أمي اجت مع نهاد، وحكوا لي القصة، أبوي راح، وكلهم راحوا، أبوي كان كل شيء في حياتي، كان صديقي، كان يلعب معي الشدة، بالساعات، لما كنت في الجامعة كان يجيب لي كاسة الشاي، ويمسح على رأسي ويقول الله يرضى عليك»
«هاي مرق عشرين سنة، وبعدني بحس بأيده على رأسي. أنا بتذكرش كثير من اللي صار، مش لأنني كنت صغير، بس ما بعرف، بتذكرش، أحياناً بتيجي صورة هون وهناك، ذاك اليوم تذكرت اشي لما شفت [في التلفزيون] دهاية تهدم بيت في رفح، لكن الصورة مرقّت بسرعة البرق، واختفت، وحتى نسيت شو هي، بس ارتجف كل جسمي، زوجتي فكرت إنني بردان، جابت لي حرام وحطتو علي، مع أنه مكانش في برد، كانت الدنيا حامية مثل اليوم. لكن ما قلت لهاش، وقمت نمت. وبعدين أنا من زمان ما خشيت شتيلا. هذا البيت أول بيت إلنا، لما رحنا نواحي بيروت، أو صبرا، سكرناه، عشان صبرا أقرب على الجامعة، وأبوي كان حابب يعلمني، ولما صارت الأحداث، رجعت أنا لهون، لأنه هذا البيت بناه جدي وأبوي بعد كم سنة من وصولهم من فلسطين لاجئين».

— بتزور والدة؟

— لا، بسأل عنها ماهر، ماهر يجي لهون، هي كانت تيجي لهون، بس من يوم ما راحت سعاد على برة، سافرت، أمي تعبت، تعبت كثير. مع إنها زمان كانت قوية، لما صار اللي صار، قالت لي: اللي مات مات الله يرحمه، أنت أسمراني، ومع هذه اللحية راح يوقفوك، احلقها، فحلقتها، وشردت من هناك، وجيت على هون.

— من مين سمعت عن سعاد؟

— من الناس، الناس عرفت، هي ما كانت تحكي، قعدت أشهر ما تحكي، بعدين بعد أشهر حكّت، وسالتها، قالت صحيح أخذوها.

-يعني أنت خرجت بعد صبرا بأشهر؟

-آه..

لا تعيش الزهور في شتيلا

جلست سحر الشيخ وراء مكتبها الصغير في مخيم شتيلا، وجلس أمامها رجل في الأربعينات من العمر، قالت سحر للرجل:

«إن هذا المشروع لن يعيش طويلا. محل زهور؟ مين بدو يشتري زهور؟ وإذا ما بعث لمدة يوم أو يومين تذبل الزهور! وما في ثلاجة تحفظها، وإذا كان في ثلاجة، الكهرباء بتقطع كل يوم والثاني».

سحب الرجل نفساً عميقاً وقال:

«طيب بلاش محل زهور، ساعدونا نفتح محل سمانة؟».

تتنهد سحر وتقول:

«على كل الأحوال المسؤولة مش موجودة، وأنا هاي مش شغلتي، ومحل سمانة لشو؟ في الشارع الواحد عشرين محل سمانة، ليش كمان محل سمانة؟ افتحلك محل خرده هيك على الأقل الخرقة بتخربش ولا بتتعفن، وبيوت الخيم قائمة على الخرقة وعليها طلب، عاود وفكر شوي بالموضوع، الاونروا بتمول بالكثير إذا كان المشروع منجرة ثمان آلاف دولار، ولازم نتأكد إن المشروع مريح عشان تسديد القرض».

خرج الرجل مكسور الحاطر قائلا:

«بخاطر ك يا ست سحر».

التفتت سحر نحوي وقالت بأسف:

«يعني بيبجو بمشاريع فاشلة من أصلو، إذا واحد فتح محل حلو كلهم بدهم يفتحوا محل حلو، وإذا فتح واحد محل عصير كلهم بدهم يفتحوا محل عصير، شو بتقترحي؟ كيف أرد عليهم؟

.....

دخلت إلى عيادة الخيم، التي تحتل الطابق الأرضي لبناء من طابقين، مررت في غرفة الانتظار التي جلس فيها مرضى الساعة الأخيرة، وتوجهت بنصيحة من محمد مباشرة إلى عيادة الطبيب، سألتها إذا كان بالإمكان إزعاجه خمس دقائق، فابتسم في وجهي وقال:

«إذا كنتي مش مريضة ياريت تزعجيني، خليني أتنفس، صار لي قاعد على هالكريسي من الساعة

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد

الثامنة، يعني صرت شايف بالتمام والكمال مائة وأربعين مريض، لأن زميلي ما أجاش اليوم فشقت مرضاي ومرضاه، شو رأيك؟ اتهد حيلي؟.

سألته: كم من الوقت يعطي لكل مريض؟ فقال:

« احسبهم، في الايام العادية بشوف ستين أو سبعين مريض، أحياناً دقيقتين، وإذا كان مريض جديد عشر دقائق يا دوب، هذا هو الوجود»، ثم نظر من شق الباب وسأل: «يا منير، شو قال رجع مدير الأونرو هانسن على رفع؟».

دخل منير إلى مكتب الطبيب، وقال:

«معلوماتك متأخرة من زمان راح، وصارت تصريحاته على كل شاشات التلفزيون، الوضع برفع بذكرنا بحصار الخيمات، وعملية قوس قزح انتهت، بعد ما طحنتهم طحن ورجعتهم لايام الثماني وأربعين بالخيام، وعلى المؤن من الأونرو».

رد عليه الطبيب:

«والله خسارة، عاد أهل الخيم كانوا مستعدين ومبسوطين ونظفوا الخيم، والآي كان مطمئن حالة بمساعدة أو إعانة راحت عليه».

قال منير: «بيه، هاي أصلاً المساعدات مش راح تطول الكل إلا لإصلاح الماوي وللמراكز التدريبية».

وبرد الطبيب:

«يعني لازم يكون عند الواحد شهادة فقر مع إعاقه ويا دوب، مع إئو كلهم يعانون من الضغط والقلب والسكري ول...ول...».

خرجت، ومنير، إلى شوارع مبلولة، وروائح رطبة متعفنة، وحوانيت دلقت محتوياتها على حواف أنهر المجاري التي فاضت بها قنواتها، فأغرقت جميع الحفر، وركدت فيها بالوانها الغامقة. وإذا كان بالإمكان تفادي الحفر، فإلى أين المغر من المياه المتساقطة من الغسيل المعلق في كل مكان فوق الرؤوس؟ طلباً للجفاف تحت أشعة شمس تحابلت للدخول بين الشفرات التي تركها البناء العشوائي الذي احتل سماء شتيل.

قطعنا جانباً من الشارع الرئيسي الذي اكتظ بباعة عربات تعلوها البضائع من جميع الأنواع، أوعية بلاستيكية ملونة، وأدوات كهربائية مزورة لا تعمل أصلاً، استمعت للحوار الدائر بين المشتري والباعة، وكان الكلام في مجمله عن البضاعة الفاسدة.

دخلنا إلى باحة المدرسة التي انصفت بابها وراءنا، ونقلنا إلى ضجيج من نوع آخر. كخلية نحل مهاجرة إلى مكان غريب لا شجرة فيه للركون عليها، أو حافة جدار أو ثغرة تحط عليها الرحال قبل رحلة البحث عن مكان آخر.

كان الدور في تلك الساعة للبنات (في مدارس المخيمات، وبسبب انعدام المدارس، يُستخدم المدارس لتعليم فوجين، الأول في الصباح والثاني بعد الظهر)، دخلنا إلى مكتب المدير، التي كانت في اجتماع مع مرشدة اجتماعية، والمدير الإقليمي للمخيم. أشار منير إلى المرشدة لتستمر في حديثها، فتابعت وكأنها اعتادت المقاطعة، وبالضبط حيث توقفت عند دخولنا:

« مع هذا الكم الهائل من الأطفال ؟ يعني أنا مرشدة لثلاثة عشرة مدرسة، كل مدرسة فيها ألف وخمسمائة طفل ! أي شو هو الإرشاد بخور بَيَّخْرُهم فيه ؟ يا دوب أسال الطفل عن اسمه، أنا أمام باب مسدود، والمشاكل جاي من جميع الجهات، (تعد على أصابعها) الأستاذ جزء من المشكلة، والطالب جزء، والأهل جزء، والجو العام جزء، والمنهج صعب لأنه مستورد من كندا، والمعلم عنده خمسة وثلاثين دقيقة ليعلم منهج هو نفسه مش فاهمو !

« والأهل مش بها الوارد، الطفل أو الطفلة بطلعوا على المدرسة والام نائمة ! أو الام مطلقة، أو أرملة، أو زوجها عاطل عن العمل، ما في تواصل بين الأهل وبين المدرسة، الولد ما بفكش الحرف، وممنوع يرسب لانه ما فيش امكنة للأطفال اللي جايين وراءه !؟ والكتب مش جاهزة إلا في شهر تشرين ! » .

سكتت، عارفة المرشدة (وهذا اسمها) وما زالت يدها مرفوعتين في الهواء، استمعنا إليها دون مقاطعة لهذا السيل من الملاحظات، وعندما سكتت وكاننا احترنا بهذا الصمت الذي أحدثه صوتها القوي الواثق من كل حرف قالته، انتظرت متا طرح الاسئلة، فاطعتها وقلت لها: « وهل هناك حل ؟ »

فتابعت وكأنها لم تتوقف بذات الثبات والقوة:

« معلوم في حل، إعداد معلمين متخصصين لجميع المواد ثم إعدادهم على المنهج قبل تطبيقه، تمديد وقت الحصّة من خمس وثلاثين دقيقة إلى خمسين، إلغاء نهج مدرسة صباح ومدرسة في المساء، والدوام المزدوج، يعني إيجاد مدارس وزيادة الغرف للتخفيف من عدد الطلاب في كل صف . إنشاء جريدة، وإنشاء مكتبة، وتأسيس مركز لإرشاد الأسرة. هذا هو الحل » .

أم سعاد

التقيت بجميلة في مكان عملها، في مركز أطفال الصمود، أوصت البنات العاملات في الحضانات،

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد

التقيت بجميلة في مكان عملها، في مركز أطفال الصمود، أوصت البنات العاملات في الحضانات، وخرجت وهي تتذكر بين خطوة، وأخرى، أمراً فتعود ادراجها لتؤكد على أمر جديد، واستطعت بأعجوبة إقناعها بالخروج إلى الطريق.

سرت وجميلة في أزقة شتيلا حتى وصلنا إلى بيت محمد ونهاد، نادينا على محمد الذي أطل برأسه من الباب، سألته جميلة أن يصحبنا إلى بيت جدته لأننا لا نعرف الطريق. وفي الحال انتعل حذاءه المكون أمام العتبة، وأقفل الباب وراءه بسلسلة ثخينة من الحديد بقفل قديم كبير. وانطلق معنا وقادنا بين الأزقة، حتى وصلنا إلى حدود ما كان يسمى صبرا.

كان بيتاً قديماً اعتلاه طابق لا يشبهه في شيء سوى في سكانه، كان البيت رغم بساطة أثائه في غاية النظافة، الكنبه والكراسي مغطاة بأغطية بيضاء، مزينة بورود زهرية، جلسنا في الصالون، وصوت سيدة أتاناً من الداخل، يعلمنا بأنها ستنتهي من الصلاة وستنضم لنا حالاً.

نظرت في أنحاء الغرفة المفتوحة على غرفة أخرى، فلم أر أثراً لقطعة زائدة، كانت الجدران مطلية بالأبيض، ولكن بسبب قلة الضوء مال اللون إلى اللون الرمادي. وقع نظري على باقة زهور من البلاستيك ضمت جميع الألوان، ورغم ذلك افتقرت لأدنى قدر من البهجة، بل بدت وكأنها ورود ميتة.

جلست جميلة إلى جانب محمد تسأله هامسة عن أحواله، ورد عليها محمد بالهمس هو الآخر، وكأنهما يتحدثان في كنيسة أو مسجد. دقائق قليلة ودخلت أم سعاد بثوب أبيض موشى بورود صفراء متوسطة الحجم، وورود أصغر حجماً باللون الأزرق، وضعت على رأسها منديلاً أبيض، همست بالسلام وجلست بجواري ونظرت متسائلة بعينين لا لون لهما، كان شيئاً ما أو ستارة دون لون التصقت بهما.

وبالرغم من سمرتها، إلا أن بقع النمش انتشرت على بشرتها. تمتمت بكلمات لا رابط بينها، وكاني فهمت بأنها تسأل لماذا أتينا. ثم سألت بلسان ثقيل ولكن بصوت مخملي خافت: «كيف أهل فلسطين؟»

جميلة سألت أم سعاد عن حالها، ردت عليها:

« بصير لسانني ثقيل، بعدين بنعس ».

سألتها عن سعاد، قالت إنها سافرت بزة، على بلجيكا. كان طفلان يلعبان في الفسحة الصغيرة

أمام الغرفة، عندما علا صوتهما قالت :

« هذا شوفي، بنت وابن عباس، لا يا ربي ابن علي ل... أ... ابن محمد، لا ابن إسماعيل، لا إسماعيل راح، آه... ». ثم بكل جهد تقول :

« صفاء خذي عباس وروحي لأمك ». تتنهد جاهدة، قالت لها جميلة : « ديري بالك على حالك يا حجة ».

تهز رأسها ببطء وتقول :

« أدير بالي على حالي؟ ما اللي راح راح، لا... اللي بقلبي ما راح، اللي بقلبي ما بروح، مش هيك؟ ما بروح ».

وسألنها : « مين اللي راح؟ »

تأثت : « أنا كان عندي تلتعشر ولد، بسام راح، وفريد راح، وشادي راح وشادية راحت، واسماعيل راح بعد هن بمدة منيحة (طويلة) وأبوهم راح ».

— كيف راحوا يا حجة؟

— راحوا بصبرا، سمعتي عن الأحداث؟ هذا من زمان، أجولنا هون، وراحوا هيك.

— وين يا حجة بالبيت هون؟

— هون الأربعة هون، وأبوهم معهم هون وإسماعيل مش هون، دفنوهم مش هون، بعيد. آه راحوا، رشونا، أنا ونهاد لا، يمكن هربنا، طلعنا على غزة (مستشفى غزة) وبغزة غير شكل كان، صعب نحكي، أحكي وقلبي مش متجمع، ها بتروح الكلمة، هي مش بتروح بس هي ما بتيجي الكلمة. — اساعدك يا حجة؟

— كيف بتساعديني، بتعرفني تساعديني، أنا بعرف كيف بتساعديني؟

— وسعاد؟

— وسعاد؟، هذيك سعاد أضت كثير (مرّت بالكثير من الأحوال)، سعاد مفش اجرين تمشي عليها مقدرتش أحملها مع نهاد، كانت راقدة بالأرض، أخذت إسماعيل وماهر، وتركتها راقدة.

سكنت الحاجة، أشاحت بنظرها إلى الأرض، ثم صعدت بنظراتها إلى الحائط، ركزتهما على فجوة في الحائط. محمد قال :

« هذه آثار رصاص ».

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد

طال صمت الحاجة، نظرت إلى وجهها، ولاحظت أن طبقة من الستائر نزلت على عينيها، وهمست :

« احنا مسحورين » ، ثم حولت نظرها إلى آخر الغرفة وتنهدت وقالت :

— آه ... عملت حالي ميتة، إسماعيل وماهر لظو في الحمام، وسعاد .. سعاد رجعوا لها مرة ثانية، الله العليم، رجعوا لها بدمها، بعدين أجت واحدة اسمها شهيد جوزها من المغرب، هي صاحبي، اليوم مش هون هي، راحت على باريس، بطلت تيجي تلاتنا، بتعرفيها؟ سلمى عليها. والله هي أخذت سعاد مع الصليب على المستشفى الأميركية. كان شغل غير شكل، أنا ما في شي بخوفني، بس بخاف من المقبرة، ييه مش عارفة أقول كنت زمان أحكي، بس عم بروح الحكي مني، ما بعرف ليش؟ بس بخاف من المقبرة، بتوخذ، بتبلغ المقبرة ما في إلها قرار، بس سعاد، راحت بعيد، أنا بحكي مع سعاد، راحت سعاد، بطل الكلام بيحي، هذا ... شو الكلمة يمة، آه ... أنا، آه سحر، ابوة سحر، كله سحر، مش من رينا ».

خرجت بصحبة جميلة ومحمد من بيت الحاجة، سرنا دون أن نتبادل الحديث، مع أنني تعودت على جميلة تحكي عن كل زاوية في الخيم، فأغيم بالنسبة لجميلة عبارة عن تلال من القصص، إلا أن صمتها هذه المرة لم يزعجني، بل أراحني.

حتى محمد لم ينبس ببنت شفة، رغم أنه طلب أن يحدثني عن موضوع هام، في طريق العودة، لاشرح له كيفية الحصول على منحة دراسية، كي لا ينتهي به الزمن متكئاً على حيطان الخيم. سرنا دون أن ننتبه إلى أصوات الباعة الذين انتشروا بالمئات، اختفت أصواتهم وعم الصمت المكان، وسقط المغيب، وبدأ الليل يلف المكان، رفعت يدي مودعة جميلة ومحمد اللذين غابا في أحد الأزقة، ثم اختفى المكان تماماً، وسمعت الحاجة تقول أنا .. مسحورة ...

■ ■

حديث في الظلام

اتصل بي ماهر، وخرجت إلى لقائه، ومع مفتاح مكتب يوسف الذي قال لي :
« دقي على — مونيك — وقوليلها انو انت موجودة في المكتب عشان البواب ما يفكر إنو في حرامية » .

دخلت وماهر إلى مكتب تكدست فيه الأوراق، وآلات فاكس وطباعة، جلست مع ماهر وما زلنا

في مرحلة السلامة والتحيات، وإذ بمونيك أمام الباب الزجاجي تحمل صينية وعليها أكواب شاي، فتحت لها الباب، وتناولت منها الصينية، وقالت بالعامية اللبنانية بلهجة فرنسية بأنها لم تجد في البيت سوى بضعة موزات، وبأن يوسف وعبودة سينتظروننا في البيت.

دهش ماهر عندما قلت له بأنني تعرفت على مونيك ويوسف منذ يومين، ومع ذلك أحتل مكتبهم، ويقدمون لي الشاي. قلت له: إنني زرت نهاد شقيقته، واستقبلتني مرتين في بيتها، وكاني صديقة العمر، ورويت له بعض القصص التي أضحكنا. قصت علينا جميلة، مثلاً، قصة قنص الخيار السابع في مياه الطرقات، أثناء حصار الخيميات، عندما جاع الصغار، وأخذوا يراقبون القناصة وتحركاتهم، أمام فروحات أسلحتهم، لكي ينقضوا على الخيار في الطريق، وكلما ظفروا بخيارة يتصاعد التهليل والفرح، حتى اعتقد القناصة بأن نجدة وصلت الخميم.

ماهر لم يتسم. ورغم أن ملامح وجهه لا يمكن وصفها بالعابسة، إلا أن شيئاً ما في ملامحه لا يشجع على المزاح. فسألته عن ابنه الذي تسمم بسبب أكله للفول الأخضر، فقال:

«كل شي تمام ما في مشاكل، لكن طلعوا عيني عشان يعطوه دور، بيني وبينك أنا ندمان إنيو تزوجت وجبت أولاد، أنا بطلع في المراه، وبشوفش إني مناسب أكون أب.»

نظرت إلى وجهه، وسألته عن عمره، وعندما قال إنه في السابعة والثلاثين دهشت، إذ لا تشي ملامح ماهر بأكثر من سبعة عشر عاماً مع المبالغة. وعندما قلت له ذلك قال:

«أنا دائماً عرفوني الناس هيك، من لما كان عمري خمسة عشر سنة وأنا أنا ما تغيرتش، زمان كان شكلي ونحافتي تنقذني من كثير مطبات، الفرق الوحيد بين زمان والآن إني طولت قامتي شوي. أيام [تل] الزعتر لما أجو علينا ولمونا، لموني مع الصغار، فكروني طفل، كنت أنا الدينامو في العائلة.»

«بتذكر أيام أحداث الزعتر؟»

عندما سألت ماهر هذا السؤال، كان الظلام يزحف في أرجاء الغرفة، ويعاكس المصباح الكهربائي ويسلب من ضوءه، بدا ماهر طفلاً صغيراً جداً يحمل سيجارة يدخنها خفية عن والديه، سحب عذة أنفاس من سيجارته وأطفأها في قشرة موز، ثم أشعل سيجارة أخرى، وانطفأ النور، وسمعنا رنين الهاتف، فأهملناه، دارت عيننا ماهر بسرعة في أرجاء الغرفة، باحثاً عن صتام النور، حاول رفعه إلى أعلى ثم دار باحثاً في أرجاء الغرفة، سألته:

هل تخاف الظلام؟

قال: لا، فقلت: إذا تعال واجلس ولتحدث في الظلام.

عاد ماهر وأطفأ سيجارته في قشرة الموز وقال :

« كان اليوم خميس ، رحت على فرن بالاوزاعي أشتري خبز كان معي ولد اسمه حسين ، كان الوقت بحدود العشرة أو حداث ، واحنا راجعين مرينا من جنب السفارة الكويتية ، سمعنا صوت طلق نار ، ظلينا مكملين للمخيم ، كان في ملثمين ، فكرناهم شباب من عناء ، قلت لأبوي ، أخوي محمد كان فدائي طلع على السطح ولما نزل قال لأبوي كأنهم مش إسرائيليين . أبوي أعطى محمد واحمد خمسين ليرة وقال لهم اطلعوا على مستشفى غزة أحسن ، يمكن يفتشوا على شباب ..

إحنا ظلينا بالبيت ، مع المغرب أو العشاء ، طلعت مع אחتي سعاد تنشوف إذا في اخبار في ملجأ أبو ياسر ، في الطريق صرت أنا وسعاد نحكي بصوت عالي لنتوتس بصوتنا ، خفنا لما ما سمعنا صوت ، مرينا بناس نائمة في كل محل ، وأشياء بتلمع على الأرض ، كنا نلاحظها لما كانت تطلع قديفة مضيفة . وصلنا كانت أم ياسر نائمة على الأرض ، ما كنا نشوف متيح ..

فكرنا ما في محل بالملجأ فناموا برة ، نزلت على الملجأ أشرف ، كان فاضي ، سعاد ظلت على الباب ، طلعت أقول لسعاد ، انتهت على أبو رضا ، عرفته من ثيابه لأنه شفته بالنهار ، قذمت عليه وسألته : وين الناس ؟ قال لي : قوسنا ، قلت له : بدئي أروح أجيب أبوي ، أنا كنت لابس زنوبة ، ساعتها فهمت انه الناس مش نائمة انطلعت ناحية سعاد شفتها ، ركضت قدامي وفانت على زاروب ، انطلعت على الناحية الثانية وإذا الملثمين جاين .

نفدت على زروبة ومشيت شوي شوي ، شفت سعيد العايد جازنا قربت عليه لقيته مقتول ، وركضت وزرقت على الدار قلت لأبوي كلهم مقتولين ، حط إيدو على فمي ، وشاف ثيابي كلها دم ، جرنني على الحمام وغسلني وقال تحكيش لاختوك الصفار ، على السكت . رجعنا قعدنا نمنا للصبح قاعدين ، والأصوات دق على الباب ، وصوت افتحوا الباب ... افتحوا الباب ، سعاد قالت : لا ، ما تفتحش الباب ، قالوا إذا بتفتحوش الباب منضرب قنبلة ، أمي قالت له : افتح الباب ، فتح أبوي الباب .. كانت الشمس دويها طالعة ، فاتوا وبلشوا يفتشوا البيت ، قال لهم أبوي : ما عنا شي ، أنا بصلح تلفونات ، كان أبوي حاطط مصاري بقلب حفاظات אחتي شادية ، طلعمهم وقال لهم خذوا المصاري واتركونا في حالتنا . كانت אחتي شاديا تبكي ، كانت يا دوب بأول المشي كان عمرها سنة ونص ، كانت شقراء عن دونا كلنا ، هي ونهاد ، نهاد אחتي راحت حملتها ، فكروها لبنانية ، قالوا لها : اطلعي معها برة وانتي فوتي ، نهاد حطت شادية على الأرض خارج الغرفة بالسفحة الصغيرة ..

فات واحد عندهم لكنه أرمني ، قال لهم بعدكم ما قوستوا وأخذ السلاح ، وقال هيك بقوسوا

وضرب سليط (مشط رصاص) . أنا كنت واقف على باب غرفة النوم بالوجه، كانت الشمس بادية تفوت منيح من الباب، والجندي واقف والشمس بقفاه، ما يعرف إذا في حدا تصاوب، كان أبوي يطلع علي بس ما يحكي، سليط ثاني انطلق وأبوي كان طويل شفته بسقط كأنه جدار، أنا شفت أبوي سقط ورجعت لورا، كان إسماعيل واقف على باب المطبخ، شديته من ايده ودخلنا على الحمام قعدنا في الزاوية، بس الباب مشقوق، بذيش أسكره ..

بس خفنا يفتح الباب وينتهوا، والباب بالعادة بزيق، فأمسكت بالباب وثبتت ايدي من وراء، بسألم كان شايقنا، كان بدئو يقرب علينا، أطلقوا عليه رصاص وقع على شادي وفريد، وسمعت صوت أبوي بقول أي! ..

شادية فانت ركت حالها على العتبة وشافتنا، وصارت تقول نانا . نانا، محسنت حالها عن العتبة، وراحت تلا أمي مسكتها، أمي ظلت بدون حركة، انتقلت شادية لأبوي وقالت نانا، واحد قال اطلق سليط (سبع طلقات مرة واحدة)، شادية رشق راسها زي اللين . كانت لابسة فستان أحمر مورّد بكحلي وأبيض وسكت الصوت، كان صوتها هي بس اللي طالع .

صمت ماهر، ونظرت إلى نقطة الضوء الأحمر على جهاز التسجيل، وفجأة انغمر المكتب بالضوء الكهربائي . أشعل ماهر سيجارة، وسحب عدة أنفاس صغيرة، بصمت، نظرت إلى وجهه الأسمر النحيل، رايت أسنانه البيضاء وقد ازداد بياضها . همست، وكأني أهمس في بحر:

«بعدين شو صار؟»

«طلّيت من طاقة الحمام، مشفتش شي، رجعت انطلّعت من باب الحمام، كانت أمي متمددة بوجه نهاد، شفت إصبع أمي بتحركوا لنهاد، شوي والصوت رجيع، رجعت أنا في زاوية الحمام، ومسكت الباب خو في ليزفرق، سمعت صوت رشّة رصاص، وصمت، كل شي سكت ..

حببت لعند أمي تحركت، رحت لنهاد فتمت عينيها وتحركت، نقلت لسعاد حركتها فتحت عينيها بس ما تحركت، انشلت سعاد، حملت شاديا فلتت طاسة رأسها فحطيتها على الأرض جنب أبوي، وطلعنا أنا وأمي ونهاد وإسماعيل، بعدين مشينا في الزوايب ..

مرقنا على دار أم احمد عردة، وهناك بعرفش كيف ضيعنا أمي ونهاد، فرحت (ذهبت) مع إسماعيل واتخبينا في مستودع طحين، وكان هناك أولاد من الحارة، طلعت على السطح لاشرف كيف بندي أقطع، وكانوا الصغار يبكوا فانتبهوا علي، وسمعت صوت بقول سلم تعلم ..

وما كان في إمكانية نضل مع صياح الأولاد، طلّعنا، شفت اثنين من المجموعة اللي كانت عنا في

دياب : امسك الخشب يا أبو مراد

البيت، خبّيت حالي بين الأولاد، كان معهم مجموعة من الرجال، المشكلة كانت إسماعيل مش قادر يمشي واجريه معقبة، مش طايعة عالشي، وإلا كان في إمكانية نمزط (ننسل) من الزروبة على اليمين، لأنهم هم شوي بعاد عنّا ..

إسماعيل ربيع (جلس على الأرض لا يستطيع حراكاً) بالأرض، وأناديه وأشجعه مش قادر، إسماعيل محكاش ولا كلمة طول من ما كنا في الحمام . قربنا عليهم وقالوا الرجال لحال والأولاد والنسوان لحال، فانا ظليت مع النسوان لأنه شكلي كان ولد مع إنو عمري خمسة عشر سنة، كنت أبين أصغر منهم .. ومشوونا الرجال على اليمين، وإحنا على الشمال، كان مع الرجال أبو محمود وابنه ربيع، وابن ثاني واخوه كانوا كثار، ومشينا في انهم، كان القتلي أكوام، أكوام، وشفّت اللي قوس في البيت، نادى واحد اسمه عبد الله قال له : طلعوهم على المدينة الرياضية ..

كان اسماعيل قدامي وأنا حاطط ايدي على أكتافه، كنت حاسس لو بقيم ايدي عن أكتافه بسحل على الأرض، شفت من بعيد مفيد غنطس، كان متخبي بعرق جدار، اليوم مفيد موجود في أميركا، اجت عيني في عينه . وصلنا على المدينة الرياضية ..

كان واحد راكب حصان، ويخايل حوالين واحد مصري كان هذا يقول : والنعمة بابيه أنا ما ليش دعوة، وقتلوه ..

قعدنا في المدينة الرياضية، وإذا هم جايين ساندويشات مرتديلا، معرفش ليش كانوا بدهم يطعمونا مرتديلا أنا شفت اللحمة قرفت، ومن يومها ما بكلش لحمة .

جابر الملاك

جلست هدى مع صديقاتها يثرثرن ويشربن الشاي، كن يتحدثن عن الكيلوات الزائدة على الأرذاف والافخاذ، وما تمارسه كل واحدة منهن للتخلص منها . وقفت هدى واستعرضت قامتها امامهن، وقالت إن عليها بذل المزيد من الجهد لكي تتخلص من كيلو غرام آخر، فشهنن وأكدن لها أنها أصبحت تشبه الهيكل العظمي، ثم تضاحكن بوجوه مليعة بالفرح . وضعت هدى ملاك من المجلس بين فناجين الشاي، ونظرت إليه بإعجاب ثم شكرتهن على الاختيار الموفق، فضحكت شذا وقالت :

« المزبوط، ولا آهون من هدية لهدى، على طول ملاك .. ملاك وكمان ملاك » .

فسالت هدى اذا كانت من هواة تجميع الملائكة، فقالت :

« صار عندي فوق المتين الملاك، كل الناس يجبولي ملايكة، حتى بدون مناسبة، كل الناس يتعرف انه بجمع ملايكة. حتى بس يشوفوا ملاك بفكروا بهدى. »
قلت لهدى :

« يعني انتي زارعة فكرة بذهن الناس، وينفذوها، واعية هذا الشيء؟ »
قاطعتني شقيقة هدى، رحمة، التي كانت تلعب تحت شجرة صغيرة في الساحة، أو المصطبة :
« هدى أختي زي جابر اللي يشتغل بتلفزيون أبو ظبي، كل الناس بحبوه لأنه يحبنا، بحب أهل الخيمات، وجمعنا مصاري، مش لهون بس لهنالك برفح، عشان يعمرو البيوت اللي دمرها شارون، ويقولوا لما يخلصوا عمار هناك، جابر بدو يعمرو لنا بيوت هون إلنا بالخيم مش لكل الناس، بس للناس اللي ساكنين ببيوت زينكو. »

سكتت رحمة ونظرت نحوي وقالت :

« وحياة الله صحيح. »

هدى تعود للقول :

« الملاك رسالة، لما الناس بتفكر في هدى بتفكر بالملاك، أنا بآمن انه كل واحد جابلي ملاك ببطل في قلبه حسد، في مرة ناس بعرفهمش جابوا لي ملاك وأعطوه لواحدة صاحبتني توصلي إياها، وقالوا لها هذا لصاحبتك اللي بتجمع ملايكة. »

رحمة تتدخل في الحديث وتقول لوالدتها الشاخصة إلى شيء غير مرئي :

« مش يمة قال جابر بدي يعمرو بيت لكل اللي تدمرت بيوتهم؟ ها يمة؟ »

تقول أم رحمة دون أن تستعيد نظرها :

« شفتو شجرة الليمون على صفرها مطلعة حبة ! »

نظرت إلى شجرة الليمون الصغيرة، كان أحد فروعها القصيرة ينوء بحمل ليمونة كبيرة صفراء.

اقتربت رحمة من الليمونة وتحسستها بيدها الصغيرة وقالت لوالدتها :

« مش آه يمة جابر ملاك. »

انتبهت أم رحمة إلى الصوت، ورفعت بصرها إلى وجه رحمة، وقالت بصوت حالم :

« آه يمة.. جابر ملاك. »

-بيروت-جنيف

أفكار حول الأسلوب الأخير إدوارد سعيد

في الفن وفي تصورنا العام للموت، هناك أمر مفروغ منه بأن ثمة زمنية باقية لا تتحول. إننا نفترض أن الصحة الضرورية للإنسان تؤثر تأثيراً كبيراً على العمر الذي سيميشه - على التلازم الخاص بين الصحة والعيش - ومن ثم فإن العلاقة بين الاثنين تُعرّف بالتناسب القائم بينهما أو بالزمنية الخاصة بهما. إن الكوميديا، على سبيل المثال، تلمس مادتها في سلوك لا يحدده زمن: شيخ عجوز يقع في الحب مع امرأة شابة (أيار في كانون)، كما هي الحال في أعمال موليير وتشوسر؛ فيلسوف يتصرف كطفل؛ شخص يتمتع بالعافية لكنه يتظاهر بالمرض. لكن الكوميديا كشكل هي التي تتسبب في الحفاظ على البعد الزمني من خلال مهرجان الفرح والابتهاج الذي ينتهي به مثل هذا العمل - أي زواج العاشقين الشابين. لكن ماذا عن المراحل الأخيرة أو المتأخرة من الحياة، ماذا عن تحليل الجسد وتدهور الصحة (وهي في حال الشباب تتسبب في إمكانية موت المرء في غير وقته)؟ إن هذه القضايا، التي تهمني إلى حد بعيد لأسباب شخصية جداً كما هو واضح، قد قادتني إلى النظر في كيفية تعامل كبار الفنانين والكتاب مع هذه المسألة واكتساب عملهم لغة ومعاني جديدة في المراحل الأخيرة من حياتهم - وهو ما أدعوه بالأسلوب الأخير.

إن الفكرة العامة الشائعة هي أن العمر يضيء على الروح نوعاً من القبول والمصالحة والهدوء في الأعمال الأخيرة، ويعبر عن ذلك في العادة بلغة إعجازية تمجد الواقع. في مسرحياته الأخيرة، «العاصفة» و«حكاية الشتاء»، يعود شكسبير إلى أشكال الرومانس والحكاية الرمزية؛ أما في «أوديب في كولون» لسوفوكليس، فإن البطل المسن يصور بوصفه اكتسب في النهاية نوعاً من القداسة المميزة والإحساس بالوصول إلى حل المعضلة. من ناحية أخرى هناك حالة فيردي الذي أنجز في سنواته الأخيرة «عطيل» و«فالسثاف»، وهي أعمال تتفجر بحيوية الشباب وقوته وعرامته المتجددتين.

بإمكان كل واحد منا أن يضرب مثلاً من الأعمال الأخيرة التي تتوج عمراً من المسعى الجمالي. رمبرانت وماتيس، باخ وفاجنر. لكن ماذا عن المراحل الفنية المتأخرة التي لا يغلب عليها الانسجام والتناسب والوصول إلى النهاية، بل العناد والضدية والتناقض؟ ماذا لو أن التقدم في العمر والصحة المعتلة لم يؤديا البتة إلى الشعور بالصفاء والهدوء؟ هذه هي حالة إيسن الذي تميزت أعماله الأخيرة، خصوصاً في «متى نستيقظ نحن الأموات»، منجزه السابق وفتح الأفق على أسئلة يفترض أن الكاتب كان قد توصل إلى حلول لها قبل أن يكتب أعماله الأخيرة. إن مسرحيات إيسن الأخيرة، بدلاً من أن تتوصل إلى حلول للقضايا التي تطرحها، تعلن عن فنان غاضب مضطرب الحال يستخدم الدراما مناسبة لإثارة المزيد من القلق والاضطراب؛ فنان يعبت عامداً بإمكانية التوصل إلى نهاية للعمل تاركاً الجمهور مبلبل المشاعر غير مستقر على رأي أكثر من ذي قبل. هذا النمط الأخير من النهايات هو ما أجده أكثر إثارة للاهتمام: إنه نوع من الإنتاجية المتقصدة غير المنتجة، نوع من السير في الاتجاه المعاكس.

يستخدم أدورنو عبارة «الأسلوب الأخير» بصورة لا تخطئها العين في مقطع من مقالة له بعنوان «موسيقى بيتهوفن المتأخرة»، تعود إلى عام ١٩٣٧ وهي منشورة في مجموعة نشرت عام ١٩٦٤ بعنوان «لحظات موسيقية»، وكذلك في كتاب نشر له بعد وفاته عن بيتهوفن (١٩٩٣). بالنسبة لأدورنو فإن أعمال بيتهوفن الأخيرة – تلك التي تنتسب لما يسمى المرحلة الثالثة (أي سوناتات البيانو الخمس الأخيرة، السمفونية التاسعة، Missa Solemnis، الرباعيات الوترية الست الأخيرة، سبع عشرة مقطوعة خفيفة bagatelle على البيانو) – تمثل حدثاً شديداً الأهمية في تاريخ الثقافة الحديثة: تلك اللحظة التي يهمل فيها فنان متمكن من فنه التواصل مع النظام الاجتماعي الراسخ الذي هو جزء منه، ويقيم

علاقة متناقضة، غريبة ومنعزلة، مع ذلك النظام. إن أعمال بيتهوفن الأخيرة هي شكل من أشكال المنفى عن الوسط الاجتماعي والفني.

كانت شخصية المؤلف الموسيقي العجوز الأصم المنعزل، كرمز ثقافي، شديدة الإقناع بالنسبة لادورنو؛ وظهرت تلك الشخصية في عمل توماس مان «الدكتور فاوستوس» - وقد ساعد أدورنو مان كثيرا في الرواية - على هيئة محاضرة عن مراحل عمل بيتهوفن الأخيرة يلقيها أستاذ أدريان ليفركون في التأليف الموسيقي وينديل كريشممار:

«لقد تجاوز فن بيتهوفن نفسه، وارتفع مبتعدا عن المناطق التي يسكنها التقليد، حتى في النظرة المروعة للعينين البشريتين، وانتقل إلى مناطق تنتسب إلى الشخصي التام الخالص - إنه ذات منعزلة، بصورة مؤلمة، ملتصقة بالطلق، معزولة أيضا عن الحس بسبب فقدان حاسة السمع؛ إنه أمير متوحد في ملكة الأرواح لا يصدر عنه سوى أنفاس باردة تقشعر لها الأبدان، وتبعث الرعب في معظم مريديه من المعاصرين الذين يقفون مسمرين مشدوهين أمام أشكال التواصل الموسيقية تلك التي لا يفقهون شيئا منها على الإطلاق إلا في حالات استثنائية قليلة».

ثمة بطولة هنا، لكن ثمة عناد أيضا. لا شيء في جوهر أعمال بيتهوفن المتأخرة يمكن اختزاله إلى مفهوم الفن بوصفه وثيقة: أي إلى نوع من قراءة الموسيقى تشدد على «الواقع الذي ينبثق» من شكل خاص بتاريخ المؤلف الموسيقي أو إحساسه بموته الوشيك. يقول أدورنو: إن المرة إذا فكر بذلك كتعبير عن شخصية بيتهوفن فإن «الأعمال الأخيرة يمكن إحالتها على النهايات البعيدة للفن، على عالم الوثيقة. وفي الحقيقة إن الدراسات التي تناولت أعمال بيتهوفن الأخيرة نادرا ما فشلت في الإشارة إلى سيرة بيتهوفن وقدره. كأنه كان على نظرية الفن، وهي تواجه جلال الموت الإنساني، أن تجرد نفسها من حقوقها وتتنازل للواقع». إن الأسلوب الأخير هو ذلك الذي يتحقق عندما لا يتنازل الفن عن حقوقه مفضلا الواقع.

إن الموت الوشيك هو عنصر مؤثر بالطبع، ولا يمكن إنكاره. لكن أدورنو، الذي يبغى الدفاع عن حقوق الظاهرة الجمالية، مسكون بالقانون الشكلي لصيغ بيتهوفن التأليفية النهائية، وهي مزيج فريد من الذاتية، والميراث متحقق في وسائل مثل «سلسلة الترددات الموسيقية الزخرفية، والإيقاعات الزخرفية المزدهرة». ويلاحظ أدورنو أن ذلك القانون:

« يتجلى بالضبط في فكرة الموت... الموت المكتوب على الكائنات المخلوقة، لا على الأعمال الفنية، ولذلك فقد ظهر في الفن على هيئة انكسار فقط، كمجاز وحكاية رمزية... إن قوة الذاتية في الأعمال المتأخرة هي إيماء غاضبة تنسحب فيها الذات من الأعمال نفسها، إنها تمزق الروابط، لا للتعبير عن نفسها بل على العكس من ذلك، أي لتحرر نفسها من الظهور في الفن. في تلك الأعمال تترك الذات خلفها مجرد شذرات وتتواصل بوصفها صفرا من خلال البياضات التي حررت نفسها منها. حيث يحضر الموت فإن يد المبدع الخلاق تطلق كتل المادة التي كان يحولها إلى شكل؛ إن التمزقات والشقوق، والشواهد على الضعف المحدود للذات التي تواجه الوجود، هي عمل الذات الأخير. »

إن شخصية عمل بيتهوفن الأخير العرضية، وإهمالها الواضح لتواصلها الداخلي، هي ما يجده أدورنو مستحوذا على المشاعر. عندما نقارن أعمالا تنتسب إلى المراحل المتوسطة في عمل بيتهوفن، مثل إيريويكا Eroica، مع سوناتا Opus ١١٠، فسوف ندش للمنطق القوي المتكامل المفحم، وللشخصية المندفعة للعمل الأول بالقياس إلى العمل التالي الذي يبدو ذا هلا مهملًا وذات طبيعة تكرارية. يتكلم أدورنو عن العمل المتأخر بوصفه « عملية لا بوصفه تطورا »، بوصفه « يشعل النار بين النهايات، ولم يعد يسمح بأرض متوسطة آمنة أو صيغة هارمونية أو تلقائية ». وهذا هو السبب الذي يجعل كريتشمار يقول، في « الدكتور فاوستوس »، إن أعمال بيتهوفن الأخيرة تعطي الانطباع بأنها غير مكتملة.

تقول أطروحة أدورنو: إن باستطاعتنا أن نعزو ذلك إلى اعتبارين: الأول: هو أن عمل بيتهوفن في شبابه كان يتسم بالنشاط والحماسة والشخصية الكلية عضويا، لكنه أصبح متمردا عنيدا وغريب الأطوار بمرور الأيام. أما الاعتبار الثاني، فيتمثل في أن بيتهوفن، وقد أصبح رجلا عجوزا ينتظر الموت، أدرك أن عمله يصحح بأن « لا تركيب يمكن تخيله »: إنه من ثم نتيجة لـ بقايا تركيب، أثر ذات إنسانية مفردة تعي على نحو موجه كلية الوجود، ومن ثم العيش، الذي تملص منها إلى الأبد. ومن هنا فإن أعمال بيتهوفن الأخيرة تبعث فينا إحساسا تراجيديا رغم غضبها.

إن صواب اكتشاف أدورنو للأمر السابق واضح في نهاية المقالة. فإذا لاحظ أدورنو أن لدى بيتهوفن، كما لدى غوته، ثمة « وفرة في المادة »، فإنه يواصل القول -وعينه على أعمال بيتهوفن- إننا

في أعمال غوته الأخيرة نجد أن «التقاليد الأدبية تتمزق وسط اندفاع العمل، متروكة هناك لتتقف معزولة أو لتسقط بإهمال. أما بخصوص أعمال بيتهوفن العظيمة المتساقطة النغمات فهي تصطف إلى جانب الأعمال البوليفونية الهائلة. ويضيف أدورنو:

«الذات هي ما يؤلف بقوة بين الأشكال المتباعدة في اللحظة نفسها، ما يملا التعددية الصوتية الكثيفة بتوتراتها، ثم يمزقها من الداخل بعزف نغمات متساقطة منسجمة، محررا نفسه في النهاية تاركا النغم العاري خلفه؛ ما يحول العبارة المجردة إلى أثر باق لا يزول، محولا الذات إلى نصب تذكاري من الصخر. إن الوقفات، والانقطاعات التي تميز، أكثر من غيرها، أعمال بيتهوفن الأخيرة، هي لحظات الانفصال؛ فالعمل يبقى صامتا في اللحظة التي يُترك فيها دافعا الفراغ الذي يحتشد به إلى الخارج».

إن أدورنو يصف الطريقة التي يبدو فيها بيتهوفن وهو يحتل أعماله الأخيرة كذات متفجعة، تاركا العمل، أو مقاطع منه، غير مكتمل، متخليا عنه بصورة مفاجئة، كما في افتتاحية رباعية *F* *major* أو *A. minor*. كل ذلك يبدو في تضاد تام مع الطبيعة القاسية التي لا تلين لأعمال المرحلة الثانية التي تضم السيمفونية الخامسة حيث لا يستطيع المؤلف الموسيقي أن ينفصل عن عمله على الإطلاق. ويستنتج أدورنو أن أسلوب الأعمال الأخيرة ذو طبيعة موضوعية، بسبب «طبيعته المكسرة»، وذاتي بسبب «الضوء وحده الذي يتقد متحولا إلى حياة». إن بيتهوفن لا يبتدع «تركيبا هارمونيا»، بل «يمزق ذلك التركيب في لحظات الزمن، لربما ليحفظه في الأبدية. إن الأعمال الأخيرة في تاريخ الفن هي كارثة».

تتمثل المشكلة بوضوح في محاولة الحديث عما يوحد الأعمال الأخيرة وبمنحها وحدتها الداخلية، ويجعل منها أكثر من مجموعة شذرات. هنا يبدو أدورنو في أكثر لحظات عمله تناقضا وضدية: إن المرء لا يستطيع القول إن ما يربط الأجزاء هو شيء غير «الشكل الذي تخلقه تلك الأجزاء معا». وهو لا يستطيع في الوقت نفسه أن يقلل من شأن الاختلافات بين الأجزاء؛ ومن الواضح كذلك أنه لا يستطيع أن يعين الوحدة، أو يسميها بصورة تسمح له باختزال قوتها الكارثية. إن قوة أسلوب بيتهوفن الأخير ذات طبيعة سالبة إذن. إنها في الحقيقة الطبيعة السالبة نفسها: ففي موضع الهدوء والنضج يصطدم المرء بتحد صعب، لربما غير إنساني، خشن وغير مشمر. يقول أدورنو إن «نضج

الاعمال الاخيرة لا يشبه ذلك النوع من النضج الذي نألفه في الفاكهة. إنه ليس دائريا ... بل متفصن، وحتى تالف منهوب. إنه خال من الحلاوة، مَرَّ وشائك. إنه لا يسلم نفسه للبهجة الغامرة المجردة». إن أعمال بيتهوفن الاخيرة تظل غير قابلة للتحويل إلى تركيب أعلى درجة: إنها لا تصلح لتكون جزءا من أي مشروع، فهي عصبية على التركيب والانحلال بسبب طبيعتها الشذرية الأساسية وكونها غير زخرفية أو رمزية تشير إلى شيء آخر غير نفسها. إن الأعمال الاخيرة تدور حول «الكلية المتفتدة»، وهي بهذا المعنى كارثية الطابع.

لكن بأي معنى هي متأخرة؟ بالنسبة لادورنو، فإن كون الأعمال اخيرة يرتبط بكونها قادرة على تخطي ما هو مقبول وطبيعي؛ إنه لا يتخيل وجود شيء بعد تلك الطبيعة الاخيرة، فمن المستحيل تصعيد تلك الطبيعة أو الإحاطة بها. إن بالإمكان فقط تعميقها. يكتب ادورنو في كتابه «فلسفة الموسيقى» أن شوينبيرغ يطيل حالات عدم التطابق والسلب والتوقف وعدم الحركة التي وجدناها في أعمال بيتهوفن الاخيرة.

إن ما يجعل أسلوب بيتهوفن الأخير ساحرا بالنسبة لادورنو هو أنه يقع في قلب الموسيقى الحديثة الخاصة بعصرنا. في فيد يليو - العمل الجوهري الممثل للمرحلة المتوسطة - تبدو فكرة الإنسانية واضحة جلية، مصحوبة بفكرة العالم الأفضل. إن أسلوب بيتهوفن الأخير يقيي الجدل الهيجلي على مبعده، ومن ثم فإنه يقوم بتحويل الموسيقى من «شيء شديد الأهمية إلى شيء غامض وملغز - حتى بالنسبة لنفسه». إنه يقف ضد النظام البرجوازي الجديد، وحسب فهم ادورنو فإنه يتبنأ بفن شوينبيرغ الأصيل والجديد، الذي «لا تطلب موسيقاه المتقدمة العون من أحد وتصر على نسيجها الذاتي دون أن تقدم أي تنازل لما سيكون عليه مذهب الإصلاح الاجتماعي الذي رأت تباشيره عن بعد». وقد شعر، للسبب السابق، أن الموسيقى «مقيدة بالسلب النهائي والحاسم». من هنا يبدو أسلوب بيتهوفن الأخير، المنعزل والوحشي والغامض، نموذجاً بدئياً للشكل الجمالي الحديث.

إن الأسلوب المتأخر، وكل ما يتعلق بالتأملات الجسورة والمنعزلة الباردة لوضع فنان مسن، يبدو لادورنو مظهراً أساسياً من مظاهر علم الجمال، وجزءاً لا يتجزأ من عمله كفيلسوف ومنظر في النقد. (إن قراءتي الشخصية لادورنو، بثاملاته عن الموسيقى التي تقع في القلب من عمله، ترى أنه يحقن الماركسية بمصل قوي للغاية يستطيع تذويب قوته المهتاجة تماماً. وليست الأفكار الخاصة بالتقدم

والوصول إلى الذروة في الماركسية هي ما يتقوض فقط نتيجة نظرائه المزدرية العنيفة القاسية، بل أي شيء، يقترح الحركة كذلك.) يستخدم أدورنو، في شيخوخته وهو يرى الموت يتقدم نحوه وسنوات البداية الواعدة أصبحت خلفه، نموذج بيتهوفن الأخير ليحل مشكلته مع النهاية. لكن النهاية هي شيء، متحقق بذاته، وليست تحذيرا أو هاجسا داخليا أو محوا وإلغاء لشيء آخر. إن اقتراب المرء من المرحلة الأخيرة يعني الوصول إلى النهاية وهو واع تماما، محتشد بالذكريات، ومدرّك تمام الإدراك للحاضر (حتى ولو تم ذلك بصورة خارقة للطبيعة). مثله مثل بيتهوفن يصبح أدورنو مشغولا لحالة الوصول إلى النهاية، معلقا مبكرا وفصائحا، وحتى كارثيا، على الحاضر.

هناك تشديد في الاسلوب الأخير لا على مجرد التقدم في العمر، بل على زيادة الإحساس بالانفصال والعزلة والمنفى والمفارقة. إن المفارقة هي بالضبط ما يسم عمل معاصر أدورنو الإيطالي لامبيدوزا، رغم أن عمل لامبيدوزا المفرد العظيم « الفهد » سهل التال بالنسبة للجمهور البعيد عن أدورنو. ومع ذلك، فإن لامبيدوزا هو من بين ممارسي الاسلوب الأخير الذين يشكلون، كما أظن، اهتماما خاصا بالنسبة للقارئ الحديث.

لم يبدأ الاسترطاطي الصقلي جيو سيببي توماسي (١٨٩٦ - ١٩٥٧) عمله على « الفهد » إلا في فترة متأخرة من حياته. لقد كان خائفا ربما من ردود الفعل السيئة في بلاده، وغير راغب كذلك في الدخول في منافسة مع الكتاب الآخرين. ويظن كاتب سيرته الذاتية بالإنجليزية ديفيد غيلمور أنه بدأ العمل على الكتابة بسبب إحساسه أنه، « بوصفه سليلا أخيرا لطبقة النبلاء القدماء التي تآوج انقراضها الاقتصادي والفيزيائي في شخصه »، سيكون الفرد الأخير في العائلة الذي لديه « ذكريات أساسية »، أو أنه سيكون الشخص الوحيد الذي بمقدوره نفخ الحياة في « العالم الصقلي المتفرد » قبل أن يختفي. لقد كان مهتما، ومحبطا في الوقت نفسه، بعملية الانحطاط والتدهور، وكان من علامات ذلك فقدان العائلة لأملاكها - بيت سانتا مارغريتا (دونافوغاتا في الرواية) وقصر في باليرمو. لقد رفض العديد من الناشرين رواية لامبيدوزا الوحيدة « الفهد » قبل أن تنشرها منشورات فيلترينيللي في شهر تشرين أول ١٩٥٨، أي بعد عام واحد من وفاة لامبيدوزا، وتجعل منها من بين الأعمال الأكثر مبيعا على مدار سنوات وسنوات. ظاهريا لا تبدو رواية « الفهد » عملا تجريبيًا. إن تجديداتها الأساسي على الصعيد التقني يتمثل في كون سردها يتألف من انقطاعات، من سلسلة من

الشذرات أو الأحداث المنفصلة نسبيا، غير المترابطة، لكن المشغولة بحرفية عالية حيث يتمحور كل منها حول تاريخ، وفي بعض الأحيان حول حدث كما في الفصل السادس المعنون « حفل راقص: تشرين ثاني ١٨٦٢ »، وهو بالتأكيد المشهد الأطول والأكثر شهرة وتعقيدا في فيلم فيسكونتي المأخوذ عن الرواية والمنفذ عام ١٩٦٣. تعطي هذه التقنية لامبيدوزا قدرا من التحرر من متطلبات الحبكة، التي تتسم بقدر من البدائية، ممكنة إياه من العمل على الذكريات والأحداث المستقبلية التي تشع من الوقائع البسيطة في السرد (هيوط الحلفاء في صقلية عام ١٩٤٤ على سبيل المثال).

« الفهد » تحكي قصة أمير ساليينا العجوز الصقلي دون فابريزو، عم المؤلف الأكبر، وهو رجل عظيم يفقد أراضيه الكثيرة ويشعر بالموت يتقدم نحوه. إنه عالم فلك عملاق يتفق وقته على العناية بزوجته وبناته الثلاث غير الراضيات وولدين متوسطي العمر. إن ابن أخيه المندفع المغعم بالحياة تانكريدي هو متعته الوحيدة. وقد وقع تانكريدي في حب أنجيليكا ابنة التاجر بارفينو الجميلة. تقع أحداث القصة أثناء حملة غاريبالدي لتوحيد إيطاليا، وهي فترة تمثل السقوط الأخير للنظام الأرستقراطي القديم الذي يعد الأمير ممثله الأخير والأكثر نبالة. وعندما يزور الدون كالوجيرو الأمير، ليعرض عليه الأمير طلب الزواج من ابنته أنجيليكا، فإن الحوار بين الرجلين ينتفخ بملاحظات فابريزو، وملاحظات حول ملابسه وحمامه، وتأملاته حول المستقبل. في الوقت نفسه يعطى كالوجيرو الفرصة ليتحدث مبالغا حول ماضيه بحيث يبدو المغامر المحلي غير الجذاب، لعيني القارئ، وهو يختلق تقليدا عائليا خاصا به (فهو يخبر الأمير أن ابنته أنجيليكا هي في الحقيقة بارونة سيدارا ديل بيسكوتو) لكي يخطب ود ابن أخيه الأمير المغعم بالحياة. ثم يعالج لامبيدوزا مستقبل تانكريدي المزدهر، وتدهور حال إرث ساليينا، وبنوع من التفكير المتأخر يسمح بتذكير الأمير بمستخدمه المسكين دون تشيكيو الذي كان حبسه في غرفة السلاح لينعم شوارع سر خطبة تانكريدي قبل إتمامها. ثمة بعض التفاصيل هنا وهناك، فبعد أن يصف المؤلف محن تانكريدي وحظوظه وحظوظ عائلته يتباهى قائلا كأمير: « إن نهاية كل هذه الكوارث... هي تانكريدي. هناك أمور خاصة يعرفها أناس مثلنا؛ ولربما يكون من المستحيل أن يحقق ولد مثله هذا التميز، والرفافة والسحر، دون أن يتحدر ذلك من أجداده الذين تقلبت بهم الحياة من حال إلى حال ». مثل هذه المقاطع تضفي على الأحداث غناها الاستعاري والأدبي، وهذا بالطبع ما تحاول الرواية إيصاله إلى القارئ: إنه عالم عظيم - وحتى مترف - لكن هناك

ذلك الامتياز الموصول به، أو لنقل بدقة أكثر: الذي أوجده، مما يتعذر بلوغه من الكتابة والسوداوية المرتبطة بالهرم والفقدان والموت.

إن الإحساس العام بالموت الذي يغلف رواية «الفهد» يذكر بالمقاطع الأخيرة من «البحث عن الزمن الضائع»، خصوصا ذلك المقطع الذي يتحدث عن عودة مارسيل إلى باريس التي تبدو محطة هامة بعد الحرب العالمية الأولى. لكن لامبيدوزا، على عكس بروس، لا يقترح نظرية للفن المختلص في نهاية عمله. في اللحظات الأخيرة من مرض الأمير وموته يرقد الرجل في فندق رث بال بهاليمو، منهكا من رحلة عودته من نابولي حيث ذهب ليراجع طبيبا متخصصا. كانت كونتشيتا وفرانتشيسكو باولا، أي ابنته الكبرى وابنه الشاب، في رفقته، وكذلك محبوه الأثير إلى نفسه نانكريد. كان الوقت شهر تموز من عام ١٨٨٣: الأمير في الثالثة والسبعين من عمره. لا شيء مما يحدث يحمل في ثناياه أدنى إشارة إلى الخلاص، أو إلى أية مهمة فنية من ذلك النوع الذي رفع مارسيل من صاحب الأرض الكسول إلى مستوى الكاتب الملتزم. إن دون فابريزو ممتلئ بوعي أنه الأخير من أبناء ساليانا: «كان وحيدا، رجلا محطما يمتطي طوفا جانحا تتقاذفه أمواج جامحة». وكل ما خلفه هو سيل من الذكريات، لكن ذلك أيضا يتقوض بسبب إحساسه أنه الشخص الأخير الذي يعرف عن تلك الذكريات. إن الكفاءة الوحيدة التي تملكها هذه الصورة الكئيبة القائمة تتمثل في اهتمام الأمير العلمي بالطبيعة، بالنجوم بهصورة خاصة والتي تسحبه بعيدا، وبصورة مؤقتة، عن سكرات موته وتسلمه لإيقاعات أمواج المحيط الشاملة التي تبدو رسولته، في نوع من لمسة العبقرية الأخيرة، هي الجميلة، لكن غير المسماة الآن، أنجليكا التي أصبحت نموذجا للحسية الأنثوية المعممة. إن حضورها المفاجئ غير المتوقع إلى جانب سريره مصمم ليطلق عاطفته المحبوسة تجاهها، ويسلمه بدوره إلى نهايته الطبيعية.

إن التحلل الاجتماعي، وفشل الثورة، والجنوب العقيم غير القادر على التحول، شديدة الوضوح في كل صفحة من صفحات الرواية. لكن ما لا نعتز عليه في الرواية، وهو شيء متقصد بالطبع، هو حل سؤال الجنوب كما اقترحه غرامشي. تقترح مقالة غرامشي التي كتبها عام ١٩٢٦ أن وضع الجنوب البائس يمكن التخفيف منه فيما لو تم ربط بروليتاريا الشمال بفلاحى الجنوب بحيث يصبح لهاتين المجموعتين جغرافيا، المضطهدين اجتماعيا، مشروع عام مشترك. ومن هنا، وعلى العكس مما

هو سائد سيكون هناك بعض الامل، والتجديد، والتغيير الخلاق؛ وسوف لا يكون الجنوب تشخيصا لحالة التحلل والانهييار التي تقدمها، على نحو شديد القوة، رواية لامبيدوزا.

ومع ذلك، فإن لامبيدوزا ينفي بإصرار تشخيص غرامشي ووصفته العلاجية إذ من الصعب الافتراض - علاوة على الإشارات العديدة إلى الموت والتحلل والتداعي والعجز في كل صفحة تقريبا - ان الرواية صممت بوصفها عقبة عظيمة في وجه التخفيف من حالة الفوضى والتشوش في الجنوب الإيطالي. تكمن المفارقة في أن هذا النفي المتضمن في الأسلوب الأخير معروض في شكل مقروء تماما: ليس لامبيدوزا ادورنو أو بيتهوفن اللذان يعمل أسلوبهما الأخير على تقويض شعورنا بالمتعة، متمصلين بضراوة من أية محاولة للتوصل إلى فهم بسيط من أي نوع. على الصعيد السياسي، فإن لامبيدوزا على الضد تماما من غرامشي: إن الأمير يتبنى نظرية تشاؤم العقل والإرادة. إن الكلمات الأولى التي تفتتح بها الرواية هي ذاتها التي تختتم بها صحيفة روزاري، والتي يترجم بها الأب بيروني: « في هذا الوقت وهذه الساعة نحن بلاد ميتة »، وهو الأمر الذي نعتز عليه بوصفه نبذة الكتاب كله. الحدث الأول الذي يصفه لامبيدوزا هو اكتشاف جثة جندي في الحديقة. إنها ساعة الموت، من وجهة نظر الأمير، فلا شيء البتة يستطيع أن يؤثر في مسار الشلل والانحدار والتحلل الذي يخلفه وعائلته وطبقته. باختصار، فإن « الفهد » هو الجواب الجنوبي على السؤال الجنوبي دون تركيب أو تصعيد للحالة أو أي أمل. يخبر دون فابريزو تشيفاللي، الرسول الآتي من تورين ليعرض على الأمير قبول مقعد في مجلس الشيوخ، أن:

« أبناء صقلية لا يرغبون في التحسن لسبب بسيط هو أنهم يعتقدون أنهم كاملون؛ إن زهورهم وغرورهم أقوى من رؤسهم؛ وكل اجتياح من قبل الغرباء، أو السكان الأصليين من أبناء صقلية، أو رغبة في الاستقلال، يتسبب في إفساد وهمهم بأنهم كاملون، ويعرض لمخطر انتظارهم القانع لشيء؛ إنهم، بعد أن دامتهم شعوب عديدة، يعتقدون أن لديهم ماضيا إمبراطوريا يمنحهم الحق في جنازة عظيمة ».

هل تعتقد يا تشيفاللي حقا أنك أول شخص حلم بدفع صقلية في مجرى التاريخ الكوني؟
يتحدث الأمير عن المحاولات المتعددة التي قام بها. « لكن من يدري الآن إلام انتهت تلك المحاولات! لقد رغبت صقلية في النوم رغم النداءات التي تلقته؛ فما الذي يجبرها على سماع تلك

النداءات ما دامت هي نفسها غنية، وحكيمة ومتحضرة وأمينة صادقة، إذا كانت تثير الإعجاب والחסد من الجميع، إذا كانت، وبكلمة واحدة، كاملة؟.

مهما كان الذي يُعرض جبالاً لآثار حسنة، واعداء بالتطور والتغيير الحقيقي، فإنه يرفض بوصفه تدخلا خارجيا. (إن الأمير يعلق ذاهلا على موضوع الكمال الإنساني بعامة كما عرض له برودون وماركس، مشيرا إلى الأخير بوصفه «اليهودي الألماني الذي نسيت اسمه»). إن شمس صقلية التي تصنع الناس دون رحمة، والتلال القاحلة والسهول الواسعة، والقلاع الجلييلة والحصون المهدامة هي جميعا حقائق ثابتة غير قابلة للتغير، وتلك الحقائق هي التي طبعت المجتمع الصقلي لا الجهود والمحاولات السياسية التي تخيلها غرامشي.

إن الأجيال تتطور بالضرورة، وإذ يموت النظام القديم، الذي يمثله الأمير، فإن التناقضات السياسية والاجتماعية تتعاظم، ويصبح من الصعب احتواؤها أو التعامل معها بوصفها تاريخا شخصيا. تتمثل مظاهر الأسلوب الأخير في رواية لامبيدوزا في كونها تقوم بتحويل الحدث الشخصي إلى حدث جماعي موشك على الوقوع: إنها لحظة تتجلى فيها البنية والحبكة بصورة فائقة ومثيرة، لكنهما ترفضان بإصرار السير معا إلى النهاية. ليس لدى الأمير ابن يصلح لكي يخلفه، إن خليفته الروحي الوحيد هو ابن أخيه اللامع، وهو شاب يتمتع بقدر من الانتهازية واستغلال الآخرين، وهما أمران يتقبلهما الأمير لكنهما ينفرانه في النهاية من ابن أخيه. يقول تانكريدي مخالفا عمه الرأي: «إذا كنا نرغب في أن تظل الأمور على حالها فإنها في الحقيقة ستخالف توقعاتنا وتغير». إن تانكريدي يشبه في آرائه ابن أخيه نابوليون في عمل ماركس «الثامن عشر من برومير»، وهو رجل يعتمد ارتقاؤه الاجتماعي على استغلاله لطبقة من الناس مثل حميه كالوجيرو: الذي يرغب بدوره في الارتباط بالطبقة الأرستقراطية مدخلا له إلى عالم السلطة. أما وريث الأمير الآخر، الموثوق أكثر إلى حد ما، فهو ابنته الصارمة كونتشيتا التي لم تستطع، حتى بعد مرور نصف قرن تقريبا، أن تسامح تانكريدي بسبب افتقاره للكنيسة وعدم احترامه للكنيسة. ومع أنها تعيش بعد وفاة والدها وتانكريدي فهي لا تمتلك الذكاء أو احترام الذات غير العادي، إلى حد التجريد، الذي كان يمتلكه الفهد المعجوز. إن لامبيدوزا يعالج شخصيتها في الرواية بقسوة. إن أحب شيء إليها هو كلب والدها الذي يحنط بعد موته، حيث تنتهي الرواية باكتشاف الابنة المفاجئ «للفراغ الداخلي» الذي يرمز له جلد الكلب:

« بينما كانت جثته تسحب كانت عين الكلب الزجاجية تحرق نحوها بعار الأشياء الوضيعة المتروكة على أمل التخلص منها في النهاية. وما ظل من بنيد يتشو بعد دقائق قليلة رمي في الزاوية التي يتردد عليها الكناس كل يوم. وبعد رميه من النافذة استعاد ما تبقى من الكلب شكله للحظة؛ في الهواء بدا شكل حيوان راقص يدب على أربع بلحية طويلة، ورجله الامامية اليمنى بدت مرفوعة كلمنة. ثم استقر ذلك كله مطمئنا فوق كومة صغيرة من الغبار الشاحب ».

إن هذا النوع من التحلل والانحطاط الحرفي المفاجيء، لكي لا نقول الكارثي، يشير في الحال سؤالاً حول من، أو ماذا، يحاول لامبيدوزا تمثيله هنا. عن أي تاريخ، وتاريخ من يتحدث في النهاية؟ إن معرفة بسيطة بحقائق حياة لامبيدوزا غير المشيرة، وكونه لم ينجب أطفالاً، تدفع المرء إلى افتراض أن الرواية تعبر، بصورة من الصور، عن موت إيفان إليتش الصقلي، وهو ما يخفي بدوره باعثاً قوياً متعلقاً بالسيرة الذاتية للمؤلف. إن الفرد الأخير في سبيلنا هو بالنتيجة لامبيدوزا الأخير الذي تحتل سرداويته الخاصة المتعقدة بعناية، والتي لا تتضمن أي قدر من رثاء الذات، مركز الرواية، مرتحلة في الوقت نفسه عبر تاريخ القرن العشرين الممتد، محدثة نوعاً من المفارقة التاريخية المتأخرة التي تتسم بالمصادقية اللافتة ومبدأ الزهد غير المشر الذي يستبعد العاطفية المفرطة والنوستالجيا. لكن الشيء الذي يصعب العثور عليه في العمل هو الارتباك بشأن الفردية غير النادمة. ويبدو أن لامبيدوزا، بعد أن وصل سن الشيخوخة، لم يرغب في التمتع بالنضج والهدوء المفترضين المصاحبين لها، أو بالأنس واللفظ والصفاء الخاص بالتقدم في العمر. ومع ذلك، فإننا لا نعيش على أي شيء ينكر الموت أو يتجنب الإشارة إليه؛ على النقيض من ذلك، فإن الكتاب يعود مراراً وتكراراً إلى ثيمة الموت التي يتم تصعيدها إلى حد المفارقة كما يرتفع المؤلف باللغة والشكل إلى حالة من السمو والجلال للتعبير عن النهاية الدنيوية.

في الوقت نفسه، فإن القارئ غالباً ما يشعر بأن ثمة شيئاً لم يقل أو أنه بقي صعب البلوغ. على سبيل المثال، فإن الرجلين عندما يتعرفان على بعضهما فإن كالوجيرو الفج، لكن الحاد الذهن، يرى في الأمير: « طاقة خاصة مع ميل إلى التجريد، مزاجاً يبحث عن شكل للحياة داخل نفسه لا فيما يمكن أن ينتزع من الآخرين ». إننا نتلقى هنا عدداً من الحدوس: غرور الأمير غير العادي، تحفظه، شدة حساسيته وافتقاره إلى الطمع، وفوق ذلك كله « طاقة التجريد » التي لا تنضب (ولربما لا تهزم)

معيد : أفكار حول الاسلوب الأخير

لديه، والتي ترك انطباعا قويا في نفس كالوجيرو. ومن الواضح أن غاية هذا المقطع من الرواية هو القول بأن تلك «الطاقة»، أو ذلك الانسحاب المزاوغ إلى الداخل، لا يمكن، بالتعريف، التحقق منهما عبر الحصول على المعلومة أو من خلال الاقتراب كثيرا من الأمير. إن المقطع يستمد أثره العميق الخاص بالأسلوب الأخير من الوصف المتواتر للموت والتداعي والانحطاط الذي يحيط به، رغم أنه لا يستطيع التأثير على كمال الأمير وسمو ذاته، حتى ولو كان الرجل يقترب من النهاية.

إن نظير لامبيدوزا الشعري هو الشاعر الإسكندري الإغريقي قسطنطين كافافي الذي لم ينشر أي شيء من شعره على هيئة كتاب إلا بعد وفاته عام ١٩٣٣. وقد رغب كافافي أن تحفظ ١٥٤ قصيدة من شعره، وهي جميعا قصيرة بمعايير شعر القرن العشرين، وكل واحدة منها محاولة للتوضيح وخلق مشهد درامي بأسلوب المونولوج الدرامي لدى براوننغ؛ إنها لحظة من الماضي، الشخصي أو ذاك الذي يخص العالم الهليني الواسع. ومن بين مصادره المتكررة بلوتارك؛ لكنه يعتمد كذلك على شكسبير، وكان مسحورا بجوليان المرتد. إن الإسكندرية تلازم شعره من البداية إلى النهاية؛ ومن بين أشعاره المبكرة قصيدة بعنوان «المدينة»، وهي حوار بين صديقين، الأول (ولربما يكون الحاكم السابق) يندب حظه بوصفه سجين اللامسمى، لكنه يتوجه، بكل بوضوح، قاصدا ميناء المدينة المصرية:

إلى متى سأترك عقلي يتشكل في هذا المكان؟

إنما أتوجه، وحيثما أنظر،

أرى خرائب سوداء من حياتي،

هنا حيث أنفقت سنوات عديدة،

ضيتها، ودمرتها تماما.

أما المتكلم الثاني في القصيدة فإنه يجيب بلهجة باردة قاطعة لا لبس فيها بتحدد تماما المدى

الضيق والتجرد الرواقي الذي يميز أسلوب كافافي:

لن تجد بلدا آخر، لن تجد

شاطئا آخر.

سوف تظل هذه المدينة تلاحقك.

ستمشي في الشوارع نفسها، وتذكرك الشيخوخة
في الأحياء نفسها، وسيدب الشيب
في رأسك في البيوت التي تسكنها نفسها.
سوف تنتهي دوماً إلى المدينة نفسها، فلا تأمل
بأشياء في أماكن أخرى:
لا سفينة في انتظارك، لا طريق.
الآن وقد خربت عمرك في
هذه الزاوية الصغيرة الضيقة،
تكون قد خربته في كل مكان آخر من هذا العالم.

ليس المكان وحده ما يأسر المتكلم، بل الفعل المتكرر الذي يدفعه قدره نحوه.
يتعامل كافافي مع قصيدتيه «المدينة» و«المرزبان» بوصفهما تمهيدان السبيل إلى شعره الناضج.
في قصيدة «المرزبان» ثمة متكلم يخاطب رجلاً آخر يفكر بمغادرة الإسكندرية للبحث عن وظيفة
جديدة في الأقاليم التي يحكمها الملك آرتاكسيركسيس. وعلى عكس النجاح الذي يامل في
تحقيقه فإن شبح الإسكندر يذكره على الدوام:
إلى أشياء أخرى تنوق روحك، وتتوجع
لأمور أخرى:

إلى مديح ديموس والسفسطائيين،
ذلك الهتاف الصعب المنال، الذي لا يقدر بشئ -
إلى الساحة الإغريقية والمسرح، وأكاليل الغار.
آرتاكسيركسيس لا يملك هذه الأشياء ليمنحها لك،
لن تجد أيًا من هذه الأشياء لدى المرزبان،
لكن بدون هذه الأشياء أية حياة ستعيش؟
رغم محدودية عالمها - الذي وصفه إي. إم. فورستر يوماً بأنه قائم على «القطن»، و«أكوام البصل»

سعيد : أفكار حول الأسلوب الأخير

والبيض، والمكان الرديء التخطيط والبناء، فيما تنفجر مجاريه في كل اتجاه - فإن الإسكندرية تحمل في داخلها الوعد الذي لم يستطع كافافي العيش بدونه، حتى ولو كان الوعد سينتهي إلى الخيانة وخيبة الآمال .

يحتفل شعر كافافي على الدوام بالمكان المدني حيث يوحد بين الأسطوري - بنبرته السوداوية الخفيفة المارقة المتحررة من سحر الأشياء - والنثر اليومي . لكن حين نحاول موضعة كافافي في مصر خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فسوف نقاها إلى حد كبير بمدى فشل عمله في ذكر أي شيء عن العالم العربي الحديث . إن الإسكندرية هي إما أن تكون ذلك المكان المجهول الاسم الذي تقع فيه أحداث حياة الشاعر (البارات، والغرف المستأجرة، والمقاهي، والشقق التي كان يلتقي فيها عشاقه)؛ أو أنه يصورها كما كانت في يوم من الأيام : تلك المدينة التي تنتمي إلى العالم الهليني الذي توالى عليه الإمبراطوريات المتعاقبة والمتداخلة : روما، واليونان، وإسكندرية ما قبل بيزنطة وما بعدها، ومصر البطلموسية وفي زمن الإمبراطورية العربية . ورغم كون الشخصيات في القصائد مختلفة في جانب من جوانبها، وحقائقية من جانب آخر، فإنها تثرى في ضوء اللحظات الهاربة، التي قد تكون أساسية في بعض الأحيان، من حياة تلك الشخصيات : إن القصيدة تكشف عن اللحظة اليومية وتكرسها قبل أن يقوم التاريخ بإقفال المشهد حيث تضيق تلك اللحظة بالنسبة لنا إلى الأبد . إن زمن القصيدة، الذي لا يدوم سوى برهة متحدة في الزمن، يقع على الدوام خارج الراهن، أو بموازاته، حيث يعالجه كافافي بوصفه مقطعا ذاتيا من الحاضر . كما أن اللغة، وهي إغريقية رفيعة كان كافافي واعيا بأنه الممثل الحديث الأخير لها، تضيف بعدا خاصا إلى الطبيعة المقتصدة الجمهورية الخالصة للشعر . إن قصائد كافافي توجد شكلا من عيش الحد الأدنى بين الماضي والحاضر، كما أن خياره الجمالي الخاص بعدم الإنتاج، المعبر عنه في شعر يتسم بغياب الاستعارات واللغة الثرية التي تخلو من الإقناعات تقريبا، يولد إحساسا بالمتنفي الدائم الذي يقع في قلب عمله .

في عمل كافافي، إذن، لا يجيء المستقبل أبدا، وإذا جاء فإنه يبدو وكأنه حدث ومن ثم لا داعي لحدوثه . إن العالم الداخلي الضيق الذي يتكون من التوقعات الصغيرة المحدودة أفضل من المشروعات الضخمة التي يخيب أمل المرء في العادة بشأنها وسرعان ما تنتهك . من بين القصائد الأكثر كثافة في عمل كافافي «إيثاكا» التي تبدو وكأنها تخاطب أوديسيوس الذي نعرف وقائع رحلة

عودته إلى البيت وشوقه إلى بينيلوب مقدما، ومن ثم فإن ثقل «الأوديسة» ينوء فوق كل سطر من سطور القصيدة. لكن ذلك، على أي حال، لا يحول دون الاستمتاع بالقصيدة:

لتكن هناك صباحات صيف كثيرة

تشعر فيها بالسعادة، فآية متعة

تشعر بها عندما تطأ موانئ تراها لأول مرة؛

لتتوقف في محطات تجارية فينيقية

وتشتري أشياء جيدة وجميلة،

أصدافا ومرجانا، كهرمانا وأبنوسا،

عطرا حسيا من كل نوع

لكن كل متعة من المتع يجري تعيينها ببراعة، قبل الشروع في أي شيء، بعبارات المتكلم في القصيدة. إن إيقاعات القصيدة الختامية تميد اكتشاف إيثاكا لا بوصفها هدفا أو وجهة يقصدها البطل المشدود إلى البيت بل كتحريض لكي يتم رحلته («لقد منحتك إيثاكا رحلة جميلة. / لولا إيثاكا ما كنت ارتحلت. / ولا شيء يبقى لديها لتمنحك إياه الآن»). وهذا ما يجعل إيثاكا نفسها متحققة ومجردة من الوعد، عاجزة عن اجتذاب البطل أو حتى خداعه في الوقت الذي يتحدد مسار الرحلة والعودة منها في سطور القصيدة. إن إيثاكا نفسها، وهي موثقة إلى ذلك المسار المحدد، تكتسب معنى جديدا لا كمكان بعينه بل كصنف من التجارب (إيثاكات عديدة) تجعل الفهم الإنساني ممكنا:

إذا وجدتها فقيرة فإن إيثاكا لن تكون خدعتك.

حكيمًا ستصير، محتشدا بالتجارب

سوف تفهم آنذاك ما تعنيه الإيثاكات جميعها.

إن شكل العبارة في «سوف تفهم آنذاك» تدفع القصيدة باتجاه تحقيقها الأخير، تاركة المتكلم، الذي لا يقوم بأي فعل هو نفسه، يقف في الخارج، أعزل بلا حول أو قوة. كأن إعاءة كافافي الشعرية الأساسية هي إيصال المعنى إلى شخص بعينه في الوقت الذي ينكر فيه استحقاقه كنوز ذلك المعنى هو نفسه: إنه شكل من المنفى يعيد استنساخ عزلته الوجودية في الإسكندرية الفارقة هلمينيتها منتظرة

في قصيدة كافافي الشهيرة « في انتظار البرابرة » وقوع الكارثة . لكن تلك التجربة سرعان ما تتبدد إذ ندرك أنه « لم يعد هناك برابرة » ، ومع ذلك فإن المتكلم في القصيدة يشير ، بنوع من رثاء الذات والانتفاص من شأنها ، إلى أن « أولئك الناس كانوا نوعا من الحل » . إن القارئ يُمنح فضاء شعريا غامضا لكنه محدد بعناية حيث يستطيع أن يسترق السمع أو يفهم بصورة جزئية فقط ما يحدث في الحقيقة .

إن من بين أعظم إنجازات كافافي قدرته على جمع الأطراف المتباعدة في تجربة النهاية والأزمة الفيزيائية والمنفى من خلال أشكال وأوضاع مختلفة ، وعلاوة على ذلك كله بأسلوب يتسم بالخلق والإبداع المميزين والرصانة الأنيقة اللافنة . غالبا ، وليس دائما ، ما يوفر تاريخ الإسكندرية لكافافي وقائع من هذا النوع كما في قصيدته العظيمة « الله يتخلى عن أنطونيوس » المستمدة كواقعة من حكاية يرويه بلوتارك . يخاطب المتكلم البطل الروماني وهو يواجه فقدان وظيفته ، وانتهيار خططه ، وفي النهاية سقوط مدينته : « قل وداعا لها ، للإسكندرية التي تفقدها » . إن المتكلم يطلب من أنطونيوس أن يضع جانبا العزاء الحسي ، بكل ما يحمله من ندم رخيص وخداع فقير للنفس . وبدلا من ذلك ، فإنه يدعوه بقسوة لكي ينخرط في تجربة رؤية الإسكندرية كمشهد مفعم بالحياة شارك هو يوما في صنعه لكنه ، مثله مثل كل وقائع الزمن ، يبدو الآن وهو يتعد عنه :

لأن ذلك من حقك أنت بما من أعطيت هذا النوع من المدن ،

أذهب برباطة جأش إلى النافذة

وأصغ بلهفة عميقة ،

لا هائنين الجبان وذرائعه ؛

أصغ - إلى الأصوات ، فتلك هي متعتك الأخيرة ،

إلى الموسيقى الفاتنة للموكب الشديد الغرابة ،

وقل وداعا لها ، للإسكندرية التي تفقدها .

إن مما يضاعف أثر هذه السطور المدوخة هو أن كافافي يفرض على أنطونيوس صمتا تاما ، ولربما نهائيا ، بحيث يمكنه أن يسمع للمرة الأخيرة نغمات « الموسيقى الفاتنة » التي يفقدها : إن الصمت الصمت التام والصوت المألوف الممتع يجري التعبير عنه ، بصورة مذهشة ، بكلمات محايدة تنتمي إلى

يقبض فورستر، بحديثه عن كافافي كـ« شخص يقف دون حركة صانعا زاوية حرجة مع الكون »، على الأثر الغريب المليء بالنشوة الذي يصنعه دائما أسلوبه الأخير، بتصريحاته الصغيرة الكثيرة الوسواس التي تنتزع من المجهول. في واحدة من أفضل قصائد كافافي « ميريس: الإسكندرية ٣٤٠ ميلادية »، يحضر المتكلم جنازة شريكه الرائع في المشرب ميريس، وهو شخص مسيحي يعاد خلقه في الموت بوصفه موضوعا لاحتفال كنسي متقن. إن المتكلم يخشى فجأة أن عاطفته تجاه ميريس خدعته ويفر هاربا من « البيت الرهيب »:

اندفعت خارجا من البيت الرهيب

اندفعت قبل أن تأسرني ذكرى ميريس

قبل أن تنتزعها مني مسيحياتهم.

ذلك هو امتياز الأسلوب الأخير: إن لديه القدرة على تبديد السحر وتحقيق المتعة دون أن يلجأ إلى حل التعارض القائم بينهما. إن ما يبقي على التوتر بينهما، كقوتين متساويتين تشدان في اتجاهين متعاكسين، هو ذات المؤلف الناضجة المتجردة من الفطرسه والتباهي، التي لا تخجل من الاعتراف بخطئها أو الثقة المتواضعة التي اكتسبتها بفعل الشيخوخة والمنفى.

فصل من كتاب حول « الأسلوب الأخير » للراحل إدوارد سعيد ينشر قريبا بالإنجليزية. وقد نشر هذا الفصل

في مجلة ولندن ريفيو أوف بوكس، المجلد ٢٦، عدد ١٥، ٥ آب ٢٠٠٤.

ترجمة: فخري صالح

ادوارد سعيد
الحاضر، دائماً
٢

إدوارد سعيد ونقاده

ليلى غاندي

تحققت السمات الرئيسية لميراث ما بعد الكولونيالية الثقافي - التي عالجناها في الفصلين السابقين - وتوسعت على يد إدوارد سعيد في كتاب الاستشراق (المنشور في عام ١٩٧٨). في هذا الكتاب، كما في مجمل أعماله، يكشف إدوارد سعيد عن علاقة مضطربة بالماركسية، كما يفصح عن فهم ما بعد بنوي للترابط ما بين القوة الكولونيالية والمعرفة الغربية. وبالقدر نفسه يظهر فهما عميقا للواجبات السياسية والعملية الملقاة على عاتق المثقف في عصر ما بعد الكولونيالية. في هذا الفصل، نقدم بعض السياقات التي تحول الكتاب بفضلها إلى أحد الأعمال المرجعية الأساسية [لنظرية] ما بعد الكولونيالية، وذلك من خلال العرض لنفوذها في الأوساط الأكاديمية، وحدوده النظرية.

ليلى غاندي، كاتبة وأكاديمية من الهند

الفصل الرابع من كتاب

postcolonial theory: a critical introduction 1998

الاستشراق يدخل إلى المشهد

يمثل كتاب الاستشراق - الذي يُعامل عادة كعنصر تحفيز، وعلامة مرجعية في تاريخ ما بعد الكولونيالية - الطور الأول لنظرية ما بعد الكولونيالية. وبدلاً من الانخراط في الوضع المتبسط الذي آل إليه الحال بعد انتهاء العهد الكولونيالي - وبالأحرى بدلاً من الانخراط في تاريخ ودوافع المقاومة التحررية ضد الكولونيالية - يوجه سعيد اهتمامه إلى عملية الإنتاج النصي والخطابي للمعاني الكولونيالية وتوابعها، وإلى كيفية تعزيز الهيمنة الكولونيالية.

ورغم أن «تحليل الخطاب الكولونيالي» يمثل الآن مجرد جانب من جوانب نظرية ما بعد الكولونيالية، إلا أن أحداً لا يستطيع التقليل من تأثيره على ما تلاه من اجتهادات نظرية لاحقة.

أثنت غيatri سبيفاك، مثلاً، في الآونة الأخيرة على كتاب سعيد باعتباره النص المؤسس، و«المصدر» الذي اكتسبت «الهامشية نفسها» بفضلها مكانة العلم في الجامعات الأنغلو-أميركية. تقول: «لقد أثمرت دراسة الخطاب الكولونيالي، التي بدأت بتأثير مباشر من عمل سعيد [الاستشراق]، ثم ازدهرت لتصنع حديقة يتكلم فيها الهامشيون، ويتكلم فيها عنهم، وحتى من أجلهم، وهي الآن جانب مهم من جوانب العلم» (سبيفاك ١٩٩٣، ص ٥٦).

وبالقدر ينطلق محررو سلسلة إسيكس المتنفذة حول سوسولوجيا الأدب، من روحية المجاز الباذخ لسبيفاك للقول إن الجهد الريادي الفردي لسعيد نقل شؤون المستعمرة والإمبراطورية: «إلى مركز الصدارة في النظرية الأدبية والثقافية الأنغلو-أميركية» (باركر وآخرون ١٩٩٤ ص ١).

وفي حين تدل هذه الشهادات على المكانة المرموقة لنص سعيد في جامعات المتروبول الغربي، يحاول آخرون البرهنة على نفوذ كتاب الاستشراق في الأوساط الأكاديمية في العالم الثالث.

وقد كتبت كل من زاكيه باتاك، وساسواتي سنغويتا، وشامله بوركايستا بحماسة عن الانتظار الطويل، والوصول المسيحي لللاستشراق إلى أقسام الدراسات الإنكليزية المغتربة والمغربة في جامعة دلهي. وفي هذا السياق ذكروا أن كتاب سعيد علمهن كيف يدرسن أدبا لا يخصهن.

«إن تفكيك النص، ودراسة عملية إنتاجه، والتعرف على أساطير الإمبريالية التي صاغته، وإظهار كيف تنشأ التعارضات، التي يقوم عليها، عن حاجات سياسية في لحظة تاريخية محددة، أشياء عجلت بعودة النص إلى الحياة في عالمنا» (باتاك وآخرون ١٩٩١، ص ١٩٥).

يمكن العثور على الروحية نفسها في تقييم يارثا خاترجي لكتاب سعيد من ناحية دوره في تشكيله

ثقافيا كمؤرخ « ما بعد كولونيالي »، حيث تستعيد مقالته بنوع من النوستالجيا لحظة الكشف عندما قرأ الاستشراق للمرة الأولى في كلكتا، في ظل ظروف صعبة:

« سأذكر، دائما، يوم قرأت الاستشراق .. كان الاستشراق في نظري .. أنا المنحدر من كفاح ناجح ضد الاستعمار [في الهند]، كتابا يتكلم عن الأشياء التي شعرت بمعرفتي لها خلال فترة طويلة، ولم أجد اللغة المناسبة للتعبير عنها بوضوح، وعلى غرار الكتب العظيمة كان الكتاب يقول لي ما أردت قوله دائما » (خاترجي ١٩٩٢، ص ١٩٤).

تحاول الشهادات التي ذكرتها، بطرق مختلفة، تقديم كتاب الاستشراق « كحدث » مرجعي مؤسس. وبينما تقيس سبيفاك، ومعها محررو سلسلة إيسكس المكانة المرجعية المعترف بها للكتاب استنادا إلى نفوذه العام، وفي الأوساط الأكاديمية، يدعونا خاترجي للمشاركة في المتعة الثقافية الناجمة عن لقاء خاص بين قارئ ما زال في طور تلمس الطريق، وكتاب عظيم.

وإذا جمعنا بين النوعين من الشهادات، لا شك أنها فيها ما يبرهن بشكل حاسم على ما مارسه الاستشراق من دور ثوري في التكوينات والبنى الثقافية، وفي حيوات أناس في الغرب، وخارج الغرب.

يوجد، بالطبع، نقاد لم يتأثروا بما في الكتاب من جاذبية، وقد طرحوا أسئلة حول أهمية الكتاب ومكانته. ومع ذلك، كما قال تيم برينان في سؤاله لنقاد سعيد:

« لماذا .. كان الاستشراق .. الكتاب الذي غيّر مسار البحث في العديد من العلوم، ووجد قراء في عدد من اللغات، وتحول إلى مرجع لأعمال لا تخطر على البال، وألهم فيلما سينمائيا طويلا؟ » (برينان ١٩٩٢، ص ٧٨).

قبل الكلام عن هذه المسائل، يجدر بنا استعراض بعض موضوعات واهتمامات الاستشراق بشكل موجز.

الاستشراق هو الجزء الأول في ثلاثية كرسها سعيد لاستكشاف العلاقة غير السوية تاريخيا بين عالم الإسلام، والشرق الأوسط، والشرق من ناحية، وعالم أوروبا والإمبريالية الأميركية من ناحية أخرى.

وفي حين يركز الاستشراق الاهتمام على المجال المعروف جيدا للإمبريالية البريطانية والفرنسية في القرن التاسع عشر، فإن الكتابين اللاحقين في السلسلة، مسألة فلسطين (١٩٧٩) وتغطية الإسلام

(١٩٨١) يضعان في الواجهة العلاقة الخفية، أو الكامنة، بين الصهيونية وفلسطين، وبين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي.

يزعم نقاد سعيد أن هذه الكتب قليلة الأهمية بفضل تركيزها على ما تمارسه الإمبريالية من عنف. وبقدر انخراطها في تحليل السياقات الإمبريالية لا تعدو أن تكون نسخا مستحدثة عن الكتابات التقليدية المكرسة ضد الكولونالية. وهي كما يقول إعجاز أحمد: « قديمة قدم الاستعمار نفسه » (أحمد ١٩٩٢، ص ١٧٤).

وقد صادفنا من قبل بعض التحليلات المبكرة والأكثر مشاكسة لتلك الكتابات لدى غاندي، وفانون. باي من المعاني، إذاً، تكون إضافة الاستشراق والكتابين اللاحقين إلى الكتابات الشجاعة المعادية للهيمنة التي ظهرت من قبل؟ كيف يشخص سعيد إرادة الغرب لتحقيق السيطرة بشكل مختلف؟ بداية، نقول إن سلسلة الاستشراق ككل تبلور فهما فريدا للإمبريالية / الكولونالية، باعتبارها موقفا معرفيا يصاحب العادة الغربية لحب السيطرة، وحكم بلاد بعيدة، إذا توفرت الوسائل. كما يقول سعيد في كتابه الثقافة والإمبريالية:

« لا الإمبريالية، ولا الاستعمار، مجرد عمل بسيط من أعمال التملك والتراكم، إذ يُدعم كلاهما، وربما يُدفع، بتكوينات أيديولوجية مهيبية تشمل أفكارا من نوع أن مناطق، أو شعوب بعينها، تستحق، وربما تتوسل، الهيمنة، كما يُدعم كلاهما بأشكال من المعرفة ترتبط بالهيمنة » (سعيد ١٩٩٣، ص ٨).

الاستشراق هو الكتاب الأول، الذي ينزع فيه سعيد بلا كلل، الأقنعة الأيديولوجية للإمبريالية. وبهذا المعنى، فإن إسهامه الخاص في حقل الدراسات المعادية للكولونالية يكمن في ترميته المثابرة. وإن تكن لا تخلو من قدر من المبالغة. للعلاقة المتبادلة بين المعرفة الكولونالية، والسلطة الكولونالية. توحى هذه العلاقة أن « الاستشراق » - أو مشروع التدريس، والكتابة، والبحث، حول الشرق - كان، دائما جزءا معرفيا مصاحبا، ومصدر غواية، لمغامرات أوروبا الإمبريالية في « شرق » مفترض. وبالتالي، يشير الاستشراق إلى أن خصوصية الأسلوب الغربي في الهيمنة على الشرق، وإعادة تشكيله، مستمد من الأسلوب الغربي الخاص بدراسة الشرق، والتفكير فيه. بمعنى آخر، طريقة فوز الغرب بالشرق، تدعونا إلى النظر في بعض الوسائل التي عُرف الشرق عن طريقها.

ظاهرة إدوارد سعيد

لتقييم النجاح الحارق للاستشراق بصورة موضوعية، فإن علينا العودة إلى اللحظة التي نشر فيها في العام ١٩٧٨ . يجب محاكمة الكتب - كما يصير سعيد في مقدمته لكتاب « العالم، النص، والناقد » استنادا إلى الظروف التي تظهر فيها، وإلى مدى انشغالها بالقضايا الاجتماعية، والسياسية، لزمن ظهورها. وفي هذا الصدد يكتب:

« أرى أن النصوص دنيوية، وإلى حد ما أحداث [نقع]، وحتى عندما تحاول نكران ذلك، فإن النصوص جزء من العالم الاجتماعي، والحياة الإنسانية، وبالطبع من اللحظات التاريخية التي تقع ضمن حدودها، وتُفسر على خلفيتها » (سعيد ١٩٨٣، ص ٤).

يطور سعيد في أعماله اللاحقة، مثل: الثقافة والإمبريالية، هذا الموقف قائلا:

في حين أن كل النصوص دنيوية، فإن النصوص الكبرى، أو الروائع، هي التي تشق ضغط العالم ومشاغله من حولها. تكشف تلك الأعمال بنجاح، وتمنح الشكل، لبنى المواقف والمرجعيات السائدة، وفي قيامها بهذا العمل، تشير إلى ما تمتاز به تلك البنى من إمكانيات أو محدودية.

يطرح ريموند وليامز وجهة نظر مشابهة في تمييزه المفيد جدا بين ما يدعوه بالنصوص الدلالية [التي تظهر شيئا ما، أو تبرهن أن هذا الشيء موجود، أو أنه حقيقي]، والنصوص الشرطية [التي تعبر عن شكوك ورغبات واحتمالات يمكن تحقيقها إذا توفر شرط ما].

وفي حين تبين النصوص في الحالة الأولى ما يجري في العالم، فإن النصوص في الحالة الثانية توحى، أو تشير إلى مقاربة راديكالية، أو بداهة، غير متحققة اجتماعيا، أو سياسيا، ولا هي ممكنة في ظل النظام الاجتماعي السائد. (وليامز ١٩٨٦، ص ١٦).

وبهذا المعنى، فإن النصوص الشرطية تحاول بصفة مستمرة رفع ضغط معين، أو دفع قيود معينة، وهي في الوقت نفسه ترزح تحت الثقل الكامل للضغوط والتقييدات. إلى أي حد يمكن تطبيق معايير سعيد ووليامز - لكيفية تكريس النصوص الأدبية - على الاستشراق؟

هل من الممكن، أو حتى المناسب، التفكير في الاستشراق كنص شرطي بشكل جذري؟

لقد تدنّع نقاد سعيد بمنطق وليامز في التمييز بين النصوص الدلالية والشرطية للقول إن الاستشراق ليس سوى عملية عرض دلالية، وحتى مضجرة، لما كان يجري في الأوساط الأكاديمية الأنغلو - أميركية في أواخر السبعينات، وأوائل الثمانينات. ويلج هؤلاء النقاد على أن العالم الأكاديمي لكتاب سعيد

كان لا يزال في طور الشفاء من الأحداث الكارثية لعام ١٩٦٨ .

وكما يعرف الجميع، فإن هذا التاريخ يعيد إلى الذهن ذكرى أحداث الثورة البيوتوبية التي اجتاحت أوروبا، وشارك فيها العمال والطلاب في هجوم مؤحد، وغير مسبوق، على المؤسسات التعليمية المتسلطة، والدولة الرأسمالية. وصل الهيجان، بطبيعة الحال، إلى نهاية تثير الشفقة في شوارع باريس، من ناحية بسبب الطبيعة الفوضوية للهجوم نفسه، ومن ناحية أخرى، بسبب خيانة الزعماء الستالينيين للحركة.

وقد أدت إخفاقات العام ١٩٦٨ إلى إعادة نظر جدية، ومتحررة من الأوهام، في النظرية الماركسية، وكذلك التفكير في ما أغفلته. تبلورت إعادة النظر هذه، نوعاً ما، كما رأينا في الفصل السابق، في ما بعد البنيوية - ما بعد البنيوية محاولة نظرية حازت شهرة في الأوساط الأكاديمية في الفترة السابقة مباشرة لنشر الاستشراق.

يصعب على النقاد نفي مختلف أشكال التواصل بين نظرية ما بعد البنيوية والاستشراق. وفي حين حاول البعض بطريقة متعاطفة تشخيص ما يدين به نص سعيد للبنيوية، وما يميزه عنها، اختار آخرون توظيف نظرية ما بعد البنيوية ضده.

وهكذا، يلتقي إعجاز أحمد على ما بعد البنيوية، وورثتها، مسؤولية احتضار الفكر الماركسي. يتأكد المحتوى الرجعي لما بعد البنيوية، في نظر إعجاز أحمد، بفضل تصادف صعودها المضلل إلى مركز الصدارة، مع صعود حكومات اليمين، والحركات اليمينية في العالم الأنغلو - أميركي.

بهذا المعنى، يمثل صعود الريغانية، وشرية، وهزيمة الاشتراكية الديمقراطية في ألمانيا والبلدان الاسكندنافية، والاحتكاك الرجعي في فرنسا، خلفية للانحراف النظري للأوساط الأكاديمية الأنغلو - أميركية في أواخر السبعينات. ويجادل إعجاز أحمد بالقول: إن معظم المثقفين قد انجهوا - في ظل غياب أدنى شكل جدي للفكر « اليساري » الشرعي في تلك الفترة الرجعية - إلى أشكال رمزية وروخة، تعبر عن الإحساس بالذنب، مثل الاهتمام بالبيئة، وبالعالم الثالث، على حد تعبيره.

وقد اتسم موقف هذا المثقف الجديد بالحصول على الشرعية من جهة اليسار، عن طريق الإشارة بحماسة بالغة إلى العالم الثالث، وكوبا، وحركة التحرر القومي. ومع ذلك، كان معاديا صريحا للشيوعية، ورافضا للاقترب من كل حركة تنحدر من الماركسية التقليدية، مثل الاشتراكية الديمقراطية، وبالقدر نفسه كان ضد الانتساب، مهما كانت درجته، إلى أي حركة عمالية، مهما كان نوعها، وإن

كان كثيرا ما يعتبر عن مواقف معادية للبرجوازية، باسم موقف رجعي صريح في عدائه للنزعة الإنسانية، تبلور في كتابات نيتشه، وتكاثر تحت راية العداء للنزعة التجريبية، والثاريخانية، والبنوية، وما بعد البنوية (أحمد ١٩٩٢، ص ١٩٢).

يستهدف أحمد من وراء هذا الجدال عرض السياق، الذي ظهر الاستشراق من خلاله. ويقدر ما يعتقد أن فترة أواخر السبعينات كانت معادية للماركسية، وما بعد بنوية صاخبة، وعالمثالية بالمعنى العاطفي، فإنه يعتقد، أيضا، أن كتاب سعيد برمته - وبكلمات ريموند وليامز - علامة على أخلاقيات السبعينات.

ورغم أن في اعتراضات أحمد المحددة على الاستشراق الكثير من المصادقية، إلا أن ثمة ما يدعو للاعتقاد أن تشخيصه للظروف المصاحبة لظهور الكتاب ينطوي على كثير من المبالغة. ومع أن كتاب سعيد ينم عن حدود وكوابح علاقته المحددة تاريخيا بالماركسية، وما بعد البنوية، والعالم الثالث، إلا أن الكتاب يوسع تلك الحدود البنوية والشكلانية بطرق «شرطية» مثيرة للاهتمام.

فلنبدأ بمعالجة موضوع الماركسية. عبر سعيد منذ ظهور الاستشراق عن انتقادات مستمرة للنظرية الماركسية لما تعانيه من نواقص إبستمولوجية وأنطولوجية. وقد صدرت اعتراضاته في هذا الشأن عن رفض لوضع أعمال محددة من النقد، أو السياسة، مسبقا في خانة أشياء من نوع «الماركسية»، أو «الليبرالية».

النقد، كما يقول، يشبه نفسه:

«من حيث ارتياحه في القوالب الفكرية ذات النزعة الشمولية، وعدم ارتياحه لتجسيد الأفكار المجردة، ونفاذ صبره تجاه النقابات، والمصالح الخاصة، والإقطاعيات الفكرية، والعداوات العقلية الجامدة». يدعو سعيد، حسب فهمه للنشاط السياسي / النقدي، إلى الابتعاد عن أنظمة المعرفة الجاهزة والاتجاه نحو «أحداث»، أو أعمال معرفة مغايرة. وهذا شبيه، طبعا، بموقف ليونار - وإلى حد ما فوكو - الذي ينكر أي قبول فكري أو أخلاقي بالشمولية.

وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن اعتراضات سعيد على الأرثوذكسية الماركسية تبلورت تاريخيا بفضل ارتياح منطري ما بعد البنوية، وما بعد الحداثة، في كل محاولة لخلق وتعميم «رواية كبرى». وفي الوقت نفسه - خلافا لفوكو وليونار - فإن خيبة أمله في الماركسية لا ترتبط بتجارب ١٩٦٨ التي أنتجت، كما يقول تيري إيجلتون:

ردة فعل عنيفة ضد «كافة أشكال النظريات السياسية، والتنظيمية، الساعية إلى تحليل بنى المجتمع ككل، والعمل على هذا الأساس، حيث بدا أن تلك السياسات مسؤولة عن الفشل» (إيغلتنون ١٩٨٣، ص ١٤٢).

تختلف المسألة نوعاً ما لدى إدوارد سعيد، إذ يرى أن فشل المقلات الماركسية الراديكالية، ناجم عن عجزها عن التكيف مع الحاجات والتجارب السياسية الخاصة لشعوب المستعمرات. وفي هذا الصدد، يقول بالإشارة إلى التجربة الفلسطينية:

«لم يظهر أن تطوّر ماركسية نظرية في العالم العربي كان استجابة ناجحة لتحديات الإمبريالية، و [عملية] تكوين نخبة قومية، وفشل الثورة القومية».

لذلك، يجسد سعيد في الاستشراق النقص الثقافي للنظرية الماركسية، إذ يلفت الأنظار إلى عجز ماركس نفسه عن رؤية العالم خارج أوروبا.

يدافع ماركس، كما نعلم، عن ظهور وانتشار المجتمع الأوروبي الرأسمالي، أو البرجوازي، كشرط مسبق للثورة الاجتماعية. وفي هذا السياق، يتماهى مع الكولونيالية الأوروبية باعتبارها المشروع التاريخي، الذي يسهل عولة نمط الإنتاج الرأسمالي، ويعمل بالتالي على تدمير أشكال التنظيم الاجتماعي «المختلفة»، أو ما قبل الرأسمالية.

وفي الكثير من كتابات ماركس، خاصة تحليلاته الصحافية في العام ١٨٥٣ للحكم البريطاني في الهند، يمكن العثور على صلة ضمنية بين الدور التقدمي لرأس المال، والدور التقدمي للكولونيالية. وفي هذا الصدد يكتب:

«على إنجلترا تحقيق الدور المزدوج في الهند: في جانب منه تدميري، وجانب إحيائي - تدمير المجتمع الآسيوي، ووضع القواعد المادية للمجتمع الغربي في آسيا».

يرد سعيد على هذا التصريح بالقول: إن الفرضية الماركسية حول الثورة الاجتماعية/الاقتصادية خاطئة أخلاقياً، وخاطئة في نتيجتها، من وجهة نظر شعوب المستعمرات.

أولاً، لأن نظرتها إلى التقدم تعيد التركيز على فرضيات القرن التاسع عشر حول وجود عدم مساواة عميقة بين الشرق والغرب.

وثانياً، لأنها لا ترى في «الشرق» المستعمر سوى صورة معجزة لتوضيح نظرية ما، بدلاً من النظر إلى الشرق ككتلة وجودية من بشر يعيشون المعاناة.

وأخيراً، الفرضية الماركسية خاضعة، لأن ماركس يسير على خطى المنطق الماكر للكلام عن المهمة التمدينية للكونيالية. ففي هذا المنطق ثقب روبا الكبرى، الساعى إلى خلاص أسيا الفقيرة، كامر مغرغ منه.

وبهذا المعنى، كما أشار فانون، تصبغ حتى الاشتراكية جزءا من المغامرة العجيبة للروح الأوروبية (فانون ١٩٩٠، ٢٥٣). بكلمات أخرى، تصبغ الكولونيالية ضرورة عملية ونظرية لا مفر منها* لتحقيق رؤية ماركس التحررية.

يصل نقد سعيد للنظرية الماركسية إلى وجهة ما بعد بنيوية عندما ما يظهر، مرة أخرى، مدى ما تنسجم به العلاقة بين المعرفة الغربية، والمصالح العملية للدول الغربية، من تعقيد. ومع ذلك، فإن المعايير الجغرافية، والثقافية، لتجليات سعيد ما بعد البنيوية تختلف جذريا. كما حاولت القول من قبل - عن تلك المستخدمة من جانب فوكو، ودريدا، في نقدهما التنقيحي للاستعمارية والهيمنة الثقافية الغربيةتين.

ففي حين يحاول أولئك المشاهير ما بعد البنيويين الطعن في صحة المحددات المفهومية للغرب، من داخل الثقافة الغربية نفسها، إلا أنهم - كما يقول هومي بابا - يمارسون التمركز العرقي بوعي، وبصورة سافرة، في رفضهم لمثل تلك المحددات إلى «الهامش الكولونيالي»، إلى حيث سيضطرب الغرب إلى مجابهة صورة مزدوجة، ومهتشة، عن نفسه باعتباره قوة تمدنية، وفي الوقت نفسه قوة إخضاع عنيفة (بابا ١٩٨٦، ١٤٨).

لذلك، بينما يعرض دريدا بمهارة للنواقص الداخلية، والحيثيات، وعمليات الحذف في ما يدعوه منظومة «الميتافيزيقا الغربية»، يتجاهل بشكل واضح التنظير للآخرين الحضاريين، أو العوامل الخارجية، التي جعلت هذه المنظومة «غربية» بصورة لا تقبل التكرار. كما تبقى العناية النقدية التي أولاها فوكو لبنية الخطاب، ونظام الحضارة الغربيين، كليله النظر من ناحية ثقافية بقدر ما يتعلق الأمر بالعالم غير الأوروبي.

لذا، تجدر قراءة الاستشراق، في هذا السياق، كمحاولة لتوسيع الرقعة التاريخية، والجغرافية لشكوى ما بعد البنيوية من الاستعمارية الغربية. فالاستشراق يقول: إذا أردنا فهم ظهور «الغرب» بصورة كاملة، كبنية ونظام، علينا، أيضا، الاعتراف أن «الشرق» للمستعمر «ساعد في تحديد [ماهية] أوروبا باعتباره طرف المقارنة، التي تقيس عليها أوروبا صورتها، وأفكارها، وشخصيتها، وتجربتها».

بهذا المعنى، فإن ملاحقة إدوارد سعيد النقدية لماركس من شوارع باريس إلى آسيا، تدل على الطريقة، والكلام لهومي بابا:

التي نقل بها عمله بصورة جذرية مركز النظرية المعاصرة من الضفة اليسارية إلى الضفة الغربية، وما بعدها، من خلال تأمل عميق لاساطير القوة والمعرفة الأوروبيةتين، التي تحكم على المستعمرين، والمنهويين، بنصف حياة من سوء التمثيل والهجرة» (بابا، ص ١٤٩).

في الختام، يمكن أن نزور مشروع سعيد إذا رأينا في نقده للماركسية مجرد التزام أعمى بما بعد البنيوية. فنقده لماركس، كما رأينا، يشبه من حيث الجوهر نقده لما بعد البنيوية. وكلاهما يلفت الانتباه إلى حقيقة أن هاتين النظريتين ليستا على طرفي نقيض، كما يبدو الأمر للوهلة الأولى، بل توحداهما عاة التمرکز العرقي حول الذات.

ومع ذلك، علينا الاعتراف أن سعيداً، كما قال نُقَّاده، يمارس نوعاً من الحصانة تجاه المجاز وقيمة النظريات والمعارف التي يختار نقدها، ويميل إلى التقليل مما يدين به من ناحية فكرية لسابقه ما بعد البنيويين، ويتفادى الكلام عن إسهام الماركسية الكبير في «العالم الثالث».

فالماركسية، رغم اعتراضات سعيد، غير متوافقة مع الإمبريالية بقدر ما هي بيان للتواطؤ المؤكد بين الرأسمالية والكونولونية. وما تطرحه نظرياً يتمثل في جملة من الأبواب، التي يمكننا العمل بها، وفهم أنفسنا من خلالها، واندراجنا في تاريخ الرأسمالية/الإمبريالية الغربية بصورة مختلفة (انظر شاكرابرتي ١٩٩٣، ص ٤٢١).

علاوة على ذلك، وكما جادلت غياتري سبيفاك في عديد من المرات، من المفيد إعادة التفكير، في العلاقة الحالية بين العالمين «الأول» و«الثالث» بواسطة قراءات ماركسية لعولمة رأس المال، والتقسيم الدولي للعمل. فالفكر الماركسي يعتمد، كما تقول:

على إمكانية القول للعامل، إن العامل ينتج رأس المال، ولأن العامل، حاوية قوة العمل، فهو مصدر القيمة. وبالطريقة نفسها يمكن القول لما يسمى بـ «العالم الثالث» إنه ينتج الثروة، وإمكانية التمثيل الذاتي الثقافي في «العالم الأول» (سبيفاك ١٩٩٠، ص ٩٦).

بعبارة أخرى، يمكن التوصل إلى خلاصات سعيد دون تعرية كامل المشروع المعرفي لماركس. وليس من قبيل الإدراك المتأخر، فقط، أن باحثي ما بعد الكولونونية ومنظريها أصبحوا قادرين، بعد ظهور الاستشراق، على تخيّل التواطؤ -الذي يبدو مستحيلاً- بين لا يقين ما بعد البنيوية والتاريخانية للماركسية.

إعادة التفكير في الخطاب الكولونيالي

حاولت البرهنة، حتى الآن، على أن الاستشراق، ومسألة فلسطين، وتفضية الإسلام، محاولات لسحب النموذج الفوكوي للتحالف بين السلطة والمعرفة، على الأوضاع الكولونيالية.

يستكشف فوكو، كما لاحظنا، خط التماس بين السلطة والمعرفة لتفسير وسائل المعرفة في تغيير السلطة، وتحويلها من جهاز ضخم تراكم في نطاق الدولة، إلى قوة متشعبة يتم تعزيزها، ونشرها، خلال التبادل اليومي «للخبرة»، أو المعلومات، المحركة للحياة الاجتماعية. وبالتالي، فإن السلطة، كما تكتب سنيا غونيو «تنتج عبر شبكات خطابية في كل لحظة يرشد فيها شخص «يعرف» شخصا لا يعرف» (غونيو ١٩٩٠، ص ٢٢).

وفي حين يستمع سعيد، بعناية، إلى معالجة فوكو المؤثرة للسلطة، يتضح أنه أكثر اهتماما في نهاية المطاف بمسائل المعرفة، أو-بشكل أدق-يهتم باستكشاف، ونقد، ظروف نقل المعرفة، وتشويهها عن طريق عدوى السلطة. ويبدو في هذا السياق أن سعيدا يستحضر القول الفوضوي عن السلطة باعتبارها مفسدة، للقول إن السلطة تفسد بشكل خاص عندما تحتك بالمعرفة. وهذا، كما يقول لنا، هو الدرس الذي ينبغي استخلاصه من الاستشراق.

وإذا كان ثمة من مستقبل لهذا الكتاب .. سيكون اعتباره بمثابة تحذير من أن كافة منظومات الفكر كالأستشراق، وخطابات السلطة، والجماعات الأيديولوجية-أصفاد يتكرها العقل-تُصنع، وتُطبق، وتُحمى، بقدر كبير من التبسيط .. وإذا كان للمعرفة الاستشراقية من معنى، يتمثل هذا المعنى في تذكرينا بالامتحان المفري للمعرفة، لأي معرفة، في أي مكان، ووقت، وربما في الوقت الحاضر أكثر مما مضى.

يفسر اهتمام سعيد، بالتأثير المؤذي للسلطة على المعرفة، قناعة لديه بكون النشاط الفكري والثقافي يحسن، ويجب أن يحسن العالم الاجتماعي، الذي يُمارس في نطاقه. ولا يمكن العثور على مناسبة يتجسّد فيها سعيد «الدنيوية»، أو النسيج السياسي للمعرفة الإنسانية. يحرص في مقدمته للاستشراق على رفض التمييز بين معرفة «صافية»، ومعرفة «سياسية» على أساس أن لا أحد يحترم نفسه من الباحثين، أو الكتاب، يستطيع من ناحية أخلاقية زعم عدم الانخراط في الواقع الراهن.

وبالتالي، فإن المعرفة أقرب ما تكون إلى طبيعتها، عندما تقوم بمجابهة، ومعارضة، التوزيع غير العادل للسلطة في «العالم». فهي تنتمي، كما يقول سعيد، «إلى ذلك الفضاء المحتمل داخل المجتمع

المدني، وتعمل نيابة عن تلك الأعمال، والنوايا، الاختيارية، التي يتمثل في الدفاع عنها التزام إنساني وفكري عميق». كما أن المعرفة تكون أبعد عن نفسها عندما تتماسس، وتتعاون مع مصالح نخبة مهيمنة، أو حاكمة.

بهذا المعنى، ينظر سعيد إلى الاستشراق كنموذج معياري للمعرفة المأتمنة والمنحطة، التي يجب مجابقتها بمعرفة نقیضة. وهو يبني تحليله في هذا المجال على ثلاث دلالات مميزة للاستشراق، يطرحها في مقدمة كتابه:

أولاً، يستحضر سعيد في البداية الفهم التقليدي «للاستشراق» كمجال للتخصص، أو المتابعة الأكاديمية لشؤون الشرق. وعلى نحو أدق، فإن «الاستشراق» يوحى بالروح الريادية للعلماء، والمتحمسين للثقافات الشرقية، في القرن الثامن عشر - مثل وليام جونز، وهنري كولبروك، وتشارلز ويلكنز - الذين أخذوا على عاتقهم الترجمات الأولى لنصوص مثل باغافدا غيتا، شاكونتالا، وأجزاء من ابانيشادس.

سعيد متسامح، نوعاً ما، في قوله إن «الاستشراق» يشمل نشاطات أي أكاديمي غربي معترف. سواء كان مؤرخاً، أو عالم اجتماع، أو أنثروبولوجياً، أو عالم لغة - انخرط في الماضي، أو الحاضر، في دراسات، وأبحاث، أو تعليم «الشرق».

ثانياً، يتخلى عن المحددات النظامية للميراث الاستشراقي، ليقول بنوع من الشمولية، إن الاستشراق يشير، أيضاً، إلى أي وكل مناسبة حاول فيها غربي تخيّل العالم غير الغربي، أو الكتابة عنه. وبالتالي، يصبح الاستشراق طريقة العقل في التخيّل، أو طريقة في التفكير، تغطي حوالي ألفي عام من المعرفة الغربية للشرق. وفي هذا المنطق يُعاد تعديد هوميروس، وإيسخيلوس، ودانتلي، كمستشرقين.

ثالثاً، يطرح سعيد في نهاية الأمر فهمه الرئيس «للاستشراق» كنظام هائل، أو شبكة من النصوص المتضامنة حول القواعد، والإجراءات، المنظمة لكل ما يمكن تخيّل، أو كتابته، أو التفكير فيه، عن الشرق. ومن الواضح أن التعريف الثالث يشمل المعنيين الأول، والثاني «للاستشراق».

كما يشير، أيضاً، إلى المرحلة التاريخية، التي جرت فيها كل محاولة غربية «لمعرفة»، أو الاحتكاك مباشرة مع العالم غير الغربي، عبر ما يدعوه جيمس كليفورد، بالجل إلى تقسيم العلاقة بين الشرق والغرب، كملاقة بينهم وبيننا، ومن ثم إضفاء صفات حصرية على الآخر الناجم عن هذا التقسيم، من خلال عموميات حول «الشخصية» الشرقية، و«العقل» الشرقي، وهكذا دواليك (كليفورد

بالنتيجة، يقدم سعيد في وصفه الأخير فهما للاستشراق كخطاب - بالمعنى المستخدم للخطاب لدى فوكو.

تفيدنا النظرية اللغوية / الاجتماعية أن التشكيلات الخطابية ترتبط، دائماً، بممارسة السلطة. فهي أنماط من التعبير، أو منظومات من المعاني، تتشكل في سياق إقامة الأنظمة الاجتماعية السائدة، وتلتزم بها.

ففي كل مجتمع من المجتمعات، كما يكتب فوكو:

« يخضع إنتاج الخطاب، وكيفية اختياره، وتنظيمه، وإعادة توزيعه، لإجراءات معينة، تتمثل وظيفتها في تجنب ما ينطوي عليه من مخاطر، وفي السيطرة على الأحداث العابرة، وتفادي ما يمتاز به الخطاب من مادية باهظة ».

الخطابات، في واقع الأمر، أنظمة معرفية محروسة جيداً، وهي تحدد، وتسيطر، على أنماط ووسائل التمثيل في مجتمع بعينه. وبالتالي، فإن الخطابات الاستشراقية / الكولونيالية أمثلة نموذجية للنشاط الخطابى، كلما زعمت الكلام باسم الشرق الصامت، وغير المفهوم، فهي في هذا الزعم تمثل الشرق، باستمرار، باعتباره صورة باطنية، سلبية، أو « الآخر » المحروم من العقلانية الغربية.

بعبارة أخرى، يصبح الاستشراق خطاباً في اللحظة التي يبدأ فيها، بصورة منهجية، بإنتاج صور نمطية عن الشرقيين، والشرق، من نوع الحرارة، والغبار، السوق المكتظة بالحركة، الإرهابي، المحظية، الطاغية الآسيوي، المواطن الأصلي الذي يتصرف كالأطفال، والشرق الغامض.

يخبرنا سعيد أن هذه الصور النمطية تعزز ضرورة، وجدوى، الحكم الكولونيالي، لأنها تؤكد، بعدد يصعب حصره من الأمثلة، تفوق الغرب على دنوية الشرق. وما تعرضه [الصور النمطية] يتمثل في الصورة الثابتة « لعرق محكوم، يهيمن عليه عرق يعرف ما ينفع العرق المحكوم، أكثر مما يعرف ذلك العرق نفسه ».

لقد كان عمل سعيد نموذجياً في احتجاجه على العنف التمثيل في الخطاب الكولونيالي، وفي التزامه الكبير برفع درجة الوعي في الأوساط الأكاديمية الغربية. وفي الوقت نفسه، يمثل الاستشراق نوعاً من التبسيط في إصراره على أن الصور النمطية تفترض، دائماً، وتؤكد، وجود خطاب إمبريالي موحد.

لذلك، أعاد عدد من النقاد، من اتجاهات مختلفة، النظر في الاستشراق في الآونة الأخيرة، للتدليل على أن الصور النمطية الثقافية أكثر تناقضا، ودينامية، بصورة ملموسة مما يفترض سعيد .

هومى بابا، بصفة خاصة، يقول: إن الصورة النمطية الاستشراقية مرتبة غير مستقرة للهوية والوجود الكولونياليين. فهي ذات طبيعة مهددة إلى حد كبير، لأنها تمثل «آخر» الذات الأوروبية الباطني، والمطروود. وهي، أيضا، تجسيد لعمليات الإقصاء المتناقضة، التي تمارسها فتنازبا، وكراهية الغريب الكولونيالية، إذ تحول إلى واقع حيزا محتملا يعرقل لذة الغرب، ويسبب قلقه .

وفي هذا الصدد يكتب هومى بابا:

التنميط لا يعني، فقط، تكوين صورة زائفة لتصبح كبش غداء لممارسات تمييزية، بل هو أكثر من ذلك عبارة عن نص متناقض تعتمل فيه استراتيجيات مجازية، وكتائية، واسقاطية، وكذلك انزياحات، وإحساس بالذنب، والعدوانية، وتقسيم للمعرفة ما بين «رسمية» ومتوحمة .

تستكمل أفكار هومى بابا المعتمدة على التحليل النفسي -حول البنية غير المحددة، والمتشظية للصورة النمطية الكولونيالية -بوعي نقدي متزايد حول الاستخدامات الراديكالية بالمعنى التاريخي للاستشراق، في الغرب، والعالم المستعمر غير الغربي، على حد سواء .

وفي هذا الصدد، يجادل باحثون مثل رتشارد فوكس، وبارثا خاترجي بأن الحركات القومية المعادية للكولونيالية، غالبا ما اعتمدت على صور نمطية كولونيالية إيجابية، في سعيها لتحريف الهوية الثقافية الأصلية، في مواجهة الحضارة الغربية .

مقاومة غاندي الثقافية، يقول فوكس، اعتمدت، بصفة عامة، على صورة نمطية إيجابية للهند باعتبارها من حيث الجوهر: «روحانية، تقوم على التواضع، ومتضامنة» (فوكس ١٩٩٢، ص ١٥١) . لذلك، رد القوميون الهنود المتحمسون على الصور النمطية السلبية عن الهند -كمجتمع تسوده

الطائفية، يعنى بالعالم الآخر، ويمتاز ببنية اجتماعية أبوية، واستبدادية -بحماسة، وبرامج إصلاحية . بهذه الطريقة، لم يكن الخطاب الاستشراقي، من ناحية إستراتيجية، في متناول الإمبراطورية وحسب، بل كان في متناول خصومها، أيضا . علاوة على ذلك، لعبت الصور النمطية الايجابية، الملحقة بهذا الخطاب، دورا حاسما في تشكيل «الشرق» كيوثوبيا بديلة لأوروبا . وكثيرا ما استخدم باحثون، ورحالة، وكتاب، ومجادلون، وروحانيون، وجوالون، يصعب حصرهم، صورة الهند المؤمثلة في الخطاب الاستشراقي، لنقد الرأسمالية العدوانية، والنظام الاجتماعي في الغرب الحديث .

كذلك - كما يكتب نقاد مثل دينيس بورتر، وكاور باكشي - يستمد أدب الجنسية المثلية الراديكالي، والمنشق، في القرن التاسع عشر، الكثير من أسباب معيشتة، من المواقف المتحررة للشرق (انظر بورتر ١٩٨٣ وباكشي ١٩٩٠). وقد قام كتاب من أمثال فورستر، وإدوارد كارنتر، بين آخرين، بتخيل الشرق، والكتابة عنه، والتفكير فيه، واكتشافه بطريقة نمطية، باعتباره عامل وقاية ضد مختلف أشكال القمع السياسية والشخصية في الغرب الإمبريالي.

وإذا كان الاستشراق نصا محدودا، فذلك ناجم في المقام الأول عن عدم قبوله لإمكانية الاختلاف داخل النص الاستشراقي نفسه. والمفارقة أن سعيدا في إصراره العنيد، أحيانا، على أن النص الاستشراقي أسكت المعارضة، يسكت المعارضة، أيضا، وينتج خلافا لمنطقه الخاص صورة نمطية مقلوبة للغربي المعصري.

إن مهمتنا بعد الاستشراق لا تنحصر في إظهار تناقضات الصورة النمطية الشرقية وحسب، بل أيضا، وهذه مسألة حاسمة، في رفض مباحث الركون إلى صورة نمطية للغربي. ربما نرى شكل، واحتمال هذا الرفض من خلال العودة إلى الأرشيف الاستشراقي نفسه، للإصغاء بعناية أكبر إلى المستشرقين أنفسهم. كيف نستطيع الرد، مثلا، على وليام جونز، وهو مستشرق بامتياز، عندما يتكلم بمرارة عن ضيق الأفق الثقافي لأوروبا؟

لم يسمع البعض، أبدا، بالنصوص الآسيوية، ولن يقتنع آخرون بالثور على شيء يعتد به في تلك النصوص، البعض يتظاهرها بكثرة المشاغل، وآخرون يعانون من بطالة حقيقية. البعض يكره الفرس لأنهم يدينون بالإسلام، وآخرون يمتنون لغتهم، لأنهم لا يفهمونها. نحن نحب الأعداء، أو تمويه الجهل، ونادرا ما نقبل بتفوق أحد علينا، تماما على غرار البدائيين الذين يعتقدون أن الشمس تشرق وتغرب من أجلهم، فقط، وليس في مقدورهم تصور أن الأمواج التي تحيط بجزييرتهم، قد ترك اللؤلؤ والمرجان على أي شاطئ آخر (جونز ١٩٩١، ص ١٥٨).

لدينا، بهذا المعنى، نقد يمارسه مستشرق لعمليات الإقصاء السارية في المعارف الغربية، وهذا النقد يمثل قلبا للطرفين النقيضين في المعادلة الكولونيالية، حيث تصبح الرعونة المعرفية الأوروبية مصدرا لصفة البدائية التي تستحقها أوروبا. لا شك في أن مرافعة جونز نيابة عن معارف غير الأوروبيين، تتجاوز نطاق كتاب سعيد، وتستحق الاستيعاب في قراءة جديدة أقل شكلائية للاستشراق.

ترجمة: ح. خضر

- 1 Spivak G, *Outside in the Teaching Machine*, Routledge, New York 1993
- 2- Barker E, Hulme P. & Iversen M. (eds) 1994, *Colonial Discourse/Postcolonial Theory*, Manchester University Press, Manchester
- 3- Pathak Z., Sengupta S., Purkayastha S. 1991, "The prison house of Orientalism", *Textual Practice*, vol. 5, no. 2, pp. 195-218
- 4- Chatterjee P. 1992, "Their own words? An essay for Edward Said", in *Edward Said: A Critical Reader*, ed. Michael Sprinker, Blackwell, Oxford, pp. 194-220
- 5 -Brennan T. 1992, "Places of mind, occupied lands: Edward Said and philology", in *Edward Said: A Critical Reader*, ed. Michael Sprinker, Blackwell, Oxford, pp. 74-95
- 6- Ahmad A. 1992, *In Theory: Classes, Nations, Literatures*, Oxford University Press, Oxford
- 7S. Edward-1993, *Culture and Imperialism*, Chatto & Windus, London
- 8-1983, *The World, the Text and the Critic*, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts
- 9- Williams 1986, "Forms of fiction in 1848" in *Literature, Politics and Theory*, eds Francis Barker et al., Methuen, London, pp. 1-16
- 10- Eagleton T. 1983, *Literary Theory: An Introduction*, Blackwell, Oxford
- 11-F.Fanon 1990, *The Wretched of the Earth*, 3rd edn, trans. Constance Farrington, Penguin, Harmondsworth
- 12- Bhabha H. 1986, "The other question: difference, discrimination and the discourse of colonialism", in *Literature, Politics & Theory*, eds Francis Barker, Peter Hulme, Margaret Iversen, Methuen, London, pp. 148-73
- 13 - Chakrabarty D 1993, "Marx after Marxism: history, subalterneity and difference", *Meanjin*, vol. 52, no. 3, pp. 421-34

14-1990, *The Postcolonial Critic: Interviews, Strategies, Dialogues*, ed. Sarah Harasym Routledge, New York

15- Gunew S. 1990, *Feminist Knowledge: Critique and Construct*, Routledge, London

16- Clifford J. 1988, *The Predicament of Culture: Twentieth-Century Ethnography, Literature and Art*, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts

17- Fox R. "East of Said", in *Edward Said: A Critical Reader*, ed. Michael Sprinker, Blackwell, Oxford, pp. 144-56

18- Porter D. 1983, "Orientalism and its problems", in *The Politics of Theory*, eds Francis Barker, Peter Hulme, Margaret Iversen, University of Essex, Colchester, pp. 179-93

19- Bakshi P. K. 1990, "Homosexuality and Orientalism: Edward Carpenter's journey to the East", in *Edward Carpenter and Late Victorian Radicalism*

29-

Jones W. 1991, "A grammar of the Persian language", in *Sir William Jones: A Reader*, ed. Satya S. Pachori, Oxford University Press, Delhi



طباق محمود درويش

(عن إدوارد سعيد)

نيويورك / نوفمبر / الشارع الخامس /
الشمسُ صحنٌ من المعدن المتطايّر /
قلتُ لنفسي الغريبة في الظلّ:
هل هذه بابل أم سدوم؟
هناك، على باب هاوية كهربائيةٍ
بغلّو السماء،
التقيتُ إدوارد قبل ثلاثين عاماً،
وكان الزمان أقلّ جموحاً من الآن...

قال كلانا :

إذا كان ماضيك تجربة

فاجعل الغد معنى ورؤيا

لنذهب،

لنذهب الى غدنا واثقين

بصدق الخيال، ومُعجزة الغشب /

لا اذكُر انا ذهبا الى السينما

في المساء. ولكن سمعتُ هنوداً

قدامي يتادونني: لا تثق

بالحصان، ولا بالحادثة /

لا. لا ضحية تسال جلاّدها :

هل انا انت؟ لو كان سيفي

أكبر من وردتي... هل متسأل

إن كنتُ افعل مثلك؟

سؤال كهذا يشير لفصول الروائي

في مكتب من زجاج يُطل على

زُئبق في الحديقة... حيث تكون

يُد الفرضية بيضاء مثل ضمير

الروائي حين يُصقّي الحساب مع

النزعة البشرية... لا غد في

الامس، فلنتقدم إذا /

قد يكون التقادُّم جسرَ الرجوع
إلى البربرية... /

نيويورك . إدوارد يصحو على
كسئل الفجر . يعزف لحناً لموتسارت .
يركض في ملعب التنيس الجامعي .
يفكر في رحلة الفكر عبر الحدود
وفوق الحواجز . يقرأ نيويورك تايمز .
يكتب تعليقه المتوتر . يلحن مستشرقاً
ليرشد الجنرال إلى نقطة الضعف
في قلب شرقية . يستحم . ويختار
بذلاته باناقة ديك . ويشرب
قهوة بالحليب . ويصرخ بالفجر:
لا تنلكن!

على الريح يمشي . وفي الريح
يعرف من هو . لا سقف للريح .
لا بيت للريح . والريح بوصلة
لشمال الغريب .

يقول : أنا من هناك . أنا من هنا
ولست هناك ، ولست هنا .
لبي اسمان يلتقيان ويفترقان ...
ولي لفتان ، نسيتُ بالهما
كنت أحلم ،

لي لغة انكليزية للكتابة

طبعة المفردات،

ولي لغة من حوار السماء

مع القدس، فضية التبر

لكنها لا تطيع مختلتي

والهوية؟ قلت

فقال: دفاع عن الذات...

إن الهوية بنت الولادة لكنها

في النهاية إبداع صاحبها، لا

ورثة ماضٍ. أنا المتعدّد... في

داخلي خارجي المتعدّد. لكنني

انتمي لسؤال الضحية. لولم أكن

من هناك لدثت قلبي على أن

يمزج هناك غزال الكناية...

فاحمل بلادك إلى ذهبت وكُنْ

نرجسيًا إذا لزم الأمر/

— منفي هو العالم الخارجي

ومنفي هو العالم الباطني

فمن أنت بينهما؟

— لا أعرف نفسي

لعلّ أضيقها. وأنا ما أنا.

وأنا آخري في ثنائية.

تتناغم بين الكلام وبين الإشارة

لو كنتُ أكتب شعراً لقلتُ:

أنا اثنان في واحدٍ

كجنائحي سُنُوءةٍ

إن تأخر فصلُ الربيع

اكتفيتُ بنقل البشارة!

يحبُّ بلاداً، ويرحل عنها .

[هل المستحيل بعبء؟]

يحبُّ الرحيل الى أيّ شيء

ففي المستقر الحُر بين الثقافات

قد يجد الباحثون عن الجوهر البشري

مقاعد كافية للجميع...

هنا هاميش يتقدم، أو مركزٌ

يتراجع. لا الشرق شرقاً تماماً

ولا الغرب غرباً تماماً،

فإن الهوية مفتوحة للتعدد

لا قلعة أو خنادق /

كان المهاجرون نام على ضفة النهر،

لولا التلوث،

لاحتضن الضفة الثانية

— هل كتبت الرواية؟

— حاولت... حاولت أن أستعيد

بها صورتني في مرايا النساء البعيدات.

لكنهن توغلن في ليلهن الحصين.

وقلن: لنا عالمٌ مستقلٌ عن النعم.

لن يكتب الرجلُ المرأةَ الغفر والخلم.

لن تكتب المرأةُ الرجلَ الرمز والنجم.

لا أحبّ يشبه حباً. ولا ليل

يشبه ليلاً. فدعنا نعدّد صفات

الرجال ونضحك!

— وماذا فعلت؟

■ ضحكت على عبثي

ورميت الرواية

في سلة المهملات/

المفكر يكمع شؤد الروائي

والفيلسوف يُشرخ ورد المغني/

يحبّ بلاداً ويرحل عنها:

أنا ما أكون وما ساكون

سأصنع نفسي بنفسي

واختار منفاي. منفاي خلفي

الشهد المحمي، أداغ عن

حاجة الشعراء إلى الغد والذكريات معاً

وأدافع عن شجر ترتديه الطيور

بلاداً ومنفى،

وعن قمر لم يزل صالحاً

لقصيدة حب؛

أدافع عن فكرة كَسْرَتِهَا هشاشة أصحابها
وأدافع عن بلد خَطَفَتُهُ الأساطيرُ/

- هل تستطيع الرجوع إلى أيّ شيء؟

■ أمامي يجرّ ورائي ويسرع...

لا وقت في ساعتي لأخطُ سطوراً

على الرمل. لكنني أستطيع زيارة أمس،

كما يفعل الغرباء إذا استمعوا

في المساء الحزين إلى الشاعر الرعوي:

وفتأة على النبع تملا جرّتها

بدموع السحاب

وتبكي وتضحك من نطقه

لَسَقَتْ قَلْبُهَا فِي مَوْجِ الغياب

هل الحب ما يوجع الماء

أم تعرّض في الضباب...

[إلى آخر الأغنية]

- إذن، قد يصيبك داءُ الحنين؟

■ حنينٌ إلى الغد، أبعد أعلى

وأبعد. خلّمي يقودُ خُطَايَ.

ورؤياي تُجلِسُ خلّمي على ركبتي

كقطّ أليف، هو الواقعي الخيالي

وابن الإرادة: في وسعنا

أن نُغيّر حتميّة الهاوية!

- والحنين إلى أمس؟

■ عاطفة لا تخصُّ المفكر إلا

ليفهم ثوق الغريب إلى أدوات الغياب .

والها أنا ، فحنيني صراع على

حاضر يُنسبكُ القد من خصيتته

- ألم تتسلل إلى أمس ، حين

ذهبت إلى البيت ، بيتك في

القدس في حارة الطالبيّة؟

■ هُيأتُ نفسي لأن أتمثّد

في نُحْت أمي ، كما يفعل الطفل

حين يخاف أباه . وحاولت أن

أستعيد ولادة نفسي ، وأن

أنتبُحُ درب الحليب على سطح بيتي

القديم ، وحاولت أن أتمسّس جِلْد

الغياب ، ورائحة الصيف من

ياسمين الحديقة . لكن ضُيِّع الحقيقة

أبعدني عن حنينٍ ثلثت كاللص

خلفي .

- وهل خُفّت؟ ماذا أخافك؟

■ لا أستطيع لقاء الخسارة وجهاً

لوجه . وقفتُ على الباب كالمسؤول .

هل أطلب الإذن من غرباء ينامون
فوق سريري أنا... بزيارة نفسي
لخمس دقائق؟ هل أنحني باحترام
لسُكّان حلمي الطفولي؟ هل يسألون:
من الزائر الأجنبي القضيولي؟ هل
استطيع الكلام عن السلم والحرب
بين الضحايا وبين ضحايا الضحايا، بلا
كلمات إضافية، وبلا جملة اعتراضية؟
هل يقولون لي: لا مكان لحلمين
في مخدع واحد؟

لا أنا، أو هو
ولكنه قارئ يتساءل عما
يقول لنا الشعر في زمن الكارثة؟

دئم،
ودئم،
ودئم
في بلادك،
في اسمي وفي اسمك، في
زهرة اللوز، في قشرة الموز،
في لُين الطفل، في الضوء والظل،
في حبة القمح، في حلبة الملح/
فئاصه بارعون يصيبون أهدافهم
بامتياز

دماً،

ودماً،

ودماً،

هذه الأرض أصفر من دم أنثائها

الواقفين على عتبات القيامة مثل

القرابين. هل هذه الأرض حقاً

مباركة أم مُعْتَدَة

بدم،

ودم،

ودم،

لا تجفُّه العلوّات ولا الرملُ.

لا عدل في صفحات الكتاب المقدس

يكفي لكى يفرح الشهداء بحريّة

المشي فوق الغمام. دم في النهار.

دم في الظلام. دم في الكلام!

يقول: القصيدة قد تستضيفُ

الخسارة خيطاً من الضوء يلمع

في قلب جيتارة، أو مسيحاً على

قوس مشغناً بالهجاز الجميل، فليس

الجمالي إلّا حضور الحقيقي في

الشكل /

في عالم لا سماء له، تصبّحُ

الأرضُ هاويةً. والقصيدة إحدى

هباتِ العزاء، وإحدى صفات
الرياح، جنوبيّة أو شماليّة.
لا تصيفُ ما ترى الكاميرا من
جروحك. وأصرخ لتسمع نفعك،
وأصرخ لتعلم أنّك ما زلتَ حيّاً،
وحيّاً، وأنّ الحياة على هذه الأرض
ممكنة. فاخترع أملاً للكلام،
ابتكر جهةً أو سرباً يطيل الرجاء.
وغنّ، فإن الجماليّ حرّة /

أقولُ: الحياة التي لا تُعرفُ إلا
بضك هو الموت... ليست حياة!

يقول: سنجيا، ولو تركتنا الحياة
إلى شأننا. فلنكنّ سادة الكلمات التي
سوف تجعل قراءها خالدين - على حد
تعبير صاحبك القدير يتسوس...

وقال: إذا متّ قبلك،

أوصيك بالمستحيل!

سألت: هل المستحيل بعيد؟

فقال: على بُعد جيلٍ

سألت: وإن متّ قبلك؟

قال: أعزّي جبال الجليل

واكتب: ليس الجماليّ إلا

بلوغ الملامم. والآن، لا تنس:

إن متَّ قبلك أوصيك بالمستحيل!

عندما زُرْتُهُ في سدوم الجديدة،
في عام القين واثنين، كان يُقاوم
حربَ سدوم على أهل بابل...
والسرطانات معاً. كان كالبطل الملحمي
الآخر يدافع عن حق طروادة
في اقتسام الرواية /

نستريح قمتُه عالياً
عالياً،
فالإقامة فوق الالوب
وفوق القيصم
تشير السأم
وداعاً،
وداعاً لشعر الأثم!



أنت خلقت للبهجة!

مريد البرغوثي

هذا ما نستطيع أن نفعله :

أن نلقي بها في السلة .

■ ■

الزئامة كلها،

بشهورها الإثني عشر،

نرمي مضارِعها في الماضي

شاعر فلسطيني مقيم في القاهرة.

كأنها «حقاً» غابت

مع آخر أجراسها:

مباهاجها... لك أنت،

وأزجاجها... إلى النسيان.



لكنتك، كل ليلة،

منذ الليلة،

ستسمع أصواتاً في العتمة،

خشخشة أوراق يُعثرُ النافذة:

أجار / آفار / آب / شباط /

حزيران / كانون الثاني /

أيلول / تشرين / نيسان /

وقع خطي ثمها

وخطي لا ثمها،

هديل مسترات

وهمهمة كوارث.



ها هو الموت،

ثمدياً قلائد من أفعال،

تصنعه سلوكياته المترتبة،

لهيكل خصرة يحزم الهدى

يدس فيه القناوين /

لشلتك مع ملابسه الغامقة

وقناديله وأمشاطه

ومرشة أسنانه الضحكة /
 وسندك في حقيقته الأبنوس
 وسائقك
 إلى حيث تعلم ولا تعلم /
 ليكشفيف، بعد انقطاع المطر
 أنه نسيك في اللحظة الأخيرة،
 ودون أدنى إحساس بالمسؤولية،
 تركك لهذه الحياة
 وإن الذي مات
 أناس خيبرك،
 ذهبوا لأسباب غامضة،
 كغموض متابع الرياح،
 أو ذهبوا
 ملغوفين برايات نام فيها الرقيق.



ودون أن تستلحي تلاميذها
 ها هي معاودك
 بهجتك الباذخة، بهجتك المغتفة
 التي، يتمهلر ومكر،
 حجابات ثنائيتها لأجلك أنت،
 كالها صاعقة تحشرت
 سنغ سنوات في الأعالي
 ثم ضرتك بقوة
 ضرتك بالطول وبالعرض

وبالوُزْبِ،
وخلقت صنو لجانك
وقد لُجِنَتْهَا كَثِيرًا، دون جدوى،
لأنك، في الأصل،
(ولولا مئة وَجَعٍ تُلَخُّ على رُجَاجِكَ
كشعاعذي إشارةً للرؤى)
أنت... خلقت... للبهجة.



المُجمعون في المنتدى،
المُخردون بِتَلابيحك الحاسِبة،
وصوتك الصَّخِرِي
لا يذُرُ كون أن حديقه ينبضُ فيها الرِّزَّاد
كغيلةٍ بِقَتْلِكَ!

طِفْلٌ غريبٌ يَضَعُكَ لك في القِطَازِ
يَسْتَمِرُّك شجاعاً وجباناً في قلعةٍ جَسَدِكَ
وراعياً في الرُّقَصِ،
كالمشلول!

نُتِشُّ لِلتَّسْبِةِ في القِنَظِ
كانها نُؤْزَلُك باليائِصِيبِ!
يُخْجِلُكَ أن لا يَمُرَّ الحميل للثَّبيذِ،
(لم يَسألْ أَحَدٌ سِوَاكَ:
ماذا يَأْخُذُ النِّبِيلَ مِنَّا

حنائك يبدأ من خطاك،
من حذائك الملهوف
الضحكة تبدأ من عينيك

تقول لقنوتك:
قفي في آخر العصف
قفي في آخر العصف تماماً
واستأذني في الدخول
استأذني شبح حرات في الدخول

لائق لك العشت والعشب
لائق لك الرسوخ،
ولائق لك التحليق بين نورستين
كالك جيتز
بين طيقتي الحزن والمسرة
لا تتحدث عن أحمالك
ولولا معه وجع تلح عليك
انت ... خلقت ... لتبهجة.



في أوج ذلك
ها هو ذيل نوبها الأسنود
يكاد يمس وجهك النائم:

جداً أتمك الطويل،
صامتاً، تمتدحشاً،
يكثر في سموات التبت.



عبر النافذة
تلال من زيتون فقد اطمئنا العتيق
قدسها من زكوا الابتهالات ذاتها
عبر القرون،
ومن أزالوا العجاز
عن الرقائم واللقى
وجلود الماعز،
تلال من كواكب وأكباش،
من صلبان وقيامات،
وأماج نسيت من أين أتت
أماج شكاينها،
تلال مزت عليها الممالك
كما يثر المشط في شعر الجعد،
لم يثقن حمايتها تاج
أو تمينة،
ولم يثقن حمايتها نور
أو ظلام.



عبر النافذة / في الاعالي،

تغدّد هادراً،
مطمئنّ الجناحين،
دقيق التصويب،
يحوم باحثاً عن فيكزته القادمة،
(أهي سيّدة الحِداد الطويل؟)

يبحثُ عنها
تحت القباب المهددة /

يبحثُ عنها
كزب جدار النوم،
حيث صورة الغائب
كوكب، بالانقباض والأشود،
ابتسامته الأخيرة!

يبحثُ عنها
بين الملاءات البيضاء
على حبال القسيل /

يبحثُ عنها في الشارع
ذي الرضوض التي لم تتبدّل بعد /

يريد دتمها الآن،
وغداً، وغداً، وغداً!

■ ■

تِلَالٌ مُتَشَابِهَةٌ كَالْقَوَافِي،
تُحْمِيهَا بَدَلًا مِنْ أَنْ تُحْمِكَ!
يَاتِيكَ مِنْ سُفُوحِهَا الْمُهْدَدَةُ
تُشِيكُ مُحِبِّيَهَا:
أَوَّلَهُمْ،
مُنْسِيٌّ فِي كُتُبِ الْأَقْدَمِينَ
وَأَخِيرُهُمْ،
تَغِيثُ الْآنَ صَامِتًا
أَمَامَ جَفْنَيْهِ الْمُسْتَلْثَمِينَ:



لَمَّاذَا كُلُّمَا شَاهَدْتُ قَبِيلًا مُسْجِي
ظَنَنْتُهُ شَخْصًا يُفَكِّرُ؟

هَآ أَنْتَ مَقْتُولٌ عَلَى الْأَرْضِ
وَالْأَرْضُ بِصِلْحَةٍ جَيِّدَةٍ!

قَلْبُكَ مُتَوَقِّفٌ لِمَا مَا
وَالْتَرَابُ عَوْلُكَ يَنْبِضُ!

دَوْرُكَ الدَّمْعِ
تُكْمِلُ شُغْلَهَا خَارِجَ جَيْسِمِكَ!

كُنْتُمَا اثْنَيْنِ: أَنْتَ وَمَطَالِبُكَ،

خَرَجْتُمَا مَعًا، قَاتِلْتُمَا مَعًا...
وانتِ/وَحْدَكَ/مَتَّ/
■ ■ ■

قَمَرٌ عَجُوزٌ
عُمُرُهُ تِسْعُ سَاعَاتٍ
لَا يَذْهَبُ إِلَى أَفْوَلِهِ
دُونَ أَنْ يَتَرُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ
هَزْلَاتٍ مُتَهَشَّةً:

فِي عَصْرِ مِنَ الْفَيْخَاخِ،
لَا تَزَالُ الْمَصَافِيرُ تُلْقُطُ رِزْقَهَا
وَتُخَالِ الْقَضَاةُ!

فِي عَقْلِ الْأَلْغَامِ
الْكَتَبِيُّ مِنْ الْحَرْبِ الْأَخِيرَةِ،
(وَالْعُرُوبُ الدَائِخُ بِالْحَتَى
تُنْتَسِ، مَرْتَجِفًا، فِي فِرَاشِ الْأَقْنِ)
لَا يَزَالُ الرَّيْفِيُّ
يَعُودُ سَالِمًا إِلَى الْبَيْتِ
بَسِجَةً مَحْرَائِهِ،
وَشَبَقَ قَعْدَتِهِ،
بَيْنَمَا الطَّرِيقُ الَّتِي يَسْلُكُهَا
تُفَكِّرُ فِي الْأَنْفِجَازِ!

في الجسد المتعطّل
لا تزال عضلة الخيال
تضربك كدمات لا تداوى
في فكّ من تشاء!

في قصر الطاعة،
لا تزال هناك عُرّة مغلقة،
يُتَنَفَّسُ فيها أحدُهم
أصليحة المصبيان!

يعلّقون الغالبون إلى أنهم أخذوك
لكئلك، بعد كلّ جولة،
عندما تُزِيلُك الخساراتُ
إلى برّية شريدك،
تنالم،
كما تنالم الشرازة في عَجَرِ الصُّوَان!



ها أنت تضحك كما ضحكت أول مرة
(تُبَلِّ شُكُوتِ الأجراس،
وذبول القراتيل)
من رقعات الطفر،
وانخاب الشّهاني،
عندما انتصرت الإمبراطورية
على سائقي البغال

المستلح بمكان من البلوط!

ها أنت تضحك

عندما أفضح القصر

عن تعدلات قلاية في شرفة

حيث السيف في يد واحد فقط

من المتبارزين!!

* * *

للجيش رفعت، ولو بين الحبال

للروح شهوات، ولو فوق الصليب

الحرب توجل في مكاهتها

إذا قصفوا القراشة بالقديفة!

ثم ثمن في التوجل في مكاهتها

إذا ما لاحظوا أن القراشة لم تمت

وعدت، يكامل ضعفيها، أعلى

وأعلى من تعين العسكر

ومن علوم الحرب!

نصف النصر أن قراشة عزلاء،

إلا من مجروح جناحيها وجمالها،

فخلت مع الموت المؤكد

في سجال!

ستموت،

تعرف أنها ستموت

من أوصاف قاتلها،

ومن أوصافها،

لكنها

ستطيلُ من شباكِ ياسرٍ قديمٍ

وتُرفُ في عُزفِ الحياتِ:

للزَّوجِ شهواتها،

ولو فوقَ الصليبِ

للجِسمِ رقصتُه،

ولو بينَ الحياتِ.

■ ■

الليلُ يغلي، على تطلُّه،

في العُزقة

والليلُ يهدأ، على تطلُّه،

في البال...

سُكُون...

سُكُونٌ مُمَوَّضٌ؛

سُكُونٌ احتمالات،

سُكُونٌ يُشْبِهُ مُرُورَ الغُثَيْنِ

على سُطُورِ رسالةٍ من مجهول...

ثم،

خَشْمُ خَشْمَةٍ على التافذة،

ها هم وصلوا معاً:

شَبَّعَ الْمَلِكُ الْمَعْدُورَ

الذي يَحْضُ الأَمِيرُ الوَسِيمُ
 على اكْتِشافِ يَدَيْهِ
 ويَحْضُ عُثَيْتِيهِ على الانتباه
 وجنودَهُ على الرُّشْدِ
 ورُشْدَتَهُ على الجُنُونِ،
 ومجنونَهُ على الانتقامِ،
 السَّاحِرَاتِ،
 اللواتي يُعَيِّنْنَ مِنْ مَحَارِقِ المَصُورِ،
 مَقْتُولَاتِ بِكَالِيلِ الحَطَبِ
 ومُطْعَمَاتِ بِالمَقْدُوسِ،
 الصَّعَالِكُ المَقْتُولُونَ،
 الذين صَدَدُوا إلى رَوْعَةِ قَضَاءِ كَامِيرِ
 هَارِثِينَ بِالْأَوْتَادِ
 وَوَلَعُوا مُعَاهِدَاتِ إِنْقِصَاءِ
 مع مَوْتِهِمُ الوَاسِعِ
 مُنْشَقِّينَ على قَبَائِرِ شُيُوخِهِمْ
 وَلَمْ يَشْرِكُوا لِيَسَائِلِهِمْ
 إِلَّا مَا تَلَاكَهُ الرُّوَاهُ الرُّحُلُ
 مِنْ لِقَاعَاتِ شَوْقِهِمْ إِلَى أَرْضِهِ
 لَيْسَتْ كَالْأَرْضِ
 وَتَوَقَّعِهِمْ إِلَى سَمَاءِ
 لَيْسَتْ مُنْسَوِجَةً مِنَ الزَّهَرِ/
 هَا هُمْ، وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ،
 يُلْمِصُونَ كَتِفَكَ الْآنَ،
 وَبِاصْوَاتِ مُتَوَزِّهَا اللَّهْفَةِ،

يُحْلِقُونَ أَوَامِرَهُمْ عَلَى حَيْطَانِ لَيْلِكَ،
كَالْقَنَادِيلِ:

- أَيُّهَا الْمُرْزَدُ!

أَيُّهَا الْكُتَّارُ فِي صِفَاتِكَ!

- كُنْ شَرِيرًا،

- مُزْعِجًا،

- غَدَوَانِي الْحَوَاسِ،

كَمَا يَلْبِقُ!

- كُنْ مَآكِرًا،

- مُجَازِفًا،

- مُشْدُودَ السَّاقِينَ،

كَمَا يَنْبَغِي!

- أَحِبْ نَفْسَكَ حَتَّى الْغُرُورِ!

- لَا تُقَسِّرْ نَوَايَاكَ،

- أَوْ حُمُوضَ خَطَاكَ

- لَا تُقَسِّرْ رِضَاكَ

- سَتَحْتَاجُ إِلَى عُقْرَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ

كَي تُرَضِيَ عَابِسًا وَاحِدًا!

- وَحِينَ ثَلَامِ

حُلَّتْ طَلْقَةُ اللَّؤْمِ بِابْتِسَامَةِ قَمُونَةٍ

- ذَكَّرْتُهُمْ بِمَا قَالَهُ الطَّائِفُونَ:

«أَنَا لَا أَكْبِرُ،

أَنَا لَمْ أَكْبُرْ، أَيُّهَا السَّادَةُ،

لَكِنْ، مَاذَا عَنِ غُرُورِ الْمُجُزْءِ ... !!!

- كن موجوداً مُستقراً،
ككهراء، غَيَمَتَيْنِ،
- كن صلياً، مُراوِغاً،
- شيطانِي الحيلة،
- لائِكٌ، إِلَها التَّافِرُ الغريب
احتراماً لروحِكَ،
لأنَّكَ أَنْ تُكْذِبَ عَلَى هذا العالمِ!



مقتطف من قصيدة طويلة
تصدر قريباً



ليل يسعد الأرض

قصائد

زهير أبو تننايب

ما يكفني من العتمة
عندي من العتمة
ما يكفني لأن ابني ليلاً يمتلئ الأرض،
وعندي
كل ما يحتاجه الميت من وقت
لنعتاد على الموت الصحيح.

زهير أبو شبيب، شاعر من الأردن.

لا اهل
لا اعداء لي
لا ضوء
لا رغبة
لا يسنوه يعمرن ضريحي .

لم اعترف بعد بالي
ميت من كثرة ما اجلت ميلادي
ومن كثرة ما شئت لي التي حي
واللهي
ومرفوع إلى صدر السموات الفسيح .
ولم اطلع قط سوى الغربة
لم اصلب
ولم يصلب على الارض
مسيحي

سيان ان كنت من الظل
وان كنت من الطين الفصيح .

عندي من العتمة
ما يكفي لان اهرب من نفسي
إلى ابعد ربح .

قبل انكسار الضوء
لم آت منك .

اثبت من عديم
قبل انكسار الضوء في الخلق.
لم تتركى ارضا.
مضيت؛
وكبكت التراب
على قدي،
ولمحي.

حلفت قلبك بالتراب وبني
لا تتركيني . بت من شامي
لا تدهمي في الليل ابعد من
هذا . انا والليل... لم نتم

رؤينا
لم يمت حوئك
إلا شجر خال من الضوء
سماة سقطت من ليلاها فيك
ولم نعتز عليها

الذين انتظروا اجسادهم في النوم
حتى بردت احلامهم
آباءك الاكثر ليلا واساطير
المشاة
الطلبتون
الخفيفون على الارض
اضاعرك وضاعوا

ومشوا فيك
مشوا خلفك كالريح
مشوا
نحت جناح الليل
حتى اتسع الليل الواسع

ربما أنت الذي كنت تراني
وأنا أدخل أحلامك كاللص
لكي اسرق ضميراً
وأرى ما لا أرى
وأرى من أيّ أمر جئت بالليل
ومن أيّ غدٍ

ربما أنت الذي نمت
وأحلامك
زارت جسدي

مجرد اسم
أنسى السماء ممضأة والأرض ممزق
مرة تأتي إليّ
ومرة تمضي إلى غيري
وانسى اسمي القديم

لدي ما يكفي من الماضي
لأدفن فيه رأسي عند كل إشارة

واجتر ظلي مثل نسر ميت
أتى ذهبت

لدي ما يكفي من الماضي
لأنسى اسمي القديم
متى سمعتُ اسمي لآخر مرة
وسمعتُ صوت البحر فيه؟
متى عثرتُ عليه في الرؤيا
وأصبح صخرتي
ابني عليه كنيسة؟
ومتى نذرتُ له النذور
وحين جعتُ أكلته؟

ولدي ما يكفي من الماضي
لأنسى أن أكون

أنا ابنُ فلأحين
ضاعوا في السماء
كما يضيغ الباحثون عن الخلود
وضيعوا أسماءهم
واعتقوا كالليل
ضاع البرق من أيديهم
وضاعت محبته الأبد الملأ

أنا ابنُ فلأحين

لم اخترَ ابي
لكنتني اخترتُ الحياة على حِفَافِ الموتِ
حيثُ الارضُ تُبرِّمُ
ثم تُبرِّمُ
ثم ترجعُ لي
وحيثُ ارى عدوِّي واضحاً في النوم
وهو ينجيُّ من ليلٍ إلى ليلٍ
ليصلّيني على خَشَبِ اسمِهِ
واراهُ وهو مجرَّدُ اسمٍ
مثلَ أيِّ ضحيّةٍ
واراهُ وهو انا
وانسى.

غايةُ عذراء
كنتُ في الليلِ الذي
سألَ من غابيتها العذراءُ
كنتُ اُزِيحُ الارضَ عن كَمائِها
كي تُراني

فجأةً
في الحلمِ مرّت
كما مرّ نبيٌّ من صلاةٍ
وايقظتُ البراكينَ من النومِ
ايقظتُ
الذي لقعتهُ بالدخانِ.

كنتُ بين الليلِ والليلِ أخفي

جستدئين التبتسا بالمكانِ

جستدئين انشبتكا

الروحُ على الروحِ

واللحمُ على اللحمِ بانِ

أنا هذا الغشيبُ، مرّت سماءُ

ورزمتُ لي وردةً كالدهانِ

أنا ما أبقتهُ لي من مجنونِ

أنا ما لم أثبتِ لي من أمانِ



تعلمات غسان زقطان

تذكّر الجمدة

التعلّاتُ في غيبة الغائبة
وانتظارُ المراكب بين الظهيرة والعصر
حيثُ الشقوق العميقة للضوءِ
والراضياتُ الأسيرات، جدّاتنا، في السهولِ
يمشطن نوم النلال ويهرمن في نومهن المشقق.

لم نبصر البحر

لكنّا نستطيع التاكّد، بعد التماييح،

غسان زقطان، شاعر فلسطيني مقيم في رام الله

من أنه خلف خط التلال
تقول الفتاة التي تكمن الحوش

حين تذكرتُ
... لما دلفنا النارة
اشعلت ناراً وادفأني!

تذكر الوحيدات
الوحيدات
من لم يبعن مواعيدهن
ولا يشترين المواعيد
اشعلن ناراً على التلّ
اذ يكثر التائهون
ويشتت صمّت الهواء

الوحيدات
يمشّين في الظلّ
سرب من السرو يجتاز خطّ التلال
كتنهيدة الناي
أو كالصفير...

الصفير الوحيد الذي قد تراه هنا
غالباً في المساء...

الوحيدات

من لا نحب
ومن لا نواعد
ارسلن من امر للعابرين

واسهين.

تذكر التائبات

والتائبات

اللواتي رجعن الى البهو من غيرة في الجوار
على ومن بعد صبح طويل وعصر، يحممن اكتافهن
ويخلطن اعدارهن القليلة بالماء

فيما تؤدي الحديقة دوراً جديداً أمام المساء
سيأخذها من تدمر عاداتها العشر عارية حيث
تنتظر الاغنية :

يذهبون

مثلما

دائماً،

يذهبون

بعد أن يتركوا الخبز

فوق الوسادة

والشمع

في

الامنية.

عندما تذهبين لقطف السفرجل

1

يا ابنتي

عندما تذهبين لقطف السفرجل

لا توقظيني

أنا ميتٌ منذ وقت طويل، كما تعرفين،

أنا على حجرٍ باردٍ مثل صيفٍ قديم

تقلّبي الشمسُ ذات اليمين وذات الشمالِ

وتنقُرُ رأسي المصافيِرُ

مرّني الضوء للظِلِّ

والظِلُّ للضوءِ

... كانت لغاتُ العبيدِ ولهجاتهم مملأً الليلَ

لما عبرتُ،

وكانت تماويدهم تمسكُ الذكريات

وتسحبها خلفهم مثل نملٍ كثيف

وكانت دُفوفُ المفتّين تسبيحُ كالطُوفِ حولَ الشعاع

وترفعني في هوامٍ سعيد

وكنْتُ على حافةِ الكرم، كرم السفرجل،
أقرأ روميتاً، ربما، للامير الامير :

فليتك تصفو.....

2

يا ابنتي
عندما تذهبن لقطفِ السفرجل
لا توقظي حارسَ الكرم من نومه

انه ميتٌ منذ وقتٍ طويل، كما تعرفين،
مخلّته من عظامِ البنات
وفرشته من أساور زوجاته الميتات
وفي حُرجهِ رأس زوجته الهاربة

حاولي أن تغني قليلاً أمام الشجيرات
حتى نحبك .

كم كان عذبا غناؤك في ليلةِ المولدِ النبوي
ونحن على طَرَفٍ من مكان

فقيران نسعى

وكان الغناء يترزنا في تعاريج طائر من القش!

كان الدراويش يلقون أجسادهم في الدوائر

والماء يخرج من جبة الصخر

والصخر في اثر الصيف

والصيف من صنعة الشمس

والشمس في اهلها

هكذا تؤخذ النفس!

3

يا ابنتي

عندما تذهبين لقطف السفرجل

لا توقظي حارس الكرم

او ابنه

ابنه ميت منذ وقت طويل

ثلاث رصاصات

في قلبه يختلسن

ثلاثة أشباح

كانوا على بابك عند منتصف الليل.

ثلاث نساء
تنهتان في صوته قبل أن يفتح الباب.

ما يشبه الحب
أو ما يليه
وما يترك الأمر مبتدلاً كالوشاية.

لا توقظيه
إذن
أنه ميتٌ عند منعطفٍ في الحكاية
رائحة النهر فيه

تمتلي قليلاً أمام الشجيرات
كي يستطيع التذكر.

كم كان عذباً غناء المغاربة السابحين على صفحة النهر قبل الزوال،
النساء اللواتي اتكأن على الجسر بين سلال الخضار واضرحة الأولياء
وأطفالهن...

الرباط البعيدة في أهلها حيث تختبئ الأندلس
والرباط التي كلما قلتُ أذهب من بهوها أفردتُ للتوايا بساطاً
ومتت بساطاً!

أفاطم
لو ملّت لي
أو لكرتني
تلك أغنية النهر،
لا متّر قلبي
وأسعدتني
واهتدي
في التلال الغزال

ولكنّ فاطمة لم تكن غير أغني
أطلقتها القواربُ
والنسوة الميتات على الجسر
في أمسيات الرباط



على بابها دق رحالة في الصباح
ولم تستفق

وعند الظهيرة أيقظها طائر
من كتاب ولم تستفق

وفي الليل جاءت من الكرم بنت
يشعر قصير
وكمّين متسخين

وحمل سفرجل .

نادت علي أهلها الميتين

لسبع ليال

وسبعة أيام

كاملة في الحساب

الفتاة التي دقت الباب في الليل

كانت هناك

بشعر قصير

وكمين متسخين

وصوت غراب .

قالت لها امرأة في الثلاثين

أيقظها الصوت من موتها :

ولدتك في الحلم، لست

حقيقية كي نحبك مثل البنات

أذهبي كي نحبك عشرين عاما

وكي نستطيع انتظارك،

لا تكبري في الضباب

لئلا نموت

دلت علي الهداهد

هنا جالس حيثُ تعرفني الطيرُ

دلت علي الهداهدُ

واشتت نقر الدفوف

وقد ثقل الفجر

والسائلون .

لم ترجع ابنتنا من قطاف السفرجل

دلت عليها الذئاب

وكانت هناك الإشارات

متروكة في الدروب

يتأهبها الجاهلون

الإشارات، من أرسلتني إلى هذه البئر.

سلمي آيتي

والتعلات منزلي

والنساء اللواتي تتبعنني في الضمى

والظهيرة والمصر

ايقظن أزواجهن وعدن على مركب الليل

مثل الامانات .

على هدي عتمتها اصعد البئر

كي يشرب الضوء وجهي

وكي المس الطير في نومها

كي تقول غداً:

لم نكد نتمتع الحلم

حتى أفقنا!

وكي استطيع التذكر

إننا مشينا وراء على عتمة البحر

حتى وصلنا معاً

وافترقنا

ولما شربنا من الماء سبغاً

ولما ارتربنا وكمدنا

شرقنا .

لا مهنة لي غير هذا

... التعلّات في غيبة الغائبة

كل ما يمكن الخوض فيه وتأويله للمساء الذي سوف ابلغه في المساء

الصعود من البحر مشياً

خفّة الليل

صوت الجبال

انتظار الكروم

اختيار المدو

وتأليف منعطف في الحكاية

حتى نطيل المشية

أو نستطيع الترقّع

أو لجعل الأمر محتملاً

كسر أمنية

كي نرى الخيل تطوي الجبال الموشاة بالبحر طلياً

الرضى والتدمر

رؤيا كُتير

ذئبُ الأحير

مرثاة مالِك

لما تتبَّعه للثغور الغضا ميئاً

ثم ناداه حتياً

البنفسج في الوصف

لما نرى الجنازات في الشعر

أو ناخذ امرأة، دون إذن، من المصعد الدائري

إلى غرفة في المجاز.

وكسّم

ني ما عرفتُ

وما سوف أعرفُ

من مكمني أبصر الخائفين وأحسدّهم

أبصر النادمين وأحسدّ بالأمّر

لا مهنة لي غير هذا

ولا سِرّ...

... تأملهم في دخانِ اللغافات والارتباب
وتدويرِ اسمائهم في النداء

التجول خلف الرواية، بعد الخطاب
مع العائدين مشاة من المتن

لا البيتُ يأخذهم للمساءِ الغريبِ
ولا الدربُ تحملهم للضواحي الاليفةِ

لا مهنة لي غير هذا
... وتجميع أكمامهم من زوايا المقاعد

كالبرد أجمعهم.

الطائر يتبعني

في العام الفين أو قبله، ربما،
كان يسكنني مطلع يشبه الصيف في غرفِ العازبين
أدوره في الكلام...

كمشي سعيدٍ على حافةٍ من رخامٍ، وتنظيفها من غبارٍ
خفيفٍ، ستتركة في الحوافِ البغالُ التي صعدتْ
مثل عاداتها الجرف...

«... في منزلي
تلد النساء خواتماً
ويخين عن دنيا وراء الباب
جئت من أحب هنا
ورحل من رأى...»

مطلع مثل باقي المطالع
لم انتشله من التتمعات.

كطير من القش

يتبعني...
لا مركب للمحب سوى شوقه
لا دليل له
غيره
أو كتاب

والتعلاّت
لو تعرفين
ستفتح بها
وتغلق باب.

... وتتركني مثل شانٍ قديم على رفّ أيامها
جبرتي صور الغائبين
وتحدّيني أعينهم في الغبار

وتفتيشُ أعمارهم حين يُوتى بها كي تمرَّ على عجلٍ
ثم تُرمى .

على الرفِّ قربيّ موتى بهومون
أحياء لا يعرفون الجواب
ولا يهصرون الطريقَ إلى إثمها

لن يدلَّ على نومها في فراشي سوى حلمها
والعناقُ الذي يترك القلبَ أعمى !

لا مشقة في السيرِ في طرقٍ مهلتها الذئاب .

لها ما أحببت
ولي ما أردت
وللناس ما اختلسوا من رؤى أسعدتها
وللعابرين نوايا المكائ .

أقامت هنا ما أقام الغرام
خفيهاً على قلبها أو يكادُ
مشت في المنام
والقت زهوراً على الطائفين

ولم تنتبه للسماء التي انفتحت فوقها
« وردةٌ كالدهان »

ونامت قليلاً
ولما رأت شارةً صدقتها!

نزل صغير في جنوا
الإشارة في ردهة الدير
مقهى اليف يطل على شارعين غربيين في « جنوا »
يشبه الامرانا مررنا هنا!

واضحاً كان هذا التشوش لما دلفنا إلى مدخل النزل
في نبرة المالك المشترة من الموت
أو يده وهي تعطي المفاتيح
أو خشة السلسلة

في الذهاب إلى حافة الصوت حتى التقاط تنفسنا بين فوضى الموالد، ماكينة القهوة، العابرين،
الجدال على البار، فوضى البطالة في صفحة الاقتصاد، الوجوم واطراقة الجمالسين أمام الزجاج، المشادة
في المدخل الجماني...
الثناء الذي اشتد في الليل، منتصف الليل، كي يجعل الامر اعق من مشهد العاشقين أمام
الفراش المرتب في نزل جاء من زمن آخر كي يكونا هنا ليلة أو اقل...!

تذكر الحبر
.. الاميرة في نومها والمساء على حافة النافذة

خزانتها بعد قوسين في البهو مفتوحة

والخزانة سوداء

أشباحها في الخزانة هادئة وهي تاكل ذكرى التحرير

ملابسها الداخلية بيضاء

شرشفها ابيض

والتعاويل منسية في المرايا

وكانت شعرون المنازل، أبيضاء هناك

الثياب التي استخدمتها اليمامات في الصيف

رائحة الزيت

فوضى يديها التي تركت أثراً في القماش الخفيف على منبت النهد

شيء من الارتياح

على غسل الصوت

لا مشقة في البعد

لكنه سبب كامل لانتظار الهجرة في البيت!

ليس لي سبب

ليس لي سبب كي اظل هنا

ليس لي سبب كي أرتي الجنازة كالأخرين

ليس لي سبب لانتظار على درج الدار.

بناؤو كفافي

لي نغمة في اللحن

لم اعثر بها

لكنها ذهبي الوحيد

وحيلتي

فيها احتمال الازجال

ورفقة الافعال

والسرر المتين

كان بنائين سريرتين ايقظهم كفافي

يعبرون من التلال

ويبدأون الحفر عند مخدتي!

تذكر البكاء

البكاء الذي في الرضى والبكاء الذي في البكاء،

البكاء الذي ليس لي والبكاء الذي في الاغاني

البكاء الذي يرتدي وهو يأتي

قلادتها، لمة الصدر والكتفين، القميص المشجر والخفت والمنزر

الابيض المنزلي

البكاء الذي لم يزل مقعياً قرب نومي كذئب « الفرزدق »

« فصرت أقد الزاد بيني وبينه

على ضوء نار تارة ودخان »

تذكر النوم

على طرف النوم تمثالها

حيلتي بعدها أن تُرى الأرض

أو أن تُعاد إلى أهلها

إن افكر كالنسر

، هل قلت هذا لعشرين عاماً خلت أو يزيد

وها أنني لم أزل في المكان

وما زلت اعدوا

طليقاً ومرتهناً بالحضور

كما شاء أن يحبس الذئب في عدوه، البحتري

« عوى ثم ألقى فارتجرت لهجته

فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد »

على ضوء ذئبين

أغفو

فتعوي الحديقة

خلف الزجاج

وبعوي السياج

وتعوي الطيور



طفل البصرة

برنار مانسييه

١

حفنة رمل

حفنة ملح

أوزيد

ندروها على صغير الغزالة

غصن مطر

غصن ندى
ومن الدمع غصن
على صغير الغزالة الشاحب



ريشة، اثنتان
ورقة تتطاير في الهواء
وبعض ثلج يحط
على جثة الغزال الصغير
المنطفيئ



حبّات تمر
سنبلّة شعير
سبحة نحيب
على طفل الغزالة المهشم



من صفصافة عذاب
رعي حمام مرتعش
تجمد الغار
على صغير الغزالة الخافي

■ ■ ■

قطرة قمر

هبة ضباب

عطر صياحي

على صغير الغزالة في ليله الطويل

■ ■ ■

سلة جمر

قليل من الزعرور

عود خلنج صغير

على طفل البصرة

٢

جنيات البحر تطلق الاصاصير

التلاحقة

وراء فريستها

وراء الطفل العاري

■ ■ ■

من كل صوب

ينطلق ضحك الحبارى

كذلك يضحك القباطنة

ابتهاجاً بإصابتهم الهدف
ويقهقه الرؤساء ساخرين
من الطفل الخالم



طفل مفرط النحول
يرتعد برداً من العملة المزيفة
بأكاذيب متوهجة
يرتعد من القوسفور الذي
قذفته في وجهه العاصفة
وهو الطفل الذي لم يكن يخيفه شيء



السماء تمطر عقائد من غرغرينا
سرعان ما تزهر ثآليل
ربيع مرعب على وجه الطفل النقي



مناقب دقيقة
أسنان من معدن صلب
منحوتة من حديد جائع
إلى التهام طفل عار

■ ■ ■

المحركات السوداء التي تسعل
مولدات عضلات كهربائية
تجرب العشق الآلي
على طفل البراءة

٣

دهلييات مجرمة ترتعش
برتقال أحمر يغني
إيمان نبوي يتغذى
من وجه طفل

■ ■ ■

المدن العالية حُرقت
هناك بعيداً، حُرقت
أصبحت حقول أقحوان
تعجن فيه الأقماع
والطفل هو المعجن

■ ■ ■

شموس تزمز على ناطحات السحاب

إنذاراً صفيح لا يصدأ

ناطحات السحاب تموء

لحناً على الاكورديون

جسد الطفل ناي اللحن

تنزف الليالي نيونها الأزرق

ومن الأحماض المكبرة تسيل جبال

وهي تتبادل طلقات الرصاص

تقول إن الطفل فتح جراحه

XXX

تقيق المدن النائية

تعودها ملوك القطعان إلى المسلخ

بضحك كبير الملوك

من عشبة تحت قدميه

فخ واحد للجميع

يتبادلون فيه الشتائم واللكمات

والنفي

اللعنة تنهض كمجر

أيقظته شفة زرقاء



هاهم يصلون لأجل من حلت عليهم

لعنة السماء

الرمال الشاسعة والأنهار الكبيرة

لتلق عليهم حفنة صحراء

وعليك أيضاً أيها الطفل

.....

أنت، يا ورقة الورد

ترجم القصيدة عن الفرنسية

فايز ملص



طه حسين وأنسنة التاريخ المقدس

فيصل دراج

«أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه: أسوسكم بتوفيقه
وتسديده، وأنا خازنه على فيعه، أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته وأعطيه
بإذنه. قد جعلني الله قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فينكم
وأرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني قفلني»

أبو جعفر المنصور

في مستهل كتابه عن «الفتنة» وصف د. هشام جعيط طه حسين بأنه أديب لا مؤرخ. والوصف صحيح وغير صحيح، ذلك أن حسين كان أديباً ومؤرخاً، وكان داعياً للتحرر الإنساني، قبل أن يكون الأمرين معاً، وما كتابه «في الأدب الجاهلي» إلا حلقة في سلسلة كتابية، اختلفت إلى مواضيع كثيرة، وظل التحرر موضوعها الأساسي. ولعل هذا التحرر، الذي يعبر عنه في الأدب وفي أجناس مغايرة، هو الذي أملى على «إسلامياته» كتابة أخرى، لا تضيف كتاباً تراثياً إلى كتب تراثية لا

تنتهي، بل تُقصد إلى «إخراج الرجعيين من جحورهم»، كما قال قبل وفاته بقليل . ومع أن في القول المقتضب بُعداً سياسياً مباشراً، فقد كان في «اسلامياته» بُعد آخر، غايته تحرير التاريخ الإسلامي من أساطيره، وأنسنة مواضعه، التي أضافت إليها الثقافة الموروثة قداسة مصنوعة .

١- المؤرخ في مواجهة القديم:

في مستهل كتابه «الشيخان» - ١٩٦٠ - نقد طه حسين طرق القدماء في كتابة مسيرة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، القائمة على روايات ينقصها التدقيق والاتساق والنزاهة، وواجه القدماء بمنهج حديث أخذ به في كتابه الشهير: «في الأدب الجاهلي» - ١٩٢٧ - الذي يبدأ من الشك، بل من «أعظم الشك»، فاصلاً بين البحث العقلاني وعادات النقل والاستظهار، وبين التصور الديني، الذي يقدس البشر القريبين من زمن النبوة، والتصور الدنيوي الذي يفسر المقدس وينزع عن البشر قداستهم المفترضة . فقد رأى التصور الديني في زمن الخلفاء الراشدين زمناً مباركاً متجانساً، يساوي بين سيرهم المتباينة ويحولها جميعاً إلى سيرة واحدة . استنكر حسين، من الصفحة الثانية، التقديس وما يغضي إليه، لأن في التقديس ما يعطل العقل ويستقدم البدايات المستبدة . فالخليفة الأول، كما الثاني، له سيرة خاصة به، فيها ما يرضي العقل وما لا يرضيه ولـ «الشيخين» معاً ظروف حددت مصيريهما، وأملت سيريتهما بصيغ مختلفة .

يفصل طه حسين بين المؤرخ الحديث، الذي يحذف ويستبقي، والواعظ الديني الذي يكرر حقيقة تسبقه ويرى ذاته جزءاً من هذه الحقيقة . يقود الفصل إلى التمييز بين علم التاريخ، الذي يتعامل مع الظروف والوقائع والمتغيرات، والقصص أو أشباه القصص، التي لا تروي ما كان بل ما رغب به الرواة أن يكون . فعلى خلاف المؤرخ، الذي يشتق الأشخاص من الوقائع، يربط التشيع الديني الوقائع المختلفة بالشخصيات المقدسة . نقد حسين تاريخاً إسلامياً قوامه أهواء دينية، تواجه مقدساً بآخر، وتشيعاً سياسياً يصوغ الشخصيات بمعايير دينية . ولأن التاريخ المتشيع هو رواته المتشيعون، يكون نقض الرواة مقدمة للتأريخ الموضوعي . فهؤلاء الرواة يسردون الوقائع المنقضية بيقين الذي زانها، يسرفون في وصف الدقائق ويمعنون في التفاصيل، مطمئنين إلى روايات شفوية حوزها أكثر من لسان واختلقها أكثر من ذاكرة . ولعل هذه الروايات التي تجري مطمئنة، وتقدس ما تشاء، هي التي تجعل التاريخ المتوارث قصصاً، أملتها الأهواء وفرضتها المصالح .

يشكك حسين بالرواية الشفهية المؤسسة على تشييع ديني، قائلاً بأمور أربعة: لم يعش القدماء الأحداث التي يروونها بل اعتمدوا، بلا تدقيق، روايات سابقة على زمنهم. وهم لم ينقلوا ما وقع، بل ما مالت إليه نفوسهم، متقلبين بين المديح والهجاء والتبريك والأبلسة، منتهين إلى تاريخ زعبي، بعيد عن النزاهة والحرية العقلية. وإضافة إلى هذا وذاك، فإن التاريخ المتداول هو تاريخ المنتصرين، الذين أملوا على الرواة تاريخاً أحادي الصوت لا يلتفت إلى أصوات المهزومين، عرباً أكانوا أم غير عرب، مسلمين أكانوا أم غير مسلمين. وكثيراً ما كان الانتصار يدفع المهزم، كما المنتصر، إلى إعادة تأليف ماضيه، بما يؤكد الانتصار أو يبرر الهزيمة. دفع هذا التاريخ الانتصاري، الذي تقول به القوة لا الحقيقة، طه حسين في كتابه «الوعد الحق» إلى اتهام «التاريخ الاستقرائي» اتهاماً يتأخم التنديد، يحتمي بالطبقات المسيطرة مبتدئاً بالقادة والأشراف و«سادة قریش»، وناظراً إلى الدهماء باحتقار كبير (١). يشكو حسين، وهنا العنصر الرابع، من كثرة الحكايات ونقص النصوص، موحياً بمفارقة طريفة، فالمسلمون الذين تحدثوا كثيراً عن التاريخ لم يخلفوا من الكتابة التاريخية إلا قليل القليل. ذلك أن أيديولوجيا التعصب لا تحتاج إلى المؤرخ، الذي يشرح الظواهر بسببية دينية، بقدر ما تحتاج إلى الفقيه، الذي يؤول الديني بغايات إلهية.

رفض طه حسين، مستنداً إلى عقله وإلى مراجع تراثية، ما جاء به القدماء، منتصراً لـ «تاريخ عقلاني» يقرأ التاريخ في ممكن التاريخ ويخلص، وهو ينقد الرواة، إلى تاريخ لا يقول به الرواة. يتكئ الرفض، الذي يفصل بين العلم والحكمة، على أكثر من سبب: «فالقديما يختلفون ويمعنون في الاختلاف في كل شيء»، يكذبون ويسرفون في الكذب بعد الاختلاف، ويتجوج الاختلاف والكذب باختلاق حكايات لا وجود لها. فهم يختلفون في أحاديث الرسول عن أبي بكر وأحاديثه عن علي، ويختلفون في ما نسب إلى عائشة وفي التاريخ الذي أسلم فيه أبو بكر، ويختلفون في سن علي وموقفه من «رسالة السقيفة» ومن حرب صفين، ويختلفون في علاقة عمر مع علي وفي موقف عمر من خالد بن الوليد، ويختلفون في تقويم عبد الله بن العباس «حبر الامة وترجمان القرآن»... بل إن هذا الاختلاف يغدو لا معقولاً حتى في أمور بسيطة مثل العمر الذي توفي فيه عثمان بن عفان، فهو قتل وهو ابن خمس وسبعين سنة، لدى البعض، ويرى بعض آخر أنه قتل في الثانية أو الثالثة والثمانين من عمره، ويرى طرف ثالث أنه قتل وهو ابن تسعين أو ثمان وثمانين أو ست وثمانين، وقال آخرون إنه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة «يريدون بذلك أن يلحقوه بالنبي وخليفته، فقد اختارهم

الله لجواره في هذه السن» .
دراج: أسنة التاريخ المقدس

يأتي الاختلاف من عقلية لا تعرف التدقيق، ومن هوى ديني لا يقتصد في المحو والاختلاق. وهذا الاختلاف، الذي ينوس بين الديني والسياسي المؤرل دينياً، جعل روايات القدماء الكاذبة متزامنة ومتعاقبة، متزامنة هي في علاقتها بالحديث المباشر الذي أوجدها، ومتعاقبة في الصراعات المتجددة التي تعيد إنتاجها مختلفة في أزمنة مختلفة. أدى هذا إلى كتابة تاريخ «صدر الإسلام» أكثر من مرة، يكتبه الذين لم يعيشوه كأنما عايشوه، وتعاد كتابته كي يحسن إلى طرف ويسيء إلى آخر، ويكتب من جديد توسلاً لشرف مفقود، فجميع المتصرين تنتهي أصولهم إلى المقدس والبدائيات المباركة. قاد كل هذا إلى روايات مختلطة وشديدة الاختلاط، يمتزج فيها التشيع الديني بالعصبية القبلية، والإيمان الرقيق والعقلية الشفهية بالتقرب من السلطة، والدفاع عن الإسلام بالعصبية القومية، ومناوأة قريش وقبول الإسلام دون قبول العرب... حمل هذا طه حسين على اتهام القدماء بالتكلف والتزيد والغلو والإسراف، بمن فيهم مؤرخ كبير مثل «الطبري»، وحمله على البحث عن طريق خاص به: «من أجل هذا كله، أعرض عن تفصيل هذه الأحداث كما رواها القدماء وأخذها عنهم المحدثون من غير بحث ولا تحقيق... ص: ١٠» (٢).

رفض حسين في القدماء اختلافهم الشديد الذي يعطل القراءة، وتقديسهم للأشخاص الذي يبطل النقد والتقويم، وإسرافهم في الكذب الذي يلني النصوص. كان قبل أن يكتب: «الشيخان» بخمسة عشر عاماً قد توقف أمام نهج المؤرخين المسلمين في كتابة التاريخ في الجزء الأول من كتابه «الفتنة الكبرى»، الذي وضع له مقدمة طويلة دعاها: «خطبة الكتاب». كان في الخطبة استعفاف للملاحظات المنهجية التي أخذ بها في كتابه: «في الأدب الجاهلي»، قاصداً هذه المرة قراءة صعود الإسلام وأفوله، بعد أن قرأ شعراً جاهلياً، لم يكن جاهلياً تماماً. لكن المؤرخ العنيد، الذي أراد نظراً علمياً في موروث يغلب عليه الاختلاق، اصطدم وهو ينظر إلى الإسلام بما اصطدم به وهو يقرأ الشعر الجاهلي، أي أنه اصطدم بالكذب في الحقلين المدروسين معاً. جاء في كتابه: «في الأدب الجاهلي»: «إن كثرة الذين يكتبون في تاريخ الأدب العربي يكذبون... يكذبون حين يصفون لك الحياة في بغداد... ويكذبون لك هذه الأحكام التي يتناولون بها الكتاب والشعراء لأنهم لم يقرأوا الكتاب ولا الشعراء...» (٣). وكتب في الفتنة الكبرى: «ويزيد بعض الرواة في هذه القصة ما يقطع بكذبها... والواقع أنه في أمر الخلافة أنها أطلقت السنة الرواة المتعصبين للأحزاب السياسية بكذب كبير...»

وإذا كان الكذب قد كثر على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأي غرابة في أن يكثر على المؤمنين من أصحابه... ».

يستعمل حسين تعبیر «الكذب» لا تعبیر «الخطأ»، ذلك أن الثاني جزء من العملية العلمية، فلا بحث بلا أخطاء تنتج بدورها أخطاء مشمرة قادمة، على خلاف الكذب الذي يستبدل بأخلاقية المعرفة منافع غير أخلاقية. يكون على الباحث، والحالة هذه، أن يتجرد من أهوائه وأن يتحرر من سطوة التراث الكاذب، التي تعطف الكذب على المقدس، وتحصن الكذب المقدس بسلطة الإجماع. تقيم هذه السلطة العلم على الإجماع، وتجعل من الإجماع مرجعاً علمياً، بما يجعل من الخروج على الكذب كفراً ومروقاً. وواقع الأمر أن سلطة الإجماع لا تعبر عن سلطة العلم بل عن علم السلطة، الذي يضمن الركود بوحدة الآراء المتماثلة وبالحلط بين التجديد المعرفي والمروق.

أراد حسين أن يؤنس التراث فظاهر كذبه، وشدد على الاختلاف فيه، وبئس أن الإجماع غير معصوم عن الكذب، بل يقتات عليه. كان في هذا كله يدافع عن الذاتية المفككة وعن فضيلة التجزيء، التي ترفض الكل المتجانس في الحاضر والماضي. وبسبب فضيلة التجزيء، التي ترى إلى المعرفة لا إلى المقدس، لم يضع كتاباً عن «الخلفاء الراشدين»، بل وضع كتاباً عن «عثمان»، أتبعه بآخر عن «علي وبنوه» بعد ست سنوات - ١٩٥٣ - وأصلاً، بعد سبع سنوات إلى كتابه عن أبي بكر وعمر، الذي دعاه «الشيخان». أنسنَ الباحث، الذي أكثر من الوضوح والمكر والمناورة، زمن الخلفاء الراشدين معتمداً مفهوم: «التحقيب التاريخي»، الذي يفصل بين كل خليفة وآخر، ويعطي كلاً من الخلفاء إشكالاً خاصاً به، ملغياً التجانس المزعوم وإطلاقية الإجماع، وطارداً الكلّي بالنسبي، الذي لا تستوي المحاكمة التاريخية إلا به. كان في فصله بين الكذب والخطأ يرد الاعتبار إلى الكتابة التاريخية، موقفاً تاريخية النص الموروث ومبرهناتاً على معنى التاريخ بتاريخية القراءة، لأن قراءة راهنة تقبل بالقديم كما جاء، هي نفي للتاريخ وللوعي التاريخي، فالتاريخ لا يستيقظ، كما يقول عبد الله العروي، إلا بتدمير الأساطير والبدهات والأحكام المسبقة، وتدمير الوحدة الزمنية المزعومة، التي تجانس الحاضر بالماضي، وتتمتع الفصل بين الماضي والمستقبل والأصل والنهاية (٤).

اتكاء على مفهوم التحقيب التاريخي، الذي يمايز عدل عمر عن يحيى عثمان، دحض حسين أسطورة «الجوهر الراشدي»، التي تحيل على إسلام جوهرائي وعلى خلفاء راشدين لا فواصل بينهم. بيد أنه لم يكن، بحاجة إلى التحقيب كي يقول ما أراد قوله، ذلك أنه أنسن الخلفاء وغيرهم وهو

ياخذ بثبات منهجي بمبدأ العلة والمعلول، الذي تعلمه مبكراً من «ابن خلدون»، حين وضع عنه أطروحة جامعية في فرنسا. فقد تعامل المؤرخ المغربي مع هذا المبدأ المتداول بشكل جديد، حين طبقه على تاريخ الدول والمجتمعات، وأنشأ به علماً جديداً، هو: علم التاريخ، الذي يشرح الظواهر الإنسانية كلها بعلم اجتماعية، سابقاً الإيطالي «فيكو»، الذي رأى أن البشر قادرون على تفسير التاريخ الذي يصنعونه. أخذ حسين، الذي تعرف على ابن خلدون قبل أن يعرف ديكرت، بالمنهج الديوي، بلغة إدوارد سعيد، وقرأ به أحوال «الخلفاء الراشدين»، الذين خلقتهم علل اجتماعية وأسهموا، أحياناً قليلة، في توليد علل اجتماعية. لن يكون عمر، والحالة هذه، ما سيكون عثمان، ولن تكون ظروف عدل الأول مطابقة لظروف تداعي من تلاه، ولن يصل علي، رغم عدله، إلى ما وصل إليه عمر.

ترك حسين سؤال انصياع عثمان إلى الشريعة أو خروجه عنها إلى الفقهاء، وعين ذاته مؤرخاً، يشرح التقوى بعلم اجتماعية ويفسر بها أسباب التخلف منها، ويرى الظواهر الاجتماعية في قبول المسلمين بالخليفة الثالث وتخليهم عنه. كان في تفسيره، الذي يضع القديم أمام الجديد، يقول بأولوية الاجتماعي على الديني، فقد خلقت الظروف صعود الإسلام وانطفاءه، وأولوية المتغير على الثابت، فالصحابة الذين تمأهوا بالزهد في زمن الكفاف سيبتسمون للمال حين سيبتسم المال لهم. كان، في الحالين، يحدد تاريخية الظاهرة ويتوقف أمام خصوصيتها، موزعاً الإسلام، بلغة المفرد، إلى إسلام بصيغة الجمع، مبرهن أن الإسلام الواحد المتجانس أسطورة، أو رغبة ورعة لا سبيل إلى تحقيقها. فإذا كانت الظروف تصنع البشر، كان على المسلمين، والخلفاء والصحابة منهم، أن يعاونوا «التأثر»، الذي يقود الإنسان إلى درب لم يرغب به، وأن يعيشوا «التورط»، الذي يحرف خليفة لم يسع إلى الانحراف ويقوده، دون قصد منه، إلى طرق الملوك المستبدين والطفة والاستقرائية المستاثرة. ومع أن حسين يتحدث غير مرة، عن حرية الإنسان وقدرته على الاختيار، فإن حديثه كله مخترق، وعلى مقربة من ابن خلدون، بالجبر الاجتماعي، أو بـ«الجبرية التاريخية»، التي تهتمش الأفراد، مهما كانت نواياهم وعقائدهم واقتراهم من الحق أو نفورهم منه، كان يكتب في «الفتنة الكبرى»: «هذه المشكلات الكثيرة التي ثارت من نفسها، أو أثيرت أيام عثمان، لا لأن عثمان كان هو الخليفة، بل لأن الوقت كان قد آن ليثور بعض هذه المشكلات من تلقاء نفسه، وليثير الناس بعضها الآخر.. ص: ٢٠٤»، أو: «فما ينبغي أن يلام هذا أو ذاك (عمر وعثمان)، وإنما ينبغي أن تلام فيها الظروف، إن كان من الممكن أو من المعقول أن تلام الظروف.. ص: ٢٤٤». يثير الناس القضايا التي أثارها

الظروف، أو تأثير الظروف الناس ليثيروا القضايا التي تثيرها الظروف، أي أن الظروف تثير الناس والقضايا معاً. إن منهج الجبر التاريخي، الذي يضع البشر خارج إرادتهم، هو الذي يجعل حكم طه حسين على الخليفة عثمان قلقاً، فهو يعذره ويتسامح معه ويثني عليه، وهو يمجته ويزجره ويشند عليه في آن. يتأتى القلق من الفرق بين المنهج النظري، الذي لا علاقة له بمزاج حسين، ووعي حسين الأخلاقي المسكون بمبدأ المساواة والعدل الاجتماعي. يلوم المؤرخ الظروف ولا يلوم عثمان، ويلوم المثقف التنويري عثمان، لأنه آثر ذاته وتعالى فوق غيره. وسواء لام المؤرخ الخليفة أم لم يلمه، فإن في منهجه ما لا يعترف بوجوده، قديماً كان مات ظلماً، أو وجهاً من وجوه قریش يضع المصلحة فوق رؤوس الآلهة، كما يقول حسين وهو يتعرض إلى قریش في أكثر من مكان. وواقع الأمر أن حسين، الذي ينفصل فيه الباحث المنهجي عن الإنسان المتمرد انفصلاً مريباً، لا يتحمس كثيراً إلى محاسبة الإنسان وتقويمه، طالما أن في الإنسان ما يحرره ويقيده في آن، كان نقراً: «ليس من شك في أن هؤلاء الممثلين الذين تكل الكثرة إليهم أمور الحكم، ناس من الناس، فيهم القوة وفيهم الضعف، وفيهم الشدة وفيهم اللين، وفيهم القناعة وفيهم الطمع.... فهو معرضون لأن يحدوا عن القصد، وينحرفوا عن الطريق... ص: ٢٠٢». والسؤال هو: إذا كان الخلفاء ناساً من الناس، فلماذا اختارهم الناس خلفاء عنهم، وإذا كان الخلفاء ناساً من الناس، فكيف يستطيع المؤرخ أن يقوم أعمالهم؟ ينقسم خطاب طه حسين مرة أخرى إلى خطاب منهجي، يرى الوقائع ولا يلتفت إلى البشر، وإلى خطاب أخلاقي متمرد، يبدأ من الإنسان ولا يكاد يرى سواه. وهو، في الحالين متسامح وضنين بالتسامح، يُعلي من شأن عمر العادل إعلاءً لا مزيد عليه، وينفر من عثمان نفوراً شديداً، ويصرح، في الحالات كلها، بئاس من الأديان والعقائد والنظريات، لأن في طبائع البشر وهنا يستعصي على الإصلاح.

يمحو طه حسين تقديس الخلفاء الراشدين بقصور الجبر الاجتماعي، ومبدأ العلة والمعلول، ومفهوم التحقيب التاريخي، قبل أن يمحو مرة أخرى بمنهج التاريخ المقارن، الذي يقول بالمتباين والمتشابه في الحضارات والأديان ويقول، أولاً، بوحدة قضايا التاريخ الإنساني، بعيداً عن بلاغة الخصوصية المطلقة الفارغة. والعنصر الجديد، الذي لا يفصل بين الإسلام وغيره من الديانات، ولا بين العرب وغيرهم من الأمم، قال به في كتابه: «في الأدب الجاهلي»، حيث تحدث عن: «القوانين العامة التي تسيطر على حياة الأفراد والجماعات»، مشيراً إلى هؤلاء القدماء الذين أقنعهم جهلهم بأن: «الامة العربية امة فذة لم تعرف أحداً ولم يعرفها أحد، لم تشبه أحداً ولم يشبهها أحد، لم تؤثر في

أحد ولم يؤثر فيها أحد قبل قيام الحضارة العربية... (٥). وكما رفع حسين الشاب عن الأمة العربية الفذة» خصوصيتها المفترضة يرفع مرة أخرى، وقد قارب الشيخوخة، عن صدر الإسلام خصوصية مطلقة مفترضة أيضاً، فيكتب في «الفتنة الكبرى»: «واكاد أتصور تشابهاً بعيداً أو قريباً من نظام الحكم الروماني أيام الجمهورية ونظام الحكم الإسلامي بعد وفاة الرسول، فقد كان الرومانيون يختارون قناصلهم على نحو يوشك أن يشبه اختيار المسلمين لخلفائهم... ص: ٢٢٦». يستعمل المؤلف جملة كلمات لا توحى باليقين ولا يشبه اليقين: أكاد، يوشك، يشبه... والأساسي في هذا هو المقارنة قبل غيرها، التي تقرب بين القناصل والزمن الراشدي، واضحة العلاقتين معاً في الزمن الدنيوي، أو في تلك التجارب السياسية التي حاولتها الإنسانية في كل العصور، والتي ارتقت وتداعت في كل العصور.

يميز طه حسين في «الفتنة الكبرى»، من الصفحة الأولى، بين «التفكير الديني»، الذي يحو فيه الموضوع الذات التي تفكره، و«النظرة الخالصة المجردة»، التي تترك الذات تعامل الموضوع بأحكام غير مسبقة. فالتفكير الديني ينطوي على بداهة الحق وعلى الضمان الإيماني الذي يضع «الباحث» على طريق الحق، وينتظر الرضا والرضوان الإلهيين، على خلاف باحث النظرة الخالصة المجردة، الذي يترك وراءه سؤالاً، وينتظر أمامه أسئلة. والتفكير الديني يرتاح إلى أساطير البداية المغارقة للتاريخ، على نقبض النظرة المجردة، التي تحرر البداية من الأساطير، وتحرر في الأساطير التاريخ الذي صاغها. فلا تقديس ولا ما هو شبيه بالتقديس، إلا إن ارتضى الإنسان بهزيمة العقل وارتضى بهزيمة طويلة حوكت تاريخه إلى أساطير، وهو ما الملح إليه طه حسين الشاب في الجزء الثاني من «حديث الأربعاء»، الذي يعود إلى عام ١٩٢٣. والسؤال كله هو: هل يضيء الحاضر الماضي، أم أن على الحاضر أن ينتظر نور الماضي الذي لن يعود؟ إن انتظار عودة «الزمن الراشدي»، الذي لن يعود، هو الذي يعين أسطورة البدايات الذهبية أيديولوجيا سلطوية بامتياز، يريحها الانتظار وتبرر الانتظار، وهو الذي يعين طه حسين، رغم قلقه ومناوراته، عقلاً متمرداً، لا ترحب السلطات به ولا أيديولوجيات الانتظار الدينية. بعد التحرر من تراث لا يمكن الاطمئنان إليه، لا يبقى أمام المؤرخ إلا أسئلته الذاتية، التي تؤمن بالشك ولا تبحث عن ضمان. ولعل هذه الحرية الكاملة هي التي تفسر حضور طه حسين الطاعني في نصه، يحاكم القدماء بلمغة مفرداتها من مفرداتهم وينبئها من عنده، ويضع في لغة تبدو قديمة شكاً ديكارتيّاً، فيحجبه ويحسن حجبه حتى يكاد لا يرى، ويوزع «أناه الواسعة» على روايات القدماء

الصادقة والكاذبة... فهو يرفض ويقبل ويسخف ويكذب ويعيد بناء الروايات بأكثر من احتمال، كما لو كان يستولد بناءً متسقاً من ركام. نقرأ له في صفحات متعاقبة: «والذي استخلصه أنا من هذه الحكاية، وأظن أنني أميل إليه، ولست أطمعن إلى شيء من كل هذه الروايات، وأرجح أن هذا أو ما هو قريب منه لم يقع، واعتقد أن هذه الروايات وضعت متأخرة، وكل هذا أشبه بأن يكون ملهارة سخيفة بأن يكون شيئاً وقع وهذا كذب لا نتوقف عنده، وهذا من سخف الكلام الذي لا ننظر فيه...». ولعل تراكم السخف والكذب والاختلاق المتأخر هو الذي يقنعه بتبني قول سعد بن أبي وقاص حين اعتزل المتخاصمين: «لا أقاتل حتى تأتوني بسيف يعقل ويبصر وينطق فيقول: أصاب هذا وأخطأ ذاك...». وسيف حسين هو فرديته المفكرة وعقله الشكوك وجراته على المسألة، وتلك اللغة الفاتنة الأقرب إلى الاحجية، التي يتساكن فيها زهد أبي العلاء ومفاهيم روسو وديكارت... وربما تكون هذه اللغة هي التي جعلت صاحبها يبدو حداثياً وتقليدياً، أو حالة ثالثة تمكّر بالحدائين والتقليدين معاً.

٢- معنى الفتنة في الفكر الديني:

قدم طه حسين في «الفتنة الكبرى» نصاً في التاريخ محدد الرؤية، وأدرج فيه نصاً مضمرًا، يستنطق القارئ ويستنطقه القارئ ولا يصلان إلى إجابة قاطعة. وهذا التداخل بين الواضح والمضمر متركز الفتنة، وأجلس فيها عثمان، ومحا المركز ووزعه على هوامش عديدة، تستيق الفتنة وتعقبها في آن. لن تكون الفتنة، والحالة هذه، حادثة تاريخية مفردة لها زمنها المفرد، بل جملة فن متعددة الأزمنة، أصابت عثمان قبل غيره وتوالدت، لاحقاً، مواكبة التاريخ الإسلامي ومكونة له في كل العصور.

تحميل الفتنة، في نص طه حسين، على قتل خليفة مسلم، وهو ما يعارض الدين ويعارضه الدين، وتحمل، في اللحظة عينها، على خليفة انحرف عن سنن الإسلام، وأفضى انحرافه إلى قتله وإلى اختلاف المسلمين. صدرت الفتنة عن فعل القتل، وعن خليفة قاده أفعاله إلى القتل. لا يتسو المؤرخ، الذي يرى الفتنة في أسبابها المركبة ويعطف عليها جبراً تاريخياً، على عثمان، يتهمة ويعذره، ولا يتسو على قاتليه، ينتقدهم ويلمس لهم الأعذار. فما قام به عثمان قام به غيره من الحكام في كل العصور، وما قام به قتلته قامت به الأقوام المدافعة عن حقوقها في كل العصور. غير أن حسين لا

يلبث أن يهون مرة أخرى، من أخطاء عثمان وقائله، باحثاً عن أسباب « الفتنة الكبرى » في فتن سابقة، صريحة أو مضمرة. فلم يرث عثمان عن سابقه نظاماً سياسياً واضحاً، فيقد أفعاله ويضبط تصرفاته، فاستأنس بما عرف واجتهد في ما لا يعرف، واجتهد فإصاب وأخطأ. ذلك أن سابقه لم يضعوا دستوراً في الحكم، فزمن حكمهم القصير لم يتح لهم أن يضعوا دستوراً، بل لم يتح لهم أن يعرفوا معنى الدستور، أو يفكروا به. ومع أن حسين يستغرب من عدم تفكير المسلمين، بعد مقتل عمر، بوضع الحكم على أساس ثابت مطرد متين - ص: ٢٤٣ - فإنه لا يلبث أن يبرّر، في موقع آخر، النقص الذي أشار إليه: « وبعد، فهؤلاء أيضاً خليقون ألا يلاموا، فقد ينبغي أن نسال أنفسنا متى عرف العالم وضع الدساتير؟ وقد ينبغي أن نلاحظ أن وضع النظم السياسية المكتوبة... ظاهرة حديثة... ص: ٢٤٠ ».

لم يأت الخليفة القتيل، الذي أثر أقرابه بمناسب الحكم والعطاء الكثير، ببذعة خالصة. فإضافة إلى غياب قواعد حقوقية تضبط وتحدد، لم يكن ما فعله غريباً كلياً عن نهج صاحبيه السابقين. فقد أقتع أبو بكر الأنصار، بعد موت الرسول، بأن المهاجرين من قريش هم أولى بالنبي وسلطانه، وهو ما لا يتألف مع إسلام يساوي بين المؤمنين، ولا يفاضل بينهم إلا بالتقوى. وكان عمر قد طلب إلى كتاب الديوان، حين نظم العطاء، أن يفاضلوا بين الأقرباء من رسول الله وغيرهم. ومع أن المعيار ديني خالص، فإن دينيته لا تمتنع عنه التمييز وقبول الطبقات... ومثلما أن في سلوك عثمان ما يبرزه، فإن في سلوك الرعية التي قتله ما يجعله مفهوماً أو قابلاً للفهم. فهذه الرعية كانت مسلمة دون أن تكون، لزوماً، مؤمنة، دخلت الإسلام مختارة حيناً ومكرهة في أحيان كثيرة، ولم يتح للقاتنين على أمورهم أن يوطدوا إسلامها، فبين حروب الردة ومقتل عثمان مسافة زمنية قصيرة. ويكفي النظر إلى الردة الهائلة، بعد موت النبي، للوقوف على حدود الإكراه والترغيب والترهيب التي حايت إسلام العرب و« الأعراب »: « فلما استخلف أبو بكر نظر فإذا الأرض من حوله كافرة... وكان انتشار هذا اللهب وارتداد الكثرة الكثيرة من العرب. فأبو بكر إذن أمام نار مضطربة في الجزيرة العربية كلها... ص: ١٤٥ ». تُفسر الردة التي اجتاحت الجزيرة العربية كلها بأسباب ثلاثة: عدم إيمان القبائل بالدين الذي أكرهت على التسليم به والذي أخذ منذ البداية نهجاً قبلياً، فإسلام القبائل كان إسلام الرؤساء الذين ينوبون عن القبائل، بما لا يلزم الأفراد بشيء، ويجعل إسلام وارتداد الأفراد من إسلام وارتداد رؤساء قبائلهم. والامر لا تنقصه المفارقة، يؤسس الرابطة الدينية على الرابطة القبلية، ويضع في نهج الدعوة

الإسلامية أعرافاً جاهلية. يتمثل السبب الثاني في حب القبائل للمال أكثر من حبها للدين، فقد قبلت بإقامة الصلاة ورفضت دفع الزكاة، واستعدت لمحاربة الذين أكرهوها على الإسلام وأكرهوها أكثر على دفع ما هو أحب إليها من الدين. لا تختلف هذه القبائل عن قريش في شيء، تلك القبيلة العريقة المأخوذة بالمال والنفوذ، كما يذكر حسين غير مرة، التي أنكرت الإسلام حين من مصالحها وأقبلت عليه حين اعتقدت بغير ذلك. لا ينفصل السبب الأخير عن سابقه، ومرجعه التنافس التقليدي بين القبائل المختلفة، التي رفضت في قريش سلطانها الديني الجديد الذي يرفدها بمصالح كثيرة، ذلك أن الزكاة هي المال الذي تجنيه قريش بواسطة خليفة مسلم قرشي. وهذه العلاقة بين السلطان الديني وحماية الأموال أقمعت القبائل بالارتداد وأقمعت أفراداً كثيرين، ذكوراً وإناثاً، بإعلان النبوة والتنبؤ، حتى لم يبق قبيلة إلا ظهر فيها متنبئ ومعلن للنبوة. وإذا كانت الردة أثراً لحب المال والعصبية القبلية، فإن العودة إلى الإسلام، بعد انتصار أبي بكر على المرتدين، لن تكون متحررة من صور المال والتنازع القبلي، ولن يكون المرتدون، الذين هزموا، متحررين من القيم الجاهلية، التي تقضي بالثار والتعصب القاتل. وقد يكون في تأمل، «معركة الجمل»، التي دارت بين عليّ وأنصاره وعائشة «أم المؤمنين» وطلحة والزبير من ناحية ثانية، ما يكشف عن هذا الجاهلي الذي استمر في الإسلام، والذي لم تحرر منه حتى عائشة زوج النبي، وأقرب نسائه إلى قلبه.

لم تقتل عثمان أفعاله ولم يُقتل لأفعاله، قتلته رعية رقيقة الإيمان، أسلمت ولم تؤمن، أو أمنت ولم يُؤطد لإيمانها، رعية بدوية لا تعرف الطاعة والانضباط، لم تسمح لها بيقنتها بمعرفة القوانين وأصول الانقياد، فلم تكن لها سابقة ذات خطر في الإدارة أو السياسة أو الحضارة بوجه عام. . ص: ٢٣٩. كان الرعية المتمردة لم تقتل عثمان، قتله إسلامها المتلكئ الهش الحسوب، وقاتلته بيعتها البعيدة عن الحضارة والسياسة. كان على الرعية الأخرى «المتمدنة»، أو التي استقرت في «المدينة»، أن تدافع عن عثمان، لولا تلك الفجوة الفاصلة بين المهاجرين والأنصار، التي تتسع مرة وتضيق أخرى، ولولا تجاوزات عثمان، التي أطمعت به رعية متبذية وأبعدت عنه رعية مغايرة. بل يمكن القول رغم هذا وذاك، بأن عثمان قتل نفسه، قتلته ضعفه، وتقدمه في العمر، وانقياده الدليل إلى بني أمية، وقاتلته أرواحه عن القميص السلطوي-الإلهي الذي لا وجود له، وقتله معاوية بن أبي سفيان، واليه القوي في دمشق حين تلكأ في نصرته، وقتله الصحابة المتنافسون الذين منعوا عنه النصيحة وكرهوا فيه تداعيه، قبل أن يقتله عمر بن الخطاب الذي أعطى نموذجاً في الحكم، لن يطاوله العجز المتهالك عثمان ولا

غيره من حكام المسلمين إلى الأبد.

يعرض طه حسين موضوعه بجلاء لا ينقصه التكرار، ويضع فيه مقارنات سريعة تزيده وضوحاً. كان يتحدث عن الطمع القرشي في الجاهلية وعن تكالب بني أمية على النفوذ في الإسلام معيّنًا الإسلام القرشي، في حالات كثيرة، جاهلية جديدة. أو أن يقارن بين طبيعة عثمان وطبائع رعيته، قبل أن يقرّر أن طبيعة الحكم من طبائع الحاكمين والمحكومين. تشير المقارنة، في الحالين، إلى إضعاف إسلام قصير العمر بجاهلية متصلة. لن تكون قریش، والحالة هذه، بعد الإسلام إلا ما كانته قبله، باستثناء تلك «الطبقة الممتازة من صحابة النبي»، التي ستعرف الاختلاف والاضطراب، بعد توسع الفتح الإسلامي. ولن تكون الفتنة حدثاً خطيراً طارئاً، بل واقعة مكتوبة في جاهلية طويلة العمر وإسلام وليد ورده شاسعة، انطقات ولم تنطفئ. وهذا الواقع الذي بذل البشر، ولم يبدلهم، يشرح مآل عثمان الكئيب، الذي تناول عليه المسلمون وسفهوه إلى أن «ماصوه موص الثوب الرخيص حتى قتلوه»، و«دفن كما يدفن غير في مزبلة» (٥).

ساوى حسين، وهو يتحدث عن المرتدين، الردة الواسعة باللهب المنتشر، الذي أتى على الجزيرة العربية كلها. سيمود اللهب مع ردة جديدة لا تنفصل عن المال، مال ميتسم هذه المرة يرحب به الجميع. فبعد أن كان دفع الزكاة سبباً للارتداد، قبل الفتح الإسلامي، أصبحت أموال الفتح الهائلة سبباً للارتداد الجديد. إنها فتنة المال المتدفق التي جرفت الأجيال المسلمة القديمة والجديدة، والتي قويت واشتدت حتى أغرقت «أمير المؤمنين»، وقذفت بالكثير من الصحابة إلى مواقع غير منتظرة. وزاد من فتنتها خليفة أغواه المال قبل أن يغوي رعيته، إن لم يكن تهافتة على «أموال الله» سبباً في تسعير الفتنة الجديدة وانتشارها. فبعد أن وضع عمر نفسه، وهو يوزع العطاء، في موضع المغلوبين، وضع خليفته ذاته فوق الأقوام جميعاً: «لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام». طبق الخليفة القتيل، في السياسة المالية، ما طبقه عماله في الأقاليم في السياسة العامة، التي لخصها أحدهم قائلاً: «أيها الناس! إننا قد أصبحنا لكم سامة وعنكم ذادة. نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونزدود عنكم بفيء الله الذي خولنا». تأتي الفتنة من كلام ديني غامض يقود إلى أنهار من دم، قائلاً بسلطان إلهي يؤله الحاكم وينسى الإله، وتخويل إلهي صاغته الأوهام والأطماع... ولهذا يستطيع عثمان، الذي يتوازع مع عماله أفعالاً وأقوالاً متماثلة، أن يقول: «ما كنت لاخلع قميصاً قمصنيه الله عز وجل»، و«لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن انزع سربالاً سربليه الله عز

وجل». ينسى عثمان، أن قميصه الإلهي من صنع البشر، الذين أوكل إليهم عمر بن الخطاب، وهو يحتضر، اختيار خليفة جديد. غير أن فتنة المال الكثير وفتنة التصرف به هما اللتان أقتنعا عثمان بالقميص الذي ارتضى به، بعد أن رأى ذاته خليفة الله، وعين الله «ملتبساً» للخليفة. فذلك القميص الذي سيضرجه الدم، يقود إلى «مال الله»، الذي يتصرف به «خليفة الله». لذلك عاقب عثمان عقاباً شديداً هؤلاء الذين ذكروهم بأن «مال الله» هو «مال المسلمين»، وبأن مال المسلمين، الذي هو ليس مال الله، يوزع بين المسلمين بالإنصاف والعدل.

اغتنت الفتنة بالإشاري، بالقميص الغريب الذي يتبادل الإنسان والإلهي، مصرحاً بتراتب البشر، ومنتهياً إلى وضع اجتماعي منبث عن الإرادة الإلهية عنوانه: الطبقات الاجتماعية. هكذا تحزّر الإشارة موضوعها الخارجي من آثاره الإنسانية، فيصبح قميص السلطان إلهياً وماله إلهياً وإرادته إلهية، وتخول الإرادة المتألّهة ذاتها بإغداق العطاء على البعض ومنعه عن بعض آخر. وبما أن القميص الإلهي مرتبة وفيه ما يستولد المراتب، يظفر الأقارب والمقربون من المتصرف بـ«إرادة الله» بمناصب لا يستحقها غيرهم وبأموال يقررها «القميص الإلهي». فيغدق عثمان على مستشاره الأموي مروان بن الحكم أموالاً طائلة، ويعين في الألة، ويعين في الأقرش، ويؤثر بني أمية بامتيازات كثيرة، حتى يبدو الخليفة القليل مؤسساً للدولة الأموية، أو عاملاً حاسماً في ولادتها القريبة. تتراءى في هذا المسار تلك العلاقة القديمة التي أقامت القبول بالإسلام على معايير قبلية (رئيس القبيلة هو الناطق بإسلامها)، وذلك في طور جديد يمزج العصبيّة القبلية بالقميص الإلهي، ويرى في قبيلة الخليفة «قبيلة الله». وبما أن أمير المؤمنين يتصرف بـ«أموال الله»، لا بأموال عباده، تصبح مراقبته أمراً آثماً يستحق العقاب الشديد، وتصبح مراقبة القريبين منه أمراً لا يقل إثماً. يكتب طه حسين: «يمكن أن نختم سياسة عثمان المالية في أنه كان يرى أن للإمام الحق في أن يتصرف في الأموال العامة حسب ما يرى أنه المصلحة، وأنه ما دام قد انقطع بحكم الخلافة لتدبير أمور المسلمين، فله أن يأخذ من أموالهم ما يسعه ويسع أهله وذوي رحمه لا يرى بذلك بأساً ولا جناحاً...». ص: ٣٨٥، «وإذا أطلق الإمام يده في الأموال العامة وأطلق العمال أيديهم فيها على هذا النحو، لم يكن غريباً أن تمتد هذه الأيادي إلى أموال الصدقة، لا الإنفاق على الحرب بل للعطاء وصلة الرحم...». ص: ٣٨٩. هكذا يغدو الفساد في «الخلافة القبلية» ظاهرة عادية ويغدو «جنوب العراق»، أو غيره «بستاناً لقريش». ولعل العيب بمال المسلمين، المبرز بمشقة إلهية هي مشقة العصبيّة القبلية، هو الذي جعل سرقة الولاة للأموال، بعد

دراج : أنسنة التاريخ المقدس

مقتل عثمان، أمراً شائعاً: «احتمل عامل عثمان بعلي بن أمية ما كان عنده من الأموال ورحل إلى مكة»، وحمل عبد الله بن عامر ما استطاع حمله من المال حتى أتى مكة... سيتكرر «ترحيل الأموال» إلى مكة في آخر خلافة علي القصيرة، حين يأخذ ابن عمه والي البصرة «عبد الله بن عباس»، الملقب بـ «خبر الأمة وترجمان القرآن»، ويحمل ما استطاع حمله من الأموال ويذهب إلى مكة، «البلد الأمين، الذي يقيه من ملاحقة الخليفة».

تفرض المرتبة، المغلفة بقميص ديني، النزول من أمير المؤمنين إلى أقاربه، ومن الأقارب إلى صحابة رسول الله، الذين يستحقون العطايات، المالية منها والعقارية، فهم قوام الأرستقراطية الدينية الأولى، وكلهم أو معظمهم من قريش، وكلهم أو معظمهم ينتظر من الخليفة عطايات باذخة. ولن يبخل الخليفة عثمان على أصحابه المبشرين بالجنة، ولن تبخل الظروف المالية المستجدة بتغييرهم، فينتقلوا من مقام الأرستقراطية الدينية، التي تتعرف بالإيمان والصفاء الإيماني وصحة رسول الله، إلى مقام الأرستقراطية المالية، التي تدفعها المصالح إلى الاقتتال، ويقتل اثنان من أعلامها في معركة الجمل. وإذا كان عمر قد انتبه، مبكراً، إلى فتنة المال، حين ضرب بدرثه سعد بن أبي وقاص وهو يندفع إلى سؤال المال ومنع الصحابة من «الانسحاق» في الأقاليم اتقاءً للفتنة، فإن عثمان حرّضهم على الاندفاع، حتى تركوا وراءهم ذهباً لا تقطعه الغفوس. يكتب طه حسين: «ولكنني مع ذلك لاحظ أن جماعة من أصحاب النبي قد حسن بلاؤهم في الإسلام حتى رضي النبي عنهم وبشرهم بالجنة أو ضمنها لهم، ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب، وامتحنوا بالسلطان الضخم العظيم، وبالثراء الواسع العريض، ففسدت بينهم الأمور، وقاتل بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً، وساء ظن بعضهم ببعض إلى أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس، فما عسى أن يكون موقفنا نحن من هؤلاء؟ ص: ٢٣٥». لم يمسك وباء المال برقاب الصحابة أو بعضهم، فقد امتد وانتشر حتى أمسك برقاب كثيرة: «ثم تبين أن أهل الحجاز لم يكونوا خيراً من أهل البصرة والكوفة، فكثير منهم كان يتسلل إلى الشام إيثاراً لدنيا معاوية.. وليس من شك في أن كثيراً من أهل مكة كانوا يفعلون فعل نظرائهم من أهل المدينة، بل ليس من شك في أن كثيراً من الذين يقيمون في الحرمين ويؤثرون البقاء في الحجاز على الذهاب إلى الشام كانوا يتلقون من معاوية هداياه ومنحه.. ص: ٥٨٧ و٥٨٧».

لا يكون فساد العامة إلا من فساد الخاصة، ولن يكون فساد المسلمين إلا من فساد خليفة

المسلمين. تحول الجهاد، في هذا الطور الفاسد، من جهاد في سبيل الله إلى جهاد في سبيل المال، فاندفعت الأجيال المسلمة الجديدة إلى جيوش الفتح، واندفع قادة الجيوش إلى المطالبة بحقوقهم: «إن المال هو من حق الذين جاهدوا في سبيله». وحين اقتنعوا أن حقوقهم ناقصة ومنقوصة، قالوا «إن الجهاد خلفنا وليس أمامنا»، فكفوا عن قتال «الكفار» كي يقاتلوا «أمير المؤمنين». ولم تكن العامة، والانتصار منهما بخاصة، غافلة عن عبث عثمان بأموالها وعبث بني أمية بعثمان وبأموال العامة. يخلص طه حسين من هذا كله إلى: «نتيجتين كلتاهما شر: الأولى إتفاق أموال العامة في غير حقها، وما يترتب على ذلك من الاضطراب وظلم الرعية، والآخرى إنشاء هذه الطبقة الغنية المسرفة في الغنى التي تستجيب لطمع لا حد له، فتوسع في ملك الأرض واستغلال الطبقة العاملة، ثم ترى لنفسها من الامتياز ما ليس لها، ثم تتنافس في التسلط، ثم ترقى إلى التنافس في الإمارة وفي الخلافة ذاتها، ثم ينتهي بها الأمر إلى ما انتهى بها إليه من هذه الفتنة... ص: ٣٩٠».

دحض طه حسين أسطورة الزمن الراشدي الذهبي، ودحض فيه أسطورة «المسلم الجوهري»، الذي يعتصم بإسلام لا يتبدل ويعصمه إسلام جوهري لا يتبدل فيه. وهذا ما دعاه، ربما، إلى التمييز بين عثمان - السلطة، وعثمان - ما قبل السلطة، إذ الثاني تقي ورع سخي متسامح، وإذ الأول متبطر متفطرس يستهين بالدين بلا مشقة، فولاته أقرباء ضعاف الإيمان: الوليد بن عقبة، الذي غش النبي، وكفربعد إسلام، وأنزل الله فيه قرآناً يحذر من فسقه، سعيد بن العاص المعتد بقريشيته والفخور ببني أمية والقادر على التنكيل بالمعارضين تنكياً شديداً، وصولاً إلى أخيه في الرضا عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي اشتد، قبل فتح مكة، على النبي وسخر منه، وقد نزل القرآن بكفره وذمه... في مقابل التهاون مع الذين ذمهم القرآن، اشتد عثمان على مؤمنين أثنى عليهم النبي مثل عمار بن ياسر، ونفى أبا ذر، وأبعد الذين لا يوافقونه. اقتفى حسين، الذي أغضبه جوهري ديني سريع التشطي، آثار النعمة المتسلطة على صحابة آخرين، مدلاً على أن سياسة عثمان المالية حولت الصحابة المبشرين بالجنة إلى «رجال مال وأعمال»، حال عبد الرحمن بن عوف، وأن الإثراء الذي لا ضابط له فتنة تعوالد في فتنة لاحقة.

انطوى تحليل «الفتنة الكبرى» على خطابين: أحدهما تأملي، إن صح القول، موضوعه المال والدين والضعف الإنساني، وثانيهما اجتماعي - اقتصادي. فبعد أن خلص الكتاب إلى ما خلص إليه في سياسة عثمان المالية، أوضح قوله بمقولات اقتصادية مثل: «البلوتقراطية»، أي الأرستقراطية المالية

الطاغية، التي لا تعمل وتستغل الذين يعملون عندها، وتستغل نفوذها المالي لخلق الاتباع والمستزلبين، والارستقراطية العاطلة المتبذلة، التي تحكم بأموالها غيرها، وتلتفت إلى التبتّل والنجور. إضافة إلى ذلك، فهناك الأرستقراطية المالية التي استفادت من سياسة عثمان في «مقايسة الأراضي» في الأقاليم المختلفة وأصبحت أرستقراطية عقارية ضخمة، أشبه ما تكون به اللاتيفونديا، التي ظهرت في آخر الجمهورية الرومانية، وأسهمت في ضياعها. والمقصود بذلك وجود قلة قليلة من الأثرياء المسلمين تمتلك أراضي الأقاليم، وتفرض اللامساواة الاجتماعية قانوناً اجتماعياً، دافعة بالنظام الطبقي إلى غايته. أخذت الطبقات الصاعدة في النظام الإسلامي الطبقي، أشكالاً ثلاثة: الطبقة الأرستقراطية العليا ذات الثراء الضخم والسلطان الواسع، وطبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافق السادة، وطبقة بين الاثنين هي الطبقة المتوسطة، وهي طبقة العامة من العرب، الذين كانوا يقيمون في الأقاليم ويحمون الحدود، ويدودون عن وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء. كان هذا النظام الطبقي، الذي لا عدالة فيه، في أساس ظهور التشيع الديني والسياسي، أي ظهور الإيديولوجيات الاجتماعية، كما يقال باللغة الحديثة، التي تستلزم الفوارق الطبقيّة والصراعات شرطاً لوجودها. لا غرابة، إذن، أن يتكاثر شيعة الإمام علي، لاحقاً، بين الموالي من غير العرب، وأن يعثر الحوارج على مادتهم البشرية في الأوساط الفقيرة، وأن تلتحق قرش بمعاوية، الذي أنشأ «ملكاً» جديداً.

شرح حسين الفتنة بسببية اجتماعية - اقتصادية مركبة، لا تُختزل إلى خروج مجزوء عن النص الديني وتطبيقه بشكل مجزوء، ولا بخروج كلي عنه يساوي الكفر الصريح. وقد يشير بعض المؤرخين إلى مؤمنين أحبطتهم انحراف الخليفة القتل، وإلى حضور النص القرآني لدى متطهرين يتشبثون بنقاء العقيدة، دون أن يوهن هذا التحليل المادي أو يضعف مرتكزاته. فسر هذا التحليل الديني السياسي، وفسر العنصرين معاً بالاقتصادي، بعيداً عن تأويلات عقيمة، كذلك القائلة بأسطورة اليهودي «عبد الله بن سبا»، الذي اندس بين المسلمين ودرس على المسلمين، وصولاً إلى ما يضخم دور الموالي من غير العرب. فالفتنة، بهذا المعنى، عربية الأسباب والأدوات، أو إسلامية العوامل والمسببات. والأساسي في هذا كله إخفاق النظام الإسلامي، بعد مقتل عمر، وتحول الفتنة، التي نقضت الإسلام الأصلي، إلى قاعدة لحكم الأمويين ومن جاء بعدهم. كان ما سبق الفتنة استثناء، وما تلاها فتنة ثابتة. ربما يكون الربط بين مقتل عمر وتداعي الإسلام هو سبب ثناء طه حسين الغامر على عمر بن الخطاب، الحاكم

العادل الذي لم تعرف البشرية له نظيراً، كما لو كان عمر خليفة عادلاً ونهاية لحلم إنساني عظيم في آن.

تكشف الفتنة، كما شرحها كتاب «الفتنة الكبرى»: في هزيمة الحكم الإسلامي للعدل الذي قال به الدين الإسلامي، وفي احتكام المسلمين إلى السيف لا إلى كتاب الله، وفي انتصار العصبية القبلية على الرابطة الدينية، وفي استبداد الدنيوي بالإيماني، وفي ظهور الطبقات وتعالى الخليفة الذي يقوِّض تساوي المؤمنين، وفي تمزق المسلمين المفتوح إلى الأبد، وفي نظام الخلافة الذي يستبدل بالعقد الاجتماعي العقد الإلهي، وفي عودة الجاهلية التي تخبر عن غروب الإسلام. في كل هذا يبدو ظهور النظام الخلفي انتصاراً على الإسلام وعودة إلى الانظمة السياسية، التي عرفتها الإنسانية في جميع العصور. كان في نظام الخلافة ردة جديدة قام بها مسلمون، أسلموا ولم يؤمنوا، مع فرق جديد يفصل الردة الجديدة عن الردة القديمة، فخليفة المسلمين الذي عليه أن يأخذ دور أبي بكر لا وجود له، لأنه من المرتدين والحاكم لامرهم.

٣- نظام الحكم: من العقد الاجتماعي إلى العقد الإلهي:

يتضمن كتاب «الفتنة الكبرى» بين فصوله فصلين، أحدهما في مطلع الكتاب عنوانه: «نظام الحكم في الإسلام نظاماً عربياً مبتكراً»، وثانيهما في نهايته هو: «نظام الخلافة». ولاختيار العنوانين، كما موقعيهما، ما يبرره، ذلك أن الأول يبرهن، نظرياً، على أنه لا وجود لنظرية في الحكم في الإسلام تاركاً التاريخ يتحدث عن نفسه، وأن العنوان الثاني يستضيء بالوقائع التاريخية ويبرهن، عملياً، على ما أراد أن يقول به العنوان الأول. وما اختلاف المسلمين بشأن عثمان ومقتل علي، الذي حاول خلافته في زمن انتهت فيه الخلافة، ودعوة الخوارج، العادلة والمؤسسية في عدلها ونهايتها، إلا دليل على أن الحكم بين المسلمين كان إنسانياً، يحتكم إلى كتاب الله ما استطاع، ويحتكم إلى الطبيعة الإنسانية التي تعطي الكتاب قراءات مختلفة.

لا وجود لنظرية في الحكم في الإسلام، فلم يشرع القرآن نظاماً لاختيار الخلفاء، ولم تقل السنة بنظام لا يختلف عليه، ولم يترك أبو بكر وعمر نظاماً يعصم الناس عن الاختلاف. فقد أجاز النبي عرف المبايع، الذي يقبل به الناس أحراراً طائعين، وقد لا يقبلون به ويعارضون النبي، كما حدث غير مرة. وما الشورى، التي كانت عرفاً نبوياً، إلا آية على غياب الحكم النهائي، فلو كانت الأحكام نهائية

لما دعت الحاجة إلى الشورى، ولما قبل بها النبي. واقتداءً برسول الله، جاءتبيعة الناس للخلفاء، التي هي عقد اجتماعي بين الخليفة ورعيته، قوامه عهد بين الطرفين، يلزم الرعية بالطاعة والخليفة بإقامة العدل. ولا يختلف الاستخلاف، الذي جاء به أبو بكر، عن معنى البيعة في شيء، فهو ترشيح لاختيار خليفة جديد، لا يصبح سارياً إلا إذا ارتضى به الناس، ولا يتحقق إلا إذا اتفق الصحابة في ما بينهم على الخليفة الجديد. وعلى هذا، فإن استخلاف أبي بكر لعمر لم يكن يلزم المسلمين في شيء، فهو أقرب إلى النصيح والتحبيد، لأن أمر الخلافة ليس إلى رجل، حتى لو كان مقرباً إلى رسول الله، وإنما هو إلى جماعة المسلمين، وإلى أولي الرأي والمشورة منهم. ولأن الأئام، في العهد الإسلامي الأول، لا وجود له، انطوى الإسلام على اعتراف بالمسلم الحر، وترك للمسلمين حرية تدبير أمورهم. لم يكن النظام الإسلامي نظاماً إلهياً، يحقق مشيئة الله على الأرض. فقد صدى الإسلام بامرئ: التوحيد والعدل، واعتبر الثاني مجلى للآول وصورة عنه، فالؤمن هو الذي لا يجوز على غيره من المؤمنين. وقضية العدل هي قضية المساواة بين المسلمين، بمعزل عن اللون والأصل والمنبت الاجتماعي، فلا فضل لمسلم على آخر إلا بالتقوى. وكان الرسول، في مكة والمدينة، عادلاً بين أصحابه، وإن وجد من ثار عليه ذات مرة. وقد حاول أبو بكر وعمر العدل، بقدر ما استطاعا، حتى قال عمر عن أبي بكر إنه «شق على غيره»، وقال غيره: «إن عمر شق على من تلاه». وبالحملة فقد أقام النبي والشيخان حكماً عادلاً، وذلك في تجربة فريدة تحاول، في حدودها الإنسانية، أن تتطلع إلى العدل كل العدل، وأن تبلغ المساواة كل المساواة، حتى جاء زمن عثمان، الذي حرفته الفتن المتعددة وقتلته الفتنة الكبرى. أقام النبي والشيخان حكماً عادلاً، ولم يخلّفوا وراءهم نظاماً في الحكم ولا دستوراً أخيراً، يضبط علاقة الحاكمين بالهكومين. فهناك الاستخلاف الذي يدور بين النخبة المؤمنة، وهناك البيعة التي، إن تمت، ألزمت الجميع بقبولها، داخل المدينة وفي الأقاليم. جرت الأمور، في العهد الإسلامي الأول، ببسر قليل أو كثير وأقرب إلى الأرجال، كان تأتيبيعة أبي بكر «فلتة»، كما قال عمر، وقت المسلمين شر الاقتتال، بعد أن ارتضى الأنصار بدور الوزراء واحتكر المهاجرون دور الأمراء، وأن يستخلف الخليفة الأول عمر لمزايها، وأن يقترح الأخير، وهو في النزاع الأخير، هيئة ترشيح وانتخاب، وقع خيارها على عثمان. يخلص طه حسين، في ضوء هذا، إلى أن نظام الحكم في الإسلام قام على امرين. الضمير الحي اليقظ، الذي يستلهم معنى التوحيد، وطبقة الصحابة التي عليها أن تسهر على إقامة العدل الاجتماعي، مستلهمة آثار الرسول وصحابيه.

قطعت التحولات الاجتماعية اللاحقة، وقوامها تراجع دور أصحابه وانحرافهم مع انحراف عثمان وصعود العصبية القبلية والتفاف بني أمية على عثمان، مع الإسلام الأول، وانتجت خلافة جديدة هي تلك الجديدة يحاكمي كسروية كسرى وبطر الرومان ويحجب انحرافه باستخلاف إلهي. فبعد أن كان أبو بكر خليفة لرسول الله، وعمر خليفة للخليفة الذي سبقه، أصبح عثمان خليفة الله في الأرض. انقطعت علاقة الخليفة بالإنسان وأصبحت علاقة مع الله، تمتع الرقابة، وتستغني عن الشورى، وتقدس قبيلة الخليفة الذي قلنس نفسه. وما إخفاق علي، وهو امتداد لزمن رسولي عضوي، إلا نهاية زمن وبداية زمن سلطوي يغاير ما سبقه. وما لا شك فيه أن قلة من المؤمنين حاولت الاحتفاظ بالزمن العادل دون أن يفلح سعيها، لأن تلك القلة كانت «ناساً من الناس»، فلم يتقدموا في طريقهم تلك حتى امتحنوا في أنفسهم ودمائهم، وحتى غلبهم الاكثرون عدداً على أمرهم. ص: ٤١٣.

أعلن انتصار الكثرة على القلة المؤمنة عن انتصار الفتنة، وعن وقوف المسلمين أمام طريقين: «إحدهما هي الطريق التي سلكتها الأمم من قبلهم، وهي طريق الملك الذي يقيم أمره على الحزم والعزم وعلى القوة والبأس، ويحل مشاكل الدنيا بوسائل الدنيا...»، وقد «سلك أكثر المسلمين هذه الطريق»، وثانيتهما هي تلك «التي مهدها النبي ورفع أعلامها صاحبها، وهي التي لا تقيم السلطات على القوة، وإنما تقيمها على العدل، ولا تحمل مشاكل الدنيا بوسائل الدنيا، وإنما تحلها بوسائل الدين، هذه التي تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...». والطريق الثانية لا تزال واضحة قائمة، لكنها «خالية، لا يقدر على سلوكها إلا أولو العزم من الناس. وابن أولو العزم من الناس؟ من: ٤١٣.

في تمييزه بين طريق عامرة تحمل قضايا الدين بوسائل الدنيا، وأخرى خاوية تتطلع إلى مؤمنين أقرب إلى الاحتمال، يعلن طه عن نهاية الإسلام النبوي. وهذا الإعلان هو الذي حملة على حديث مستفيض عن مزايها عمر وعن استبعاد المال بالمسلمين واستبداهم في تحصيله، بادئاً بأهل مكة والمدينة واصلوا إلى الأمصار، وبادئاً بالصحابة واصلوا إلى غيرهم. يبدو الدكتور حسين، في خطابه، مفتوناً بإسلام أصلي، بمعنى التوحيد الذي يقضي بالعدل، لا التوحيد في ذاته الذي لا يقضي للبشر حاجات كثيرة، بقدر ما يبدو يئساً من عودة الإسلام العادل، كما لو كان الإسلام دعوة طوباوية، حال الدعوات الطوباوية الأخرى، تحققت فترة قصيرة، وأعقبها ما كان موجوداً قبل ظهورها. يتكشف حسين، في هذه الحدود، أصولياً ومعادياً للأصولية. أصولياً وهو ينجذب إلى عدل عمر، ومعادياً

للأصولية وهو يصرح بأن تجربة عمر لن تعود .

استنكر حسين، اعتماداً على وحدة العدل والتوحيد، مبدأ الخلافة، واستنكر قريش التي أسست دولة الخلافة واحتكرت الإسلام. وتأمل ما كتبه يظهر العلاقة بين المال والتسلط في الطبع القرشي الجاهلي، وبين المال والتفوق في خلافة على صورة قريش. فحين يروي أبو بكر عن النبي أنه قال: «الائمة من قريش»، فهمت قريش من القول أن الإمامة حق لها دون غيرها، وإن لها حقوقاً لا تعدو إلى غيرها، وهذا ما ندد به عمر في بعض خطبه: «ألا وإن قريشاً يريدون أن يجعلوا مال الله دولة بينهم. أما وابن الخطاب حي فلا. ألا وإني قائم لهم بحرة المدينة فأخذ بحجزهم أن يتهافتوا في النار». وما أن مات عمر حتى تهافتت قريش كما تريد: «نظرت قريش وقرابة عثمان خاصة، فإذا ثلاث من الولايات الأربع الكبرى يليها أمراء من قريش»، أمراء هم «رجال دنيا لا رجال دين». يشرح حسين طبيعة قريش بوضوح غير منقوص في الجمل التالية: «فما كانت قريش إلا ساحرة، تتخذ الأوثان وسيلة لا غاية، وسيلة إلى استهواء العرب واستغلالها، وحرص قريش على آلهتها هو نتيجة حرصها على مكانتها من العرب وانتفاعها ما كان يجلب إليها من الثمرات، ومهما يكن من شيء فقد سخطت قريش على النبي لأنه عرض لنظامها الاجتماعي، وفرض عليها نوعاً من العدل لا يلائم منافع سادتها وكبرائها، أكثر مما سخطت عليه لأنه عاب آلهتها ودعا إلى أن تلغي الوساطة بينها وبين الله... ص ٢٠٦».

المنفعة، الاستعمال النفعي للدين، التوسط بين القبيلة والله بما يوطد المنفعة والاستعمال النفعي للدين. هذه هي صفات قريش، التي لا تكثر بالدين من حيث هو وتسخط على الدين الذي يدعو إلى العدل، وهذه هي قريش التي استبدلت بالأوثان الجاهلية أوثاناً جديدة، واخترعت الخلافة بدلاً عن الأوثان القديمة، كي تحتكر التوسط بين الله والبشر، وتنقل النظام الإسلامي من العقد الاجتماعي، القائم على العدالة والخزينة والشورى، إلى العقد الإلهي، الذي يعين الإرادة القرشية الحاكمة بدلاً عن الإرادات الخاضعة. ولن يكون عثمان، في الطور الثاني من حكمه، إلا الوثن الجاهلي القادم ولن يكون معاوية، الذي تخفف من فضائل عثمان، إلا الوثن الجاهلي القديم، وصولاً إلى ورثته يزيد، الذي لم يكن يعرف من أمور الدين أشياء كثيرة.

سأل حسين، بلغة يائسة، العلاقة بين الديني والديني، أو بين الإنساني والإلهي، وانتهى إلى إجابة مريرة. فعلاقة الديني بالديني، كما حددتها سلطة الخلافة، هي علاقة إدماج استعمالي، بما

يفيد السلطة غير العادلة، أو علاقة تحالف كاذبة، تستبعد الدين في مجال الممارسة وتتمسك به في مجال التسويغ. وواقع الأمر أن حسين في كتابه «الفتنة الكبرى»، الصادر في جزأين في ١٩٤٧ و١٩٥٣، كان يستأنف، في شروط أقل تضييقاً وبلغة أكثر مكرراً، معركة كتاب صديقه القديم العالم الأزهرى علي عبد الرازق: «الإسلام وأصول الحكم»، الذي صدر عام ١٩٢٥، وتقاسم محنة «في الشعر الجاهلي».

تعامل خطاب علي عبد الرازق مع مواضيع أساسية هي: طبيعة السلطة المطلقة التي يقوم عليها نظام الخلافة، عدم جواز وشرعية هذا النظام المؤسس على القوة لا على الرضا الطوعي، الطبيعة السياسية للحكومة في الإسلام.. ففي نظام الخلافة، الذي يتعامل مع الدين بشئائيه الدمج والاستبعاد، يمثل الخليفة مركزاً دينياً وسياسياً معاً، مما يجعل من نقده أو المساس به نقداً ومسماً بآركان الدين. ينتهي الأمر، بداهة، إلى سلطان مطلق الصلاحيات، لا يحده ضابط ولا يردعه رادع، غير قابل لأي نوع من أنواع الانقسام أو إعادة التوزيع. والأكثر خطراً أن هذا النظام التسلسلي، الذي أنتج فقهاء متلاحقين يدافعون عنه ويدعون إليه، يفتقر إلى دليل شرعي، فلا يوجد في النص القرآني أية إشارة إلى هذه الخلافة المخترعة، التي ارتفعت بمقام الخليفة إلى مقام النبوة، ولا تتضمن السنة أي دليل يقر بذلك.. رأى عبد الرازق أن «الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون، وبريء من كل ما هياوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عز وقوة» (٦)، ذلك أن هذه الخلافة وثيقة الصلة «بمجال المصلحة والمنفعة، مصلحة أولئك الذين يحتاجون إلى نظام الخلافة للانتفاع من عائدات موقعهم فيه». وهذه الخلافة، التي أوجدتها المصلحة وهيئات أسباب توطيدها، لا تستقيم من دون «القوة الرهيبة والجيش المدجج والبأس الشديد»، فالقوة موجودة في الخلافة ومحايثة لها، بل هي شرط وجودها، الذي يقضي على العدل ولا يعرف القضاء بالعدل يقول عبد الرازق: «إذا كان في هذه الدنيا شيء يدفع المرء إلى الاستبداد والظلم، ويحصل عليه العدوان والبغي، فذلك هو مقام الخليفة» (٧).

استأنف طه حسين حديث علي عبد الرازق، الذي هزمته «سلطة الإجماع» فاعتزل وأثر الاعتكاف. فالخلافة هي المصلحة والبطش والجور على تعاليم الإسلام. لم يشأ صاحب «الأيام» أن يخوض في موضوع خاض فيه صاحبه المخدول، فتحدث عن الخلافة فصلاً، وركز حديثه على قريش واتخذها مجازاً للخلافة، ذلك أن صفاتها هي صفات الخلافة، التي تغتصب النبوة.

دعا حسين، في « الفتننة الكبرى »، إلى العلم وهو يدعو إلى قراءة تاريخ إسلامي، اخترعه فقهاء الخلفاء وانتسب الخلفاء إليه، ودعا إلى حرية الفكر وهو يقاوم أساطير الاستبداد المقدس، ودعا إلى إسلام الأصول، وهو يدرك، بعقله الحدائي، أن الأصول لا تعود. كان في جمال الأصول وتجميلها ما يؤكد رجوعها المستحيل. شيء قريب من زمن الملحمة، الذي لا يعرف الناس فيه كلمة السعادة لأنهم يعيشونها، تاركين ولادة الكلمة وانتشارها للزمن الروائي، حيث الكلمات في مكان ودلالاتها في مكان آخر.

4- هامش: الفتننة الكبرى في مرة أخرى:

كتب المؤرخ التونسي هشام جعيط، في بداية تسعينات القرن الماضي، دراسة عنوانها: « الفتننة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر » هي الأفضل، ربما، في حقها، منذ عقود كثيرة. سعى الكتاب، المهجوس بالاستقصاء العلمي، إلى تقديم تاويل خاص به يواجه، لزوماً، تاويلات مغايرة. فهو يعلن، في مقدمته، أنه يفتقر عن التاويل الأصولي، الذي يجانس الزمن الإسلامي البدئي، ويعتقد أن هذا الزمن المبارك قابل للاستعادة بلا تناقض في الأزمنة الحديثة. لكنه يعلن أكثر عن تعارضه مع الاتجاه العلماني، الذي يقرأ ظهور الإسلام في بعده الاجتماعي، الداعي للعدالة، قبل أن يقرأ البعد الإيماني الحاسم فيه. وهذا الموقف هو الذي يقوده إلى عدم الاتفاق الشديد مع التاريخانية الجديدة وإلى تسفيهه، ولو بشكل مضمّر، القائلين بتفسير اقتصادي - اجتماعي للإسلام، في طوره الأول. وهو ما لا يخفيه د. جعيط حين يرى في كتاب طه حسين عمل أديب لا عمل مؤرخ.

ومع أن هشام جعيط لا يعطي كتاب طه حسين أكثر من جملة محملة باستهانة صريحة، فإن كتابه كله، عدا استثناءات قليلة، رد على مساهمة السيد العميد. ففي مقابل مقولات حسين عن القدماء وقريش والصحاب والعصبية القبلية وظهور الخلافة والسببية الاقتصادية - الاجتماعية التي حكمت الفتننة وصولاً إلى غروب الإسلام، يجتهد جعيط، بتقنية كتابية لامعة عميقة الوثائق، في دحض المقولات السابقة بمقولات موازية، كما لو كان يساجل حسين، دون أن يصرح بذلك. فالمرخون القدماء، الذين يحاورهم المؤرخ التونسي من موقع الاتفاق والاختلاف المجزؤا، كما يرى، توثيقاً مدعهاً ذروباً، متقصّين روايات شفهية متتابعة، مشغولة بتقديم الخبر لا بتقديم البرهان. وهذه الروايات، في دأبها المدهش، قريبة من التكامل بعيدة عن الاضطراب، بما يجعل منها صيغة واحدة، رغم وجوها المتعددة المزركشة. فلا وجود للكذب، ولا ما هو قريب منه، فالاختلاف الذي يحكم الروايات

المختلفة زر كشة مشوقة، أي تقنيات مختلفة في الإخبار.

اعتماداً على تأويل مختلف، لن تقبل «الردة» بتفسير اقتصادي - اجتماعي يتأخم «الكاريكاتور»، يغلب الجشع والحرمان على الإيمان ونفاذ العقيدة. فزمن الردة هو زمن «الظهور العجيب للظاهرة القرآنية»، التي رأى فيها المسلمون مرجعية أساسية غيرت حياتهم تغييراً لا رجوع عنه، ولم يكن في رفض دفع الزكاة ما يعبر عن رقة في الإيمان أو عن إسلام مشوب بالاعتلال، فالقبائل رفضت الشكل السلطوي لجباية الزكاة، وبقيت متمسكة بالفرائض في صفائها الديني. وما ينطبق على الردة ينطبق بدوره على الفتنة، التي جاءت وقد ضرب النظام الإسلامي جذوره عميقاً في الحياة الاجتماعية، وغدا الوعي الاجتماعي وعياً إسلامياً خالصاً، بل إنها وفدت على مجتمع مشبع بالعقيدة الإسلامية. عرف ثلاثة عشر عاماً من الخلافة الرائعة، في زمن الشيعين، سبقتها عشر سنوات من حضور النبي الباهر بين المسلمين. لن يكون الفتح، والحالة هذه، إلا تعبيراً صادقاً عن حقيقة الإسلام وحقيقة المسلمين الذين عاشوا «الافتحام الحارق للظاهرة القرآنية»، ولن يكون في أموال الفتح، تالياً، ما يعكر صفاء العقيدة، وما يبعث في نفوس المؤمنين ما لا يتفق مع عقيدتهم. وبسبب هذا الخلق الجديد للضماير المؤمنة، عاش الصحابة تجربة استثنائية فريدة، ارتبطوا بالنبي أكثر من ارتباطهم بالوحي، وارتبطوا بالله، الذي تكلم عبرهم مع العالم والإنسانية. إنه ذلك الصفاء الذين يوطن اسم الله في القلوب المسلمة، ويحرض القلوب على إعلاء رسالة الله في العالم.

لا تفسر الفتنة، إذن في هذا، برقة الإيمان وثقل التحولات الاقتصادية، التي وضعت مجتمعات دينياً أمام ثروات فائنة لا عهد له بها، وانتجت فيه تمايزاً طبقياً يضع في الإسلام ممارسات طبقية، تقوض مبدأ العدل الذي جاء به الإسلام في شكل جديد. ولا إمكانية أيضاً للحديث عن عصبية قبلية فاسدة ومفسدة، تسترجع الجاهلي وتزواج بين القيم الجاهلية والقيم الإسلامية. ذلك أن القبيلة والمعتقد الديني الجديد انصهرا في التباس شمر يلائم الجميع، يكون فيه القبلي دينياً والديني قبلية والعربي إسلامياً والإسلامي عربياً، بما يصرح بأن الدين الإسلامي دين قومي، وأن في القومية الجديدة تكافلاً نوعياً بين العصبية قبلية والحمية الدينية. وإذا كان في تناغم القبلي والديني التباس يرضي الجميع، يكون تفوق قريش بداهة لا يماري فيها أحد، بل غاية يسعى إليها جميع المؤمنين، فقدسية النبي تلف القبيلة التي جاء منها، وقدسية قريش من قدسية النبي الذي ينتسب إليها. ومآل هذا واضح ولا عنف فيه، «فلا يمكن للعرب أبداً أن يطيعوا أي شخص لا يكون من قبيلة النبي»، ولا يمكن أن يرضوا بأن يقاسم ما هو خارج قريش قبيلة النبي سلطاتها وسلطانها، بل إن تميز الصحابة، الذين عاشوا تجربة إيمانية استثنائية، لا يمكن أن يرى بعيداً عن أصولهم القرشية، فقد كانوا قرشين

انطلاقاً من ظاهرة قرآنية اقتحمت العالم والقلوب المؤمنة، ومن مجتمع مطمئن إلى عقيدة إلهية اطمأنت إليه، يصبح سؤال نظام الحكم في الإسلام نافلاً، إلا لدى من شاء التكلّف والتزبد واتهام الدين الإسلامي بما ليس فيه . وهذا يعني أن السؤال لا يعبر عن نقص في الإسلام، إنما يعبر عن نقص في إيمان الذين يطرحون السؤال . وآية ذلك أن تسمية خليفة رسول الله، وهو ما فعله النبي حين طلب من أبي بكر أن يؤم المسلمين نيابة عنه، برنامج كامل لتواصل السلطة، فالخليفة القرشي ورث من النبي القرشي القيادة والإمرة، ويستطيع بدوره أن يورث غيره من القرشيين القيادة والأمرة . وقد توطد الأمر حين وضع عمر آليات الشورى، التي تقي الصعوبة من الانحراف، في حال وجوده . تقوم السلطة، والحال هذه، على الإيمان الذي يسمح للحاكم المؤمن بأن يرث السلطة وأن يورثها، وعلى القرشية، لأن المسلمين يؤثرون قرش على غيرها . وفي هذين العنصرين الإيمانيين، اللذين يعضد كل منهما الآخر وبوطنته، يكون في إمام المسلمين امتداد للتجربة النبوية الحارقة، أو امتداد له التجربة الميثاريخية النبوية، بلغة جميعط، بما يجعل من الإمام إنساناً حاكماً يطبق تعاليم الإسلام، وبعداً إشارياً يستدعي زمن النبوة العظيم . لهذا بدا مقتل عثمان أمراً مروعاً، عنفاً ابتليت به الأمة، إن لم يكن اختياراً مأساوياً لأمة مؤمنة، عليها أن تدرك معناه وأن تنتصر على آثاره، وعليها أن تدفع ثمن مقتل عثمان حرباً أهلية واسعة أراقت دماء كثيرة .

فقد حَكَّم عثمان في فترة مشبعة بالوعي الديني، كان متديناً وشديد التدين، ولم يكن قتلته أقل تديناً . فعثمان هو الإمام الذي تستمر فيه، إشارياً، التجربة النبوية، وهو الخليفة المؤمن الذي انضمت إليه «الخلافة الرائعة»، وهو القرشي الذي استخلفه قرشي آخر . تنفي هذه الصفات وغيرها ما تُسبب إلى الخليفة من ضعف وسهولة انقياد، فلم يكن لعبة بيد الأمويين، ولا ذلك الجشع المستسلط المتهافت على شؤون الدنيا، بل إنه عمل على تجديد مكانة الإسلام بإيمان كبير، واشتق من هذا الإيمان «قميصه الإلهي» مقتنعاً به وشديد الاقتناع، مسكوناً بفكرة تعالي الدولة المؤمنة المرتبطة بفكرة تعالي الإلهي . وهذا التعالي هو الذي غمره بهدوء عميم قبل مقتله، فكان يقرأ القرآن مبعداً التصويت المهدد إلى حدود الإنفاء . هناك فرق، إذن، بين جوهر عثمان وما تُسبب إليه، وفرق بين أفعاله، التي لم تفهم على حقيقتها، وما أثارته هذه الأفعال من ردود، ارتكنت إلى الإشاعة وما هو قريب من الإشاعة . وواقع الأمر، كما يرى الدكتور هشام، أن المؤمنين طعنوا في الدولة التي أدارها عثمان لا في شخصه، تلك الدولة التي استولد ولاتها المراتب والتراتب الهرمي، وتزبد بعضهم، وهو حال معاوية، في استدعاء العنصر القبلي . شيء قريب من موقف المرتدين، الذين لم يرتدوا، والذين لم يطعنوا في

مبدأ الزكاة، بل في الأسلوب الدولي (الآتي من الدولة) الذي تعامل مع الذين لا يدفعون الزكاة. تترأى، في الحالين، رعية مؤمنة ترى إلى تصويب الفعل السلطوي دينياً، وإلى تماهي الفعل والأوامر الدينية. لهذا تتعزز الردة مواجهة بين سلطة دينية موضوعية وسلطة دينية مجردة، بقدر ما تستظهر الفتنة صراعاً بين سلطة قائمة وسلطة دينية مثالي.

أعطى جعيط الكتاب عنواناً فرعياً هو: «جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر». والمقصود بذلك «الصراع المؤمن» بين السلطة الدينية المتحققة والسلطة الواجب تحقيقها، من وجهة النظر الديني. فإذا كانت السياسة تتمثل، نظرياً، في شكل الوصول إلى السلطة وفي أشكال النهي والسماح التي تثبتها وتعيد إنتاجها، فإن في السلطة القائمة على تعاليم الظاهرة القرآنية ما ينشئ جدلاً، لا هروب منه، بين السياسي الذي يتوسل الديني مبتدأ له، وبين الديني الذي يتكشف معناه في ممارسات السلطة. أنتج هذا الجدل، في مخاضه الطويل، ظاهرة «القراء»، أي تلك النخبة الطهرانية، التي تقرأ كتاب الله وتفسره، وتحلم بإسلام صراطي يطبق ما جاء في القرآن بلا انزياح، ويحمل دعاة الحق على استشهاد سعيد، تجلّى في ما عرف بالتاريخ الإسلامي بـ: ظاهرة الخوارج. وعلى هذا، فإن «الردة»، على سبيل المثال، ممارسة سياسية إسلامية تسائل الإمام وتسأله، بقدر ما أن في موقف الإمام منها ممارسة سياسية أخرى، ترد على المترددين وتصوب عقيدتهم في آن. ولن تكون الفتنة، في أطوارها المتعاقبة، إلا تجسيدا مفتوحاً لجدل السياسي والديني، وللصراع الضروري الذي يحاith العلاقات معاً. كان على الإسلام المبكر، وقد انتقل إلى طور الإمبراطورية، أن يختبر إمكانياته المدهشة وأن يدخل إلى حرب أهلية ضارية، كي يعيش الاختبار، الديني دنيوياً، ويقرأ حدود الدين في المجال الدنيوي. ولعل هذا السؤال الخطير، وهو مبرر الدين ومبرر وجود المؤمنين به، هو الذي صير الفتنة ثورة نوعية، وبعث فيها دينامية استثنائية، تجلّت في فتن - ثورات لاحقة. فبعد التساؤل الديني الذي قتل عثمان، مخلفاً في ضمائر المؤمنين تأثيماً تحول إلى سؤال آخر، أشهر «القراء» نظرهم المتطهر، مواجهين الزمن العثماني بزمّن الإسلام الذهبي، مختارين نصرة علي، بظله النبوي الكبير، ومختارين لاحقاً التخلي عنه ومقاتلته. كان بين الطرفين معاوية وهو يحتكم إلى كتاب الله في معركة صفين، والإمام علي المتمسك ببيعة لا يجوز، دينياً، أن يتحرر منها أحد، وكانت عائشة الكارهة لعلي، بعد حديث الإفك، وهي تطالب بعقاب قتلة عثمان، لأن دم المسلم على المسلم حرام، وأن على المسلمين أن لا يخالفوا تعاليم الله وسنة رسوله، وكان الصحابيّان الزبير وطلحة، اللذان شكّلا مع «أم المؤمنين» ثالثاً الانتقام الإلهي، فعلى الصحابة أن يطالبوا بدم الصحابي القتييل، وكان الخوارج الذين يقاتلون جميع «الكفرة»، راضين بـ: حكم الله، لا بحكم غيره. جدّة الجميع، إذن، في مطالبة الحق، منتصرين

لعثمان أكاثوا أم كارهين له منحايزين إلى غيره، إلى أن وصل الجميع إلى « الحرب الأهلية »، ووصل معاوية إلى الخلافة واستأنف سلام المسلمين. كان النص الديني، في هذه الحالات جميعاً، مرجعاً يُستضاء به ويُقاتل من أجله، وكان الصراع في السلطة ومن أجل السلطة الحقة سبب الاجتهاد الديني، بلغة الجمع، وسبب الركون، إلى « كتاب الله » في الصراعات المتعددة.

رأى جميعاً إلى الفتنة في ديناميتها مستبعداً، ما استطاع، الاقتصادي والاجتماعي، مؤكداً، ما استطاع، جدل الديني والسياسي، الذي علا بمقتل عثمان، وانتهى بقتل الحسين وأهله في معركة كربلاء. ومع أن الفتنة كانت ذابحة جارحة كاسحة، فقد انتهت إلى ما يرضي المسلمين وينتصر للإيمانهم الذي انتصر للإسلام مبرهنة على أمرين: أن الإيديولوجيا الإسلامية السائدة هي إيديولوجيا وحدة الأمة الإسلامية، وأن إيديولوجيا الفتنة إيديولوجيا الأزمة العابرة. فقد عادت الأمة موحدة بعد انتهاء الفتنة، وأعادت توحيد ذاتها جسداً وروحاً، ذاهبة إلى زمن جديد أسلم قياده إلى معاوية، معلنة في النهاية عن انتصار عثمان على خصومه، وعن انتصار قضية عثمان، الذي أعاد إليه الأمور صورته كخليفة مسلم، لا يختلف عن سابقه. كان الفتنة التي قتلت عثمان عادت وأنصفته، بعد معارك ضرورية، مسحت عن وجه الحق غباراً شائكاً، كاد يهلك المسلمين في معركة صفين، لولا أن تداركهم الإمام. ومع أن الفتنة خلّفت مرارة استقرت في النفوس والضمائر، وأصابت أمة المسلمين بانقسامات، شاهدها الأكبر الشيعة والخوارج، فإن الفرق بين الإيديولوجيا المسيطرة وتلك المعارضة، وهو ما يقول به جميعاً، يستبقي باب الأمل مفتوحاً، فامة المسلمين تميل إلى الوحدة، قبل أن تنزع إلى الشقاق.

يصل هشام جميعاً في كتابه إلى أطروحات ثلاث أساسية: توطن الوعي الإسلامي في زمن الإسلام المبكر، اقتتال المسلمين بأدوات دينية من أجل غايات دينية، نزوع المقاتلين إلى الوحدة، لا إلى الشقاق. تستبعد الأطروحات الزينج والمصلحة ورقة الإيمان، حتى في حال البراغماتي معاوية، الذي رفع قميص عثمان، مطالباً بتطبيق ما جاء في كتاب الله، وهاجساً بامر آخر. إذا كان طه حسين يرى في أنهر الدم المراق أفعالاً إنسانية عرفتتها الشعوب في كل العصور، مهمشاً الديني رالياً الإسلام الحقيقي، فإن جميعاً يرى في الدم المتدفق آية على الإسلام الصادق واستعداد المؤمنين للشهادة في سبيله، حتى لو كان في الانتقام الإيماني ما يضر الأمة كلها على شفير الهاوية، حال « ملحمة صفين » التي لم تكتمل. غير أن المؤرخ التونسي اللامع، الذي ينتصر للتاريخ الإسلامي وينصر القدماء الذين حفظوه في روايات كثيرة، لا يلبث أن يخاصم فيه المؤرخ المدقق المسلم العادي، الذي يضع في الموروث سيرته الذاتية. عندها يكون على الإيمان الموطن في النفوس أن يجيب على أسئلة كثيرة

ينطق بها المؤرخ، ويهمس بها المسلم بصوت أسيف: إذا كان المسلم المستقر لإيمانه يرى إلى العدل الإسلامي، ولا يرى إلى غيره، فقد كان من المفترض أن ينصر المسلمون علياً وأن يخذلوا معاوية، لا لسبب إلا ذلك الذي حمل علياً على الجهاد في سياسة عادلة تتخطى القبلي والمعايير القبلية، وأمر معاوية باستعادة القبلي وتسعيه، رافعاً «المطاعن التي وُجّهت إلى عثمان» إلى تخومها العليا. يمر المؤرخ التونسي على الفرق ويصرح به، متمسكاً بـ «إيديولوجيا الأمة» «المسيطرة»، ذائداً عن تحليله «الإيماني»، الذي يرى في حديث «المصلحة» تزجراً غير نزيه يتأخم «الكارهياتور». يستمر السؤال نفسه، وقد أخذ اتجاهاً آخر، مشيراً هذه المرة إلى قريش وظلال النبوة الرائقة: كيف انتصر معاوية، ابن «الطليق» الذي لا يطاول لإيمانه إيمان علي، على الأخير ابن عم الرسول وصديقه وزوج ابنته، وكيف انتصرت قريش، التي قاتلت دعوة الرسول قتالاً شديداً، على غيرها من القبائل المؤمنة، إن كان الإيمان الموطن قاعدة يتقاسمها المسلمون جميعاً؟

ومع أن جميع قفز فوق سؤال العصبية القبلية، مطمئناً إلى وظيفة القبيلة وإلى ذلك «الالتباس» الرائع، الذي يزواج بين القبيلة والمعتقد، فإنه لا يليث، وقد خلف تسخيف طه حسين وراءه، أن يعود إلى موضوع العصبية مرتين: مرة أولى وهو يشير إلى نداء عائشة في معركة الجمل: «البقية.. البقية» الذي هو نداء جاهلي. أعطى المؤرخ ملاحظته فاصلاً كل الوقت بين عائشة وكلمة «الثار»، التي هي كلمة جاهلية، مؤثراً عليها تعبير الجنون الانتقامي أو «ثالث الانتقام الإلهي»، الذي تكون من «أم المؤمنين» والصحابيين الزبير وطلحة. بيد أن استبدال الانتقام المبارك بالثار الجاهلي لم يقتصد في دماء المسلمين، وانزل بالذين حاصروا عثمان، أو اشتبه بأنهم كذلك، مجزرة رهيبة: «ذهب ستمئة رجل لم ينج منهم سوى رجل واحد». لا يظهر الفرق واضحاً بين القصاص العادل والانتقام، حتى لو كان الأخير إلهياً، ولا بين الثار والقصاص، حتى لو أمرت به زوج رسول الله. ولعل الفرق الشاسع بين الانتقام والقصاص العادل، هو الذي أملى على طه حسين أن يساوي بين الردة والفتن. ظهرت العصبية القبلية، أو العائلية، مرة أخرى في معركة الجمل ومعركة النهروان، التي شكلت منعطفاً في تطور الفتنة، قوّض إمكانية التلاقي الحقيقي بين الأطراف المتحاربة.

أمران أساسيان يمر بهما المؤرخ ولا يثيران عنده أسئلة كثيرة، ولا ما يلزمه بتعديل أطروحاته الأساسية: الأمر الأول هو العنف الدامي الذي استبهد بالمسلمين استبداداً مروعاً، والذي يبقى عنفاً مريعاً لا تسوغه صفة الإلهي ولا تبرره صفة المقدس. ومثال ذلك قتل محمد بن أبي بكر، بعد هزيمة أنصار علي في مصر، وإدخاله في جيفة حمار وإحراق الكل معاً، علماً أن القتل هو ولد الصحابي الكبير وشقيق عائشة ومسلم لم يشكك أحد بإيمانه. وهو أمر سيتكرر بشكل أكثر بشاعة مع الحسين

بن علي وأهله. أما الأمر الثاني فيحيل على الأمة التي عصفت بها الفتنة وتجاوزتها مستعيدة، رغم المرارة والجراح، الزمن الإسلامي الذي سبق الفتنة. ومع أن الدكتور جعيط يشير إلى الفرق بين زمن علي، الذي ينتمي إلى النبوة الأولى، وزمن معاوية الذي ينتمي إلى الإمبراطورية، فإنه لا يرى في خلافة معاوية ما يستحق النقد الحقيقي، حتى لو كانت هذه الخلافة مؤسسة على الصفاء العرقي العربي وعلى قبيلة صافية هي قبيلة قريش.

ينتهي كتاب جعيط، الذي درس فتنة متعاقبة متعددة الوجوه، إلى نتائج ثلاث: قدرة الإسلام على تجاوز تناقضاته، الفتنة كحرب أهلية موسعة وكثورة عابرة أغتت وأثرت تاريخ المسلمين، انتصار المسيطر على العابر وترويض الأول للثاني، مهما كان عاصفاً وتراجيدي الأبعاد. لهذا لا يعارض الكتاب النهج الأصولي إلا لياخذ بمنهج إيماني، بينه وبين الأول قرابة وثيقة، ذلك أنه يحتفي بالأصول، متفقاً مع طه حسين، الذي فتنته بدايات العدل الإسلامي، ومفترقاً عن السيد العميد افتراقاً كلياً، فالأخير لم يَرِ ابداً استمرار الأصول المباركة في حياة المسلمين. وهذه القطيعة، الواعية لأسبابها من الصفة الأولى، أملت على المؤرخ التونسي أن يصمم كتاب حسين بأنه كتاب أديب لا كتاب مؤرخ، مواجهاً الإيديولوجيا بالعلم، كما توحى النبوة، قبل أن يُدرج في علمه التاريخي إيديولوجيته الصريحة. لهذا يتساكن في كتابه نصان، رغم اختلاف مساحة كل منهما، أحدهما نصي أكاديمي، ينسج الفتنة من روايات تاريخية مختلفة، مراعيّاً أصول البحث العلمي وموطداً البحث بحضور ذاتي فائن، وثانيهما إيديولوجي يضيف إلى الوقائع التاريخية الدامية تأويلاً يحجب دلالتها ويجود عليها بدلالات ذاتية. ويسبب هذا الإيديولوجي، المفتتح بأكاديمية حاذقة، لن ينجح جعيط في تجاوز نص الأديب طه حسين، ذلك أن الثاني ينقض الزمن الأسطوري بالزمن التاريخي، ويعلن أن الأساطير الخفيفة لا تعود.

ميز جعيط، وهو يقرأ الفتنة، بين الإيديولوجيا المسيطرة والإيديولوجيا العارضة، تاركاً للقارئ أن يعرف موقع المؤرخ فيهما، وأن يدرك أن النهج الإيماني يزجر العارض ويلوذ بوحدة الأمة الدائمة. يُذكر جعيط، في نهاية بحثه، بقول الفيلسوف الألماني هيجل: «الإسلام هو ثورة الشرق»، محرراً ربما، القول الهيجلي من تعييناته التاريخية، ومحتفظاً بالإسلام في زمن ذاتي حميم، يتقاطع مع التاريخ العالمي، حيناً، ويوازيه في معظم الأحيان.

• هامش أخير : صناعة الانتساب إلى المقدس :

حيث تحدث طه حسين عن موت عمر، كتب ما يلي : « لم يعرف المسلمون خليفة أو ملكاً بعد

عمر جعل بيت المال ملكاً للمسلمين.. ثم لم يعرف المسلمون خليفة أو ملكاً بعده عني بأمر الدين وإقامة الحدود وتأديب الناس.. ما في العرب بيت إلا دخل عليه النقص بموت عمر.. إن الإسلام كان حصناً يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه. فلما توفي عمر انشلم الحصن فالتناس يخرجون منه ولا يدخلون فيه.. والحمد لله الذي أتاح للإسلام عمر مثلاً أعلى للعدل والاستقامة في الحكم والتفوق في امره كله على من جاء ومن يجيء بعده من الخلفاء والملوك.. ص: ١٨٣ - ١٩٥.

يكشف حسين ملحمة الإسلام الرائعة في عمر، وهو إنسان، ويرى في موته نهاية الملحمة الرائعة. والفرق بين حسين وغيره أنه رأى في الإسلام المبكر ملحمة إنسانية عاشت زمنها ورحلت، وأن غيره رأى فيها ملحمة مقدسة متوالدة. والفرق بينه وبين غيره أنه وضع البداية في التاريخ وحذف منها الأسطورة، وأن غيره ألغى التاريخ بالأسطورة، وحول البداية إلى أصل مقدس، يعود بشكل تكراري، ويُقدس الذين جسدوا عودته. هكذا تتجانس العهود الإسلامية مقدسة، ويصبح الأصل بداية للدهر ونهاية له.

لا تقتصر فكرة الأصل المقدس على المسلمين، فقد عرفت ثقافات وديانات مختلفة، لأن «الأصل» يحايت كل فكر ديني. جاء في التوراة وفي «سفر الجامعة»: «ما كان فهو الذي سيكون، وما صنع فهو الذي سيصنع، فما من جديد تحت الشمس. خذ كل شيء يقال فيه: (انظر هذا جديد). تجده كان في الزمان قبلنا. ما سبق لا يبقى ذكره، ولا يبقى أي ذكر ما سيتبع عند الذين يجيئون من بعد...» (٩). يفسح تكرار المخلوق عن كماله في خلقه الأول، فكمال المخلوق من كمال خالقه، وكمال الخلق الإلهي لا يحتاج إلى حذف أو إضافة، ولحظات الخلق متماثلة لا جديد فيها: «إن كل يوم من أيام الخلق يُعلّق عليه بتكرار العبارة الملخصة: ورأى الرب النور أنه حسن». الله إذن معيار مطلق وما يراه الله خيراً في البداية يظل خيراً في النهاية. وصل الأصل الحزير الذي لا تبدل فيه إلى الإسلام ممثلاً بحديث منسوب إلى الرسول: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، خذوا القذة بالقذة، والنفل بالنفل، حتى لو كان فيهم من دخل حجر ضب لدخلتموه» (١٠). يتكلم «المواردي» على هذا الحديث ويضع نظرية في الحكم والسياسة قوامها الإمامة: «فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة وانتظمت به مصالح الأمة». يتحدّد الإمام الأول أصلاً، ويتحدّد به من تلاه ويكون صورة عنه، وتلف القداسة الأئمة في كل العصور.

لا ينبثق المقدس، نظرياً، من ذاته، إنما هو أثر لثقافة أسبغت القداسة عليه، لأن القداسة لا تحايت الأشياء، بل تضاف إليها. وإذا كانت قداسة المقدس الأصلي، أي الله، تهبط من الأعلى إلى الأدنى، فإنها في المقدس الطارئ، الذي تصنعه الثقافة، ومثاله السلطان، ترتفع من الأدنى إلى الأعلى،

حيث السلطان ظل الله، أو أنه الحضور البشري في الأصل المستعاد. يقول الغزالي : « الحضرة الإلهية لا تفهم إلا بالتمثيل على الحضرة السلطانية »، ويعيد أبو جعفر المنصور قول الفقيه : « أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوقيفه وتسديده، وأنا خازنه على فيقه، أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه. قد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحنى لأعطيائكم وقسم فيعكم وأرزاقكم فتحنى، وإذا شاء أن يقفلني قفلني (١١) ». يصبح الحاكم خليفة الله وتنسب إليه قداسته وتنسرب إلى قبيلته، وهو ما أظهره الشافعي، حين رفع قريش فوق العرب، وانتسب إلى قريش. يدور الأمر كله في عالم التماهي، إذ المقدس اللاحق صورة عن المقدس السابق، وإذ طبيعة فقيه السلطان من طبيعة السلطان، وهو ما جعل من رد الحصوص على الشافعي كفرة صريحاً، طالما أن التوسط القبلي يفضي به إلى المقدس الأول. لهذا اجتهد الإمام الشافعي في تدبير: الدليل - الأصل، وفي تبيان معنى النسب والمتوسط، مقتضياً آثار القداسة من الأدنى إلى الأعلى، ومنتهياً إلى توزيع قداسة متساوية على الأصل والفروع. كان عليه، بداهة أن يستبدل بالتاريخ الأسطورة، ناسياً معاملة قريش للنبي قبل فتح مكة، وناسياً معنى « الطلقاء » بعد فتح مكة.

ولعل تقديس الذات بالنسب المنتهي إلى الأصل المقدس، هو ما سمح لـ « عبد الله بن عباس »، أن يتوازع الأسرار الإلهية مع النبي، وأن يرى الملك جبرائيل رؤية العين، وهو أمر لم يستطعه آخرون كانوا معه حينما فعل. وهذه الصفة، التي تفصل بين « ابن عباس » وغيره من البشر العاديين، تخوله أن يعرف ما لا يعرفه غيره، وأن يفسر « الرعد » بأنه : « ملك يسوق السحاب بمقلع من فضة »، وهو تفسير ينسب إلى الرسول عليه السلام في بعض كتب الحديث (١٢). والمسألة كلها، وكما برهن عبد الرزاق عيد معتمداً على التراث، أن عبد الله بن عباس لا يؤمن في القول لأنه لم يؤمن على أموال المسلمين حين عيّن ابن عمه علي بن أبي طالب والياً على البصرة، فاحتمل الأموال مستعيناً بأخواله من بني هلال بن عامر ورحل إلى مكة (١٣). يحول عدم الأمانة التقديس الذاتي وإشاعة التقديس إلى صناعة فقهية ترضي السلاطين وتقمع رعيّتهم، فلا يمكن نقد سلطان هو ظل الله ولا التمرد عليه. وما « سلطة الإجماع » التي ترى في النقد مروقاً، إلا أثر لتحالف الفقيه والسلطان التي تبرّر خير السلطان بإرادته، وتبرر شروره بـ « العصمة الأصلية » التي ترى في الشرور السلطانية حكمة إلهية.

قادت أساطير الأصل طه حسين إلى إعلان نهاية الأصل، أي نهاية الحكم الإسلامي العادل. كان في رده ينتزع من السلفيين حججهم الجاهزة التي تواجه تداعي الحاضر الإسلامي بزمان راشدي مغاير، بقدر ما كان يرد على « اليسار المتأملف » الذي رأى في عهد عمر حكماً اشتراكياً وديمقراطياً.

والصفة الأخيرة، أي الديمقراطية، هي التي فرضت على طه حسين أن يتوقف مطولاً أمام معنى «الحكم الديمقراطي» الذي يعني حكم الشعب واشتراكه في اختيار ممثليه، وهو أمر لا يتألف مع اختيار الخلفاء. فقد كان الخليفة يُنتخب من صحابة رسول الله في المدينة، دون إشراك أهل المدينة، ولا المسلمين الذين يعيشون خارج المدينة، بل إن مجلس الشورى كان ينتهي دوره بانتخاب الخليفة، الذي يلزم جميع المسلمين بمبايعته، وعدم الخروج عنها.

يقول عزيز العظمة: «كما كانت أساطير البدء الجديدة عنوان ممارسة الحداثة الدينية في عصر الدعوة المحمدية، فإن عنوان الحداثة العلمانية في يومنا هذا هتك أساطير البداية، ووعي التاريخ والتأسيس فيه وفق سياقه العالمي» (١٤). مارس طه حسين حدائته متناوراً، وناور وهو يشرح علمانيته، وإن كان غلوه في المتناورة، بعد أن تقدم به العمر، أربك قوله في بعض الأحيان.

مراجع الدراسة:

- ١ - طه حسين: الوعد الحق، دار المعارف بمصر، الطبعة الثامنة والعشرون، ص: ١٤-١٥.
- ٢ - طه حسين: الخلفاء الراشدون، دار الكتاب اللبناني- بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٦.
- ٣ - طه حسين: في الأدب الجاهلي، دار المعارف بمصر، الطبعة الحادية عشرة، ص: ١٠-٢٠.
4. Abdallah Laroui: Islam et Histoire, ALBIN MICHEL Paris, 1999, p: 100 - 101.
- ٥ - في الأدب الجاهلي، ص: ١١٣.
- ٦ - علي عبد الرزاق: الإسلام وأصول الحكم، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٧٨، ص: ٧٥.
- ٧ - تاريخ الدولة العربية: يوليوس فلهوزن، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٥٠.
- ٨ - هشام جعيط: الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩١.
- ٩ - توماس طمس: التوراة والتاريخ، قدس، دمشق، ٢٠٠٣، ص: ٦٦.
- ١٠ - د. سعيد بنسعيد: الفقه والسياسة، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٢، ص: ٧٠.
- ١١ - ألف: مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة، العدد الثالث والعشرون، ٢٠٠٢، ص: ٥٢.
- ١٢ - نصر حامد أبو زيد: نقد الخطاب الديني، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٢، ص: ١٨٧.
- ١٣ - عبد الرزاق عيد: سدة هياكل الوهم، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٣، ص: ٧٢.
- ١٤ - قضايا وشهادات، كتاب دوري، قبرص، العدد الأول، ١٩٩٠، ص: ٣١٦.

مطالعات روائية

إعادة اكتشاف ستندال على الشوك

«إن عصرنا مدين له بالكثير»
بلزاك

استفتاء

في عام ١٩١٣ مارست إحدى الصحف الفرنسية لعبة سارت على نهجها فيما بعد معظم الصحف الأوروبية . طلبت من عدد من الكتاب البارزين اختيار أفضل عشر روايات فرنسية . وعندما تسلم أندريه جيد رسالته، شعر بشيء من الحيرة . فهو لا يشك في هوية الروائي المفضل لديه، لكنه وجد صعوبة في اختيار روايته المفضلة . كان الروائي الفرنسي المفضل لديه هو ستندال، لكن أية رواية من رواياته ؟ قال أندريه جيد : « ترددت طويلاً بين (الأحمر والأسود) ، و (دير هارم) . وفي سياق حيرتي كدت أذكر رواية (لوسيان لوفان) . . .
كلا : يبقى (دير هارم) كتاباً فريداً » .

علي الشوك، كاتب عراقي، مقيم في لندن .

ثم خص رواية (العلاقات الخطرة) لشودر لو دي لاكلو بالمرتبة الثانية، بلا تردد... وتامل. لقد فضل (دير يارم) و(العلاقات الخطرة) على أية رواية أخرى كتبت بآية لغة أخرى، لكن فرنسا لم تكن، حسب رايه، بلداً للروائيين. كان المفكرون الفرنسيون في المقدمة بلا منازع، أما الروائيون الفرنسيون فلم يكونوا، حسب رايه، أنداداً لكبار الروائيين الأنكليزي والروس. فلو لم يكن ملتزماً بشروط اللعبة التي حددت الاختيار ضمن الروايات الفرنسية، فإن نصيب الثماني الأخرى سيكون من حظ الأجانب. [واحسب أننا نخالفه حتى في المرتبتين الأولى والثانية. فمهما كان وزن دير يارم، فهي لا تنافس روايات عالمية عظيمة زكاها النقاد والقراء على حد سواء، ناهيك عن العلاقات الخطرة]. ولن ندخل في تفاصيل اختياراته الأخرى، التي لا نتفق معه أيضاً بشأن بعضها. لكننا نود أن نتوقف عند مسألة لا تخلو من أهمية، رغم ابتعادنا عن موضوع هذه المقالة، أعني بها موقف أندريه جيد من رواية (البحث عن الزمن المفقود) لمارسيل بروست، التي لم يرد ذكرها ضمن اختياراته كلها.

نعم، إن لهذه الرواية الشهيرة قصة تستحق التوقف عندها. فمن الانصاف أن نقول إن هذه الرواية (أو الجزأين الأولين منها) لم تنشر أو ينشر إلا بعد الاستفتاء الأدبي المشار إليه أعلاه، بثمانية أشهر، لكن أندريه جيد لم يكن على جهل تام بهذه الرواية، على ما يبدو، حتى قبل أن تنشر. فقد طلبت منه دار غاليمار أن يبدي رايه فيها قبل اتخاذ القرار بنشرها، بصفتها محكماً لدى الدار في ما يتعلق بنشر الروايات الجديدة، فلم يتردد. ثم نشرت عن دار غراسية. ويقال إن أندريه جيد اعترف بعد ذلك بخطأه.

لا شك أن رواية (البحث عن الزمن المفقود) عمل متائق ليس فقط بين الروايات الفرنسية، بل على صعيد الرواية العالمية أيضاً. لكن الأمر لو ترك لي، لاخترت، رواية (الأحمر والأسود) بدلاً من (دير يارم)، كأفضل رواية فرنسية، ولأعطيت (البحث عن الزمن المفقود) المرتبة الثانية. وبهذا أتفق مع الكاتب البريطاني مارتن تيرنل M. Turnell في تقديم مستندال على جميع كتّاب فرنسا، بمن فيهم بلزاك، وفلوبير، وأميل زولا، وحتى مارسيل بروست.

لكن، فلنواصل هذه اللعبة على الصعيد العالمي، كما فعل آخرون، مثل سومرست موم في كتابه (أعظم عشر روايات عالمية). لا أذكر هذه الروايات العشر كلها (فالكتاب ليس تحت متناول يدي الآن)، لكنني أذكر جيداً أن من بين هذه الروايات العشر العظيمة، كانت (الأحمر والأسود)، إلى جانب (كبرياء وهوى)، و(الحرب والسلام)، و(الإخوة كارامازوف)، و(البحث عن الزمن المفقود)، و(عوليس)، إلخ. فإذا قلصنا الدائرة إلى أعظم خمس روايات، فهل ستصمد (الأحمر والأسود)، أم ستنافسها رواية أخرى، أعظم منها؟ بقدر تعلق الأمر بي لا إشكال في الأمر؛ لأنني أستطيع أن أملا فراغ الروايات الأربع الأخرى العملاقة إلى جانبها: الحرب والسلام، والإخوة كارامازوف، وعوليس، والبحث عن الزمن المفقود. ولن أعتمد إلى تقليص الدائرة أكثر من ذلك، لئلا أصل إلى نقطة حرجية،

الشوك: إعادة اكتشاف ستندال

مع أنني أعلم أنني لن ألام كثيراً إذا بقيت منحازاً إلى هذه الرواية حتى النفس الأخيرة
ومعروف أن ستندال كان يشعر بأن رواياته تستحق أكثر بكثير مما قبلت به في أيامه. لهذا قال:
« قد أكتب شيئاً يمكن أن يتماشي مع ذوقي فقط، ويمكن أن يُعترف به كعمل فني في عام ٢٠٠٠ »
(يوميات، ٣١ كانون أول ١٨٠٤) (كان عمره ٢١ عاماً، أي أن قوله هذا لا يخلو من تبجح، وعلماً
بأنه لم يكتب رواية حتى الآن) .

وقال « إن نشر كتاب إنما هو أشبه بشراء بطاقة لجانصيب الشهرة . فرقمك قد لا يظهر أبداً، أو، إذا
ظهر، فانت كنت رحلت عن العالم » . وكانت السنوات التي اختارها ستندال في مراحل مختلفة من
حياته، كتواريخ للاعتراف بمهارته ككاتب ناجح هي: ١٨٨٠، ١٩٠٠، ١٩٣٥، ٢٠٠٠ .

بعد نشر روايته الأولى (أرمانس)، في ١٨٢٧ (وكان عمره أربعاً وأربعين سنة)، سأل ستندال
صديقه الكاتب مبرعة فيما إذا كان في (أرمانس) « من الدفء ما يكفي لإبقاء ماركيزة فرنسية
جميلة يقظة حتى الساعة الثانية صباحاً؟ تلك هي المسألة... إذا لم تكن الرواية في مستوى يستدعي
سهر الليلة، فما جدوى كتابتها؟ » .

ويبدو أن ستندال كان يشعر أنه يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، أكثر من شدة القراء إليه: كسب
ود وصداقة القراء. فرواياته كانت أشبه برسائل إلى صديق أو أصدقاء، كما عبر أحد الكتاب. قال
بول فاليري: « لم تكن قادرين قط على أن نفرغ من ستندال. ولا أستطيع أن أفكر في ثناء أكبر من
ذلك » .

ومع ذلك، نقف أحياناً على أحكام وآراء عجيبة بشأنه، وبشأن هذه الرواية أو تلك من رواياته.
فهنري جيمس، المعجب بستندال، والذي يعتبره « شخصية فريدة جداً »، اعتبر (الأحمر والأسود)
رواية لا تصلح للقراءة! ووصف سانت- بييف رواية (دير بارم) بأنها « لحبطة » . وحتى بلزاك الذي
اعجب كثيراً بهذه الرواية الأخيرة، لم تكن حماسه « للأحمر والأسود » بنفس المستوى، كما سئرى
ذلك كله، وغيره، فيما بعد. هذا في حين أن الزمن لم يزل هاتين الروايتين فحسب، بل أكد خلودهما
وأهميتهما المتجددة على مر الأيام، لا سيما (الأحمر والأسود) .

ففي الذكرى المئوية لصدور « الأحمر والأسود »، أي في عام ١٩٣٠، اعتُبر ستندال أعظم روائي
فرنسي. ولا يزال أسلوبه حياً في فن الكتابة الروائية الفرنسية. وقد سار على نهجه كتاب ناجحون
على اختلاف أهوائهم. ويقول جون بوك (أستاذ الأدب الفرنسي في جامعة كنزاس الأميركية):

لقد أرست (الأحمر والأسود) أسس الرواية كعمل كوميدي لأذع. وكان ستندال في شبابه
يطمح أن يصبح مولير القرن التاسع عشر، وشاعراً كوميدياً كبيراً. لكنه لم يوفق في كتابة شعر
فرنسي متميز، وظن أنه مُني بالفشل. لكنه لم يفشل. فقد كانت (الأحمر والأسود) أول تراجمي

« بدأت بكتابة هذه المقالة في منتصف حزيران ٢٠٠٣ » .

عصرية بأسلوب روائي، وأول كوميديا لاذعة. كانت فريدة في عصرها ونادرة في كل العصور. ولم يكن لها شبيه من قبل في أية لغة أوروبية، باستثناء الأيسلندية... كان ستندال يسعى دائماً لأن يكتب بأسلوب يبدو بالغ الأهمية. ومنذ شبابه درس النثر المؤثر، وسجلات المحاكم، والفنون التشكيلية، وفن الرسائل، والطقوس الدينية، والقانون المدني، ولغة الناس الجادين في كلامهم. في رسالة من موسكو المحترقة [في حرب نابليون] قال: «شاهدت أشياء لا يستطيع كتاب قابعون في بيوتهم أن يروا مثلها في ألف سنة».

مدخل

كنت أريد أن أكتب عن ستندال والموسيقى، وكذلك عن بلزاك والموسيقى. لكن المأساة العراقية شلّنتني عن كل شيء، وأورثنني كتابة حادة، لم أكد أبُلّ منها حتى الآن. وقبل أسابيع (*) وقع بصري على إعلان عن ترجمة إنكليزية (جديدة؟) لـ *Memoirs of an Egotist* بقلم ستندال، فلم أتردد في اقتناء الكتاب. وبعد الفراغ من قراءته، فكرت في الكتابة عنه، تاركاً اهتماماته الموسيقية، هو وبلزاك، إلى مناسبة أخرى، إذا منحت الفرصة. ولكي أضع نفسي في الصورة، أعني أن استحضر عالم ستندال، رايت أن أعيد قراءته من جديد.

ولأنني كنت ولا أزال من المعجبين جداً بستندال، فقد كنت أقرأ كل ما يقع تحت متناول يدي عنه. وكانت دار «الكاتب المصري» التي أشرف على إدارتها الدكتور طه حسين تحفنا في الأربعينات بترجمة لرواية (دير يارم). ولا أذكر أنني انبهرت بها في حينها، إما لقصور في ذوقي، أو لأن الترجمة لم تكن كاملة وأمينة، أو لسبب آخر. (لكن رأيي تغير فيها كثيراً بعد ذلك، لا سيما بعد قراءتها بالترجمة الانكليزية). ثم صدرت الترجمة العربية الأولى لرواية (الأحمر والأسود) في الخمسينات على ما أظن ضمن مشروع الألف كتاب في مصر. فكانت حدثاً أدبياً كبيراً. وقرأت ترجمتها الثانية الصادرة عن دار عويدات اللبنانية. ولا أستطيع الآن عقد مقارنة بين الترجمتين، لأن الكتابين في مكتبي ببغداد، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأن الترجمتين ربما لم تكونا أمينتين تمام الأمانة؛ فهناك كلام عن موقف جوليان سوريل، بطل الرواية، من الدين، أشك في أن المترجم العربي نقله إلى العربية، تحمّزاً من الرقابة، رغم أنه لم يكن متطرفاً جداً.

ثم التحفنا مكتبة «أوروزدي باك» العراقية في الستينات (قبل أن نحرم من هذه النافذة) بكتاب عن ستندال باللغة الانكليزية، هو مجموعة مقالات نقدية قيمة عنه، من إعداد Victor Brombert، أعدت قراءته الآن بعد أن استعمرته، مع كتب أخرى عن ستندال، إلى جانب روايتي «الأحمر والأسود»، و«دير يارم»، وروايته الناقصة (لوسيان لوفان). وقبل عام قرأت كتاباً بقلم الكاتب البريطاني (جوناثان كيتس) صدر في التسعينات، عن حياة ستندال، استمتعت به كثيراً. وكان هذا الكتاب هو الذي أثار عندي فضولاً للكتابة عن الجانب الموسيقي عند ستندال (الذي كان يشعر بالندم، والحقد على

الشوك : إعادة اكتشاف ستندال

أبيه لأنه حرمه من تعلم الموسيقى) . لكن ستندال ، روائياً ، والكتابات النقدية عنه ، استغرقاني كثيراً ، فوجدتني مستدرجاً إلى عالمه الكبير ، وحفزي ذلك على كتابة هذه المادة عنه .

ها أنذا أوطد علاقتي من جديد بروايتي المفضلة ، (الأحمر والأسود) ، ابتداء من سطورها الأولى : « قد تعتبر بلدة فير بير الصغيرة من بين أكثر القرى جمالاً في منطقة فرانك - كونييه . كونيتيه . فيبوتها البيضاء بسقوفها العالية وقرميدها الأحمر تتناثر هنا وهناك على منحدر تل ، وتغطي بها أجسام من أشجار الكستناء الضخمة . ويجري نهر Doubs بضع مئات من الأقدام تحت حصونها ، التي بناها الأسبان في الماضي ، لكن الحراب ألم بها الآن » .

تكون قراءتي الروائية عادة في ساعات الاسترخاء ، بعد العمل . (وعلمي هو الكتابة ، مع القراءة المجادة التي تتطلبها الكتابة) ، إلا إذا كانت الرواية التي أقرأها حدثاً بعد ذاته ، أو جزءاً من مشروع كتابي . مع ذلك ، أردت أن تكون علاقتي مع (الأحمر والأسود) ، الآن ، أقل « رسمية » ، أي ليست علاقة عمل بالمعنى الحرفي للكلمة ، وأكثر تزجية ، كمن يجدد عهده بعلاقة قديمة حميمة ، دون أن يمتعني هذا من التأشير بقلم الرصاص على الهوامش . لأجل هذا خصصت لها الساعات الأخيرة من ساعات قراءتي ، قبل أن أوي إلى فراش النوم . وهنا تبدأ رحلتي « الطوباوية » مع هذا العالم الذي ينتشلني من الواقع الرهيب الذي أعيشه (أو نعيشه) . ولحسن حظي أنني شعرت الآن كأنني أقرأ هذه الرواية للمرة الأولى ، مع أنها القراءة الرابعة في واقع الحال (هل أقول الرابعة والنصف ؟ فلقد سبق لي أن قرأت فصولاً منها في المرة الأخيرة) . طبعاً ، كانت تلك قراءات متباعدة ، أي بعد مرور زمن كاف لأن يستبد بك الحنين إليها . ولعل هذا يجعلني أشاطر د . هـ . لورنس رايه في أن الرواية أعظم اختراع اجتريته البشرية (هل سيغير رايه بعد اختراع الكمبيوتر والانترنت ؟) نعم ، أنا أيضاً ، أرى أن الرواية أعظم ابتكار توصل إليه البشر ، هي والموسيقى (وساجاري صديقي الدكتور ن . س . وأضيف الصابون أيضاً) . . . فانا الآن أجد يوتوبياي في قراءة (الأحمر والأسود) ، رغم أن هذه ليست قراءتي الأولى لها ، كما أشرت . « أوليس العمل الفني يوتوبيا ، وتلبية لحاجة تجد تعبيرها في الأيديولوجيا ؟ أوليس هو ، بتعبير ستندال وعد بالسعادة » ، كما يقول أرنولد هاوزر .

وأعترف بأنني منذ البدء كنت اتطلع إلى الجزء الثاني من الرواية ، رغم أنني أحرص أيضاً على أن أبقى مستمتعاً بقراءة كل كلمة من الجزء الأول ، الذي لم يقع فصله الأخير في نفسي موقعاً حسناً ؛ فانا لا أستطيع أن أهضم مشهد وصول الحب إلى شرفة أو نافذة حبيبته بعد ارتقاء سلم في الليل ، في غفلة من الخدم : وهو الفصل الذي كنت دائماً أفضل حذفه من الرواية ، لولا أن هناك ما يبرر لقاء البطل - جوليان - بمدام دي رنيال بعد تخرجه من المعهد الديني في بيزانسون ، لكن ليس بالضرورة عن طريق السلم المحمول الذي يوصله إلى نافذتها . .

أعود إلى رواية (الأحمر والأسود) وعلاقتي بها، وأقول إن سر إعجابي بالجزء الثاني منها يعود إلى غرامي بعالم الأرستقراطية، والأجواء التي تدور فيها أحداث هذه الرواية، في مرحلة استعادة الملكية بعد سقوط نابليون . وإذا كان عالم الأرستقراطية يحد ذاته أسراً، بغناه، وجماله، وذوقه، وتهذيبه الرفيع، فقد أضفى عليه ستندال، هنا، حيوية أكثر، باقحام البطل جوليان سوريل في هذا العالم، ليكون محوره، بفضل الكفاءات التي يتمتع بها، مع أنه «منبوذ» طبقياً.

ومنذ البدء، عشية التحاق جوليان بالعمل في قصر الماركيز دي لا مول، في باريس، حبست أنفاسي، عندما استهل ستندال هذا الفصل بـ «محاضرة»، أو تعليمات سيلقيها الأب بيرار على جوليان، عن عمله الجديد، سكرتيراً للماركيز، وعن سيده الماركيز نفسه، وعائلته فرداً فرداً، بطريقة أبوية صارمة، تحرك عند القارئ إحساساً طاغياً بتقرب ما سيدور على مسرح هذا القصر الأرستقراطي الباذخ، الذي سيستقبل جوليان، الشاب النحيف، الوسيم، الذي يتقن اللاتينية إتقاناً تاماً ويحفظ الإنجيل عن ظهر قلب، مع أنه ليس قساً، وإن كان يرتدي ملابس كهنوتية، وسيعامله الماركيز كواحد من أفراد الأسرة: يتناول عشاءه يومياً مع العائلة وضيوفها الأرستقراطيين، ويقوم على خدمته أحد الخدم... وهو شرط لم يكن جوليان، ابن النجار، ليفرط به أو يتنازل عنه، كما لم يُفرض على الماركيز، بالطبع، بل كان هو المبادر به.

في ختام «محاضرت» قال الأب بيرار لجوليان:

«سأتركك حراً طليقاً يومين، فلن نذهب إلى الماركيز دي لا مول إلا بعد ذلك. معظم الناس سيحمونك كفئة، في هذه الهنديات الأولى من إقامتك في بابل الجديدة هذه. شوّه سمعتك في الحال، إذا كنت تريد لها ذلك، وسأنتخلص من مهمة الحرب عليك. اليوم التالي ليوم غد، في الصباح، سيحبلك لك هذا، الخياط سترتين؛ ستمنح الصبي الذي يجربهما على قياسك خمسة فرنكات. وإلا، لا ندع هؤلاء الباريسيين يسمعون صوتك. إذا نطقت بكلمة، سيجدون وسيلة لجملك تبدو أحق. تلك هي موهبتهم. في اليوم التالي ليوم غد، كن في بيتي عند الظهر... هيا إجر، إقصر على سمعتك... فانتني شيء، إذ ذهب وأوصي لك بجزمة، وقمصان، وقبعة من هذا العنوان».

[...] ولدى رؤية جوليان، وجه الماركيز دي لا مول خطابه إلى الأب بيرار:

«هل لديك أي اعتراض على تلقي السيد سوريل دروساً في الرقص؟».

بقي الأب متحجراً

«كلا»، أجاب أخيراً «جوليان ليس قساً».

ثم ارتقى الماركيز السلم الصغير الخفي درجتين درجتين في آن، وقاد بطلنا شخصياً إلى عليّة أنيقة تطل على حديقة المنزل الواسعة... وسأله كم قميصاً أوصى لنفسه عند الخياط. «اثنين». أجاب جوليان، مرتبكاً أن يرى سيداً جليلاً يتنازل فيتحدث عن هذه التفاصيل.

«جيد جداً» قال الماركيز بسيماء جادة، وبهيرة امرأة حادة، جعلت جوليان يفكر، أردف: «جيد

الشوك: إعادة اكتشاف ستندال

جداً أوصى لنفسك باثني وعشرين قميصاً آخر. إليك راتبك لربع السنة». ويذهل جوليان عند دخوله مكتبة الماركيز، التي تحتوي على مجلدات محظورة قراءتها على الجميع، بما في ذلك المؤلفات الكاملة لفولتير: «لسوف أقرأ هذه كلها. فيا لها من سعادة». وتبدأ رحلة جوليان الجديدة، التي ستطوي في كل تفاصيلها، المهدية أقصى حدود التهذيب، على «معركة» طبقية، أبدع ستندال في عرض تفاصيلها من خلال العلاقة العاطفية، التي تنراوح بين الاسترخاء والتشنج، بين جوليان المثقف، المتقد ذكاء، لكن المتواضع نسباً، وماتيلد الأرستقراطية الفاتنة، الحاملة بكل أمجاد طبقتها الفروسية. فكانت الرواية مؤثرة بأبعادها السياسية، والاجتماعية، والعاطفية، والسيكولوجية. وكما أكد غير ناقد، إن مصدر قوتها يأتي من كونها تخاطب القارئ المعصري أيضاً، أي أنها رواية مستقبلية.

على أية حال، كان جوليان سوريل طائراً غربياً حط في قصر الماركيز دي لا مول، بمؤهلاته «الثورية»، التي تذكر بهزات الماضي. وربما كان هذا موطن سحره، عند الفتاة الأرستقراطية «ماتيلد» التي لا ترى في شبيهة طبقتها ما يوجب الخيلة، أو ما هو غريب، أو استثنائي. فتقع في حبه:

فجأة تملكته فكرة: «لقد كافاني القدر بأن أقع في الحب»، قالت لنفسها ذات يوم، وهي في حالة لا توصف من السعادة. «أنا واقعة في الحب، أنا واقعة في الحب، هذا شيء واضح! في مثل عمري، فناة شابة، وجميلة، وذكية، أين تجد سعادتها في غير الحب؟ إن بوسعي أن أفعل ما أشاء، لن أشعر بأي حب لكرواسنوا، وكيلوس، وكل الآخرين. إنهم كاملو الأوصاف، وربما أكثر من كاملين؛ لكن صفوة القول، إنهم يفضحرونني».

هكذا كانت البداية... لكنها بعد أن تطلب منه أن يوافيها إلى غرفتها في الواحدة صباحاً، عن طريق النافذة المطلة على الحديقة، بعد أن يستعمل السلم المحمول، وبعد أن تمنحه نفسها، تصد عنه، وتتغفن في إذلاله، وتعامله كحشرة.

إنها المعادلة الصعبة في التذبذب بين الحب والصدود، التي تميزت بها هذه العلاقة. المعادلة التي تجد تعبيرها في كلمات المؤلف: «ماتيلد»، بعد أن أصبحت واثقة من أنه يحبه، احتقرته بالكامل». فها لها من معادلة عاطفية عجيبة: أحبك عندما تصد عني، وأصد عنك عندما تحبني وإمعاناً في إذلاله، وإغائته، تتيح للهاثمين في حبها من شبيهة طبقتها فائقي الوسامة أن يتوددوا إليها؛ وجوليان يحضر السهرات كالكلب المنبوذ.

ثم يرى أن يتفادها رغم انسحاقه وانهياره. ويستغل فرصة الابتعاد عنها وعن القصر، بعد أن يكلفه والدها الماركيز دي لا مول بمهمة سياسية سرية إلى خارج فرنسا (كما يقع في إطار تعزيز موقع اليمين الأرستقراطي). وهناك يلتقي بدبلوماسي روسي كان من المترددين على قصر الماركيز. فيطلب

(*) مدام رولان، التي لم تنج من المعضلة، وهي صاحبة القول المأثور: «أيتها الحرية! أنتها الحرية! كم من الجرائم

اقتربت باسمك؟».

جوليان مشورته بشأن صدود أسرة قلبه. فيلقنه هذا الدبلوماسي درساً مجرباً في الحب: «كلما أظهرت عزوفك عن المرأة، ازدادت تعلقاً بك». ونصحه بأن يفتعل علاقة بامرأة أخرى. ويكتب إليها خطابات غرام زائفة من كتاب أعاره إياه.

بعد ذلك، يعود طيف جوليان فيفرض نفسه على أحلامها... وفي كافة الأحوال، قالت في نفسها: «إذا كانت هناك ثورة، فلم لا يلعب جوليان سوريل دور رولان، وأنا دور مدام رولان؟»^(٥) إنني أفضل ذلك على مدام دي ستايل...

ويجازف هذه المرة بمبادرة منه باقتحام غرفتها مساء عبر النافذة، باستعمال السلم المحمول أيضاً: «إذن هذا هو أنت» قالت له بصيغة المفرد، وتعانقا، ثم عثقت نفسها، تدمرت له من نفسها: «ادفعني لغروري الوقع. انت سيدي، أنا عبدتك، يجب أن اعتذر راكمة لأنني حاولت التمرد» وانتزعت نفسها من عنقه لتركع عند قدميه. «نعم، أنت سيدي» قالت مرة أخرى، نشوى بالحب والسعادة. «تسلط عليّ إلى الأبد، وبخ عبدتك بقسوة عندما تزين لها نفسها أن تتمرد».

بعد ذلك انتزعت نفسها من بين ذراعيه، وأشعلت شمعة، وبعد جهد جهيد أفلح جوليان في منعها من قص جانب كامل من شعرها: «أريد أن أذكر نفسي بأنني عبدتك: فإذا أنساني كبريائي اللعين ذلك، أرني هذه الخصل وقل لي: «لم يعد هناك شك في موضوع الحب، لن يهنا ما يشعر به قلبك في هذه اللحظة، لقد اقسمت بأن تطيعني، اقسمت بشرفك».

وبعد أن ترك الغرفة وهبط من النافذة على إثر حركة من غرفة والدتها، وبعد أن أعاد السلم إلى موقعه، وعاد ليصلح حوض الأزهار الذي أفسد السلم نظامه، لامست كفه خصلة شعر كاملة كانت ماتيلد قد قصتها ورمتها إليه، وقالت إليه من النافذة: «لترى ما أرسلته اليك عبدتك، إنها علامة على الطاعة الأبدية. إنني أرفض أن أصغي إلى عقلي؛ كن سيدي».

بعد مرور يوم: لدى مراجعة نفسها، قررت أنه كائن، إن لم يكن اعتيادياً، ففي كل الأحوال ليس بادياً عليه بوضوح كافٍ أنه يستاهل كل الحماقات الغريبة التي جازفت في ارتكابها من أجله. وعلى العموم، لم تعد تفكر في الحب، كانت سعة من الحب ذلك اليوم.

لا شك في أن ماتيلد «خانت» طبيقتها الأرستقراطية عندما أحبت جوليان «العامي» طبقياً. وكانت في نظر نقاد زمنها «مجنونة» أو «لا طبيعية»؛ وهذا، عندهم، «دليل» على لا مصداقية الرواية.

لكننا ينبغي أن نأخذ في حسابنا أنها لم تتمرد على أرستقراطية طبيعية (أرستقراطية القرن الثامن عشر فما قبل)، بل تمردت على أرستقراطية «مفتعلة» مستعارة، في مرحلة استعادة الملكية، بعد سقوط نابليون، أي بعد أن فقدت امتيازاتها على مدى ربع القرن الذي امتد بين اندلاع الثورة في ١٧٨٩ وسقوط نابليون الأول في ١٨١٤، والثاني في معركة واترلو في ١٨١٥، بعد هروبه من ألبا. فمدام دي رينال، أم الأولاد الذين كانوا يدرسون على يد جوليان، تقول لهذا الأخير: «إننا ندفع

الشوك : إعادة اكتشاف ستندال

عشرين فرنكاً لكل خادم لكي لا يحتزوا رقابنا إذا واجهنا مثل عام ٩٣ (تقصد عام ١٧٩٣). ويبدو أن أمثال جوليان هم المرشحون للقيام بالثورة: «لقد بوغغت مدام دي رينال بكلامه، لأن الرجال الذين اعتادت على لغاتهم كانوا يقولون دائماً إن عودة روبسبير كانت ممكنة بواسطة هؤلاء الشبان من الطبقات الأدنى الذين يتمتعون بثقافة عالية». وقد لاحظنا في أوائل السبعينات من القرن العشرين أن كثيراً من نساء الطبقة الوسطى وحتى «الارستقراطية» في بلداننا العربية كنَّ معجبات بنضال الشيوعية الفلسطينية، وبخيفارا، فماتيلد كانت رائدة في هذا «الجنون»، أو هذه «الحياة» الطبقيّة. وكان ستندال رائداً في خلق بطله كهذه. فقد كان مؤمناً بالثورة الفرنسية، ومعجباً بروبسبير، ودانتون، ثم بنابليون رغم انقلابه على الثورة، لكنه أسهم في نشر بعض مبادئها. وكذلك كان جوليان سوريل، بطل (الأحمر والأسود)، وحتى فابريس ديل دونغرو، بطل (دير هارم)، ولوسيان لوفان، بطل روايته الناقصة التي تحمل نفس هذا الاسم. ومن المعروف أن جنرالات نابليون لم يكونوا ارستقراطيين، وهو تقليد وُجد لأول مرة في تاريخ أوروبا منذ الثورة الفرنسية. فقد كان بيسبير، وجوردان ابني حلاقين؛ وكان لوفيفر، ومورتييه، وماسينا أبناء طحان، وتاجر، ويقال، على التوالي؛ وكان ثي، وأوجيرو ومورا أبناء مصلح عجلات، وخادم، وصاحب حانة على التوالي. فلم لا يكون محب ماتيلد من طبقة دون طبقته، رغم استعادة الملكية؟... أما بالنسبة لنا، نحن قراء ما بعد جيل ستندال وزمانه، فاحسب أن عصرنا لم يعد ينظر إلى الفوارق الطبقيّة بتلك الصرامة. وهذا أيضاً ما أكد عليه ستندال نفسه، في إهدائه، رواياته إلى «السعداء القلائل»، وفي اعتقاده بأن كتاباته ستجد قراءها المثاليين بعد وفاته بنصف قرن أو أكثر... مع ذلك، اعترف هو بـ «جنون» ماتيلد؛ فعلى طريقته في تمهيد أفكاره، تحدث عن جنونها: «والآن يبدو من المتفق عليه تماماً أن شخصية ماتيلد مستحيلة في قرننا، الذي هو ليس أقل فطنة منه فضيلة، وأنا أجدني أقل خشية من ترك انطباع بالاستياء بمضحي في الحديث عن حماقات هذه الفتاة المهيبة للنفس». وهذا هو سر إعجابنا الفائق بها. ورغم هذا التبرير لمصادقية حب ماتيلد، وإعجابنا بموقفها البطولي تجاه جوليان، وإعجابنا — طبعاً — بشخصية جوليان، التي تحمل أبعاداً «ثورية»، فقد أسفت أنا، كقارئ لا كناقد، لأن المؤلف أنهى حياة الماركيز دي كرواسنوا (بمبارزة) قبيل إعدام جوليان، مع أن هذا الأخير أوصى «زوجته» ماتيلد بأن تقترب بكرواسنوا بعد اعدامه هو. هذا مع اعتقادي بأن ستندال ربما كان عامداً أن يحول دون تحقيق هذه الزيجة بين كرواسنوا وماتيلد، لئلا يسير في خطى الكتاب التقليديين السابقين الذين يعيدون كل شيء إلى نصابه: الارستقراطي يقترب بالارستقراطية؛ واللقيط من أصل ارستقراطي يُكتشف نسبه الحقيقي، ولمتحق أخيراً بذويه وطبقته.

لكن من هي ماتيلد من بين النساء اللواتي تعرف عليهن ستندال؟ هل فيها أثر من عشيقته الغادرة البرت دي رومبريه، التي عرفه بها صديقه الفنان ديلاكروا، أم كليمنتن كوررال، أم جوليا رينبييري الشابة الجريفة، أم أثر من طيش الفتاة الارستقراطية ماري دي نوفيل؟ (كما تتساءل ستورم جيمسن

في كتابها عن ستندال).

وقد أعجبني تحليل ستورم جيمسن لشخصية جوليان سوريل، الذي أراه من بين أنضج ما قرأته من تحليل لهذه الشخصية الروائية الملهمة. فهي تقول: «يجسد جوليان قناعة ستندال الراسخة بأن الفرد الاستثنائي يجد نفسه مخذولاً دائماً أمام ضغوط المجتمع: إن قوة الواقع تُضعف أو تقتل طاقاته المتدفقة إذا كان عليه أن يبدأ من القعر في مجتمع ١٨٣٠. إن خلق شخصية «عامي ثائر» يتطلب من ستندال قفزة في الخيال، لذلك أضفى على جوليان مزاياه الشخصية، وحققه على السلطة والأهبة، وزهو العصامي، وحساسيته الملهمة. . لكنه [أي جوليان] لم يتمتع بمرح ستندال المعروف، ولا بنفور ستندال من الرياء، وفهمه الصارم لنفسه» (ص ١١٤ - ١١٥ من الكتاب، سيرد ذكره في قائمة المصادر).

ويؤكد شارفي P.B. Charvet أن «المقطوعات المحلية» لها سحرها، لكنها مؤهلة لأن تفقد هذا السحر. على خلاف ذلك تحتفظ (الأحمر والأسود) بطراوتها. لماذا؟ هناك سببان على الأقل. أولهما براعة ستندال في فن الحوار:

حوار ستندال لا يكشف عن مضامينه وأبعاده دفعة واحدة. إنه ينطوي على عمق لا تكتشف كل أبعاده عند القراءة الأولى. هذا الاكتشاف يتم بالتدرج. وهذا يفسر لماذا تُعتبر (الأحمر والأسود) واحدة من بين عدد صغير من الروايات التي نستطيع العودة إليها مرات بسعادة تتزايد مع الزيارات المتعاقبة. فلماذا تتزايد [هذه البهجة] بدلاً من أن تتناقص بحكم المألوفية؟ لأن الكتاب يبقى، كما كان، نقطة ثابتة، في حين نتحرك نحن في الزمن، وهذا يعني في هذا الإطار أننا نزداد غنى في التجربة. وهكذا، إذا فقدنا، في زيارتنا المتعاقبة «للأحمر والأسود» بهجة الدهشة الأولى واللهفة لما سيحدث (...)، فإننا نستطيع أن نعوض عن أكثر من تلك الخسارة بالعدد المتزايد من الاستجابات التي يحركها فينا النص والتي تأتي من الطبقات المختلفة لتجاربنا.

أما السبب الثاني لاحتفاظ هذه الرواية بطراوتها فهو أن أبطال ستندال يشاطرونه نزعة في رغبتهم لمعرفة ما في دواخلهم تمام المعرفة... أي أننا سنشغل بالعالم من خلال أعينهم، ونتحرك على نفس مستوى المشاعر. إن الفجوة الزمنية تزول ونحن نأخذ قرارات البطل أو نرفضها إن لم نتقبل قيمه. وهكذا يبدو أننا نقف داخل وخارج الأبطال في وقت معاً، ماهين بين أنفسنا وسيروراتهم السايكولوجية، لكننا نحتفظ بحكمنا النقدي على أفعالهم Charvet في كتابه: تاريخ أدبي لفرنسا، ص ٢١٠.

لقد استحوذت عليّ (الأحمر والأسود)، وأنستني (دير هارم)، التي كانت قراءتها اكتشافاً أيضاً، بالنسبة لي، بكل معنى الكلمة، وكنت أريد أن أبدأ مقالتي هذا بالحديث عنها، لأنني أعدت قراءتها قبل (الأحمر والأسود)، غير أن سحر هذه الأخيرة يبقى طاعياً عليها، في رأيي ورأي الكثيرين، رغم أن هذا يأتي مخالفاً لرأي بلزاك، الذي سنطرق إليه. ماذا أقول، آلان (دير هارم)، رغم كل ما تنطوي

الشوك : إعادة اكتشاف ستندال

عليه من جمال وروعة، أقل ريادية من (الأحمر والأسود)؟ نعم، على ما أحسب . فإذا كانت دير هارم تمثل انتعاشاً من الرواية الفروسية، التي يعتبر والتر سكوت سيد كتابها بلا منازع، فإن « الأحمر والأسود » فاتحة أو طليعة الرواية الحديثة، بكل معنى الكلمة .

أقول، إن ستندال روائي مبدع وفنان، بامتياز، مع أن رواياته تضحج بالسياسة . وهذا هو سر روعته، في رأيي . فعلى الرغم من أنه يعتبر السياسة في العمل الروائي أشبه بصوت طلق ناري في حفلة موسيقية (وهذا ربما لذر الرماد في العيون)، فإن رواياته كلها تحمل أبعاداً سياسية واضحة، من دون استثناء (دير هارم)، ذات النفس الفروسي . فهذه الرواية تتحدث عن الصراعات السياسية في إمارة إيطالية شمالية في أوائل القرن التاسع عشر بأسلوب يذكر بدسائس عصر النهضة . وصُورَ فيها الحب على غرار قصص الرومانس التي تنتمي إلى القرون الوسطى، لكن مُسقطاً على نحو بارع على إيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر . ومع أن الفيلسوف الإيطالي بَنْدُتُو كروتش (١٨٦٦-١٩٥٢) قال إن ستندال قدّم لنا « إيطاليا أحلامه » بدلاً من إيطاليا الحقيقية، إلا أن آخرين لا يتفقون معه، ربما لأن ستندال أراد أن يقول أشياء كثيرة، يستطيع إمرارها على الرقابة (الفرنسية)، من خلال جعل مسرح أحداثه في إيطاليا، مع فهم عميق للنفسية الإيطالية، لأنه كان يعرف هذا البلد جيداً، بحكم عمله، وإقامته فيه ردحاً من الزمن .

ونقاد القرن التاسع عشر، ومثلهم نقاد القرن العشرين البرجوازيون (راجياً أن لا أنعت أو أنهم بالسلفية اليسارية)، كانوا، على ما يبدو، يعتبرون السياسة في الأدب والفن شيئاً كريهاً أو منبوذاً، أو فزاعة للمستهلك الفني .

(قد يكونون على حق، إذا استخدمت السياسة بصورة فجّة) . لكن الموقف في السياسة تغير الآن، بعد انتهاء الحرب الباردة، وزوال « الخطر » الاشتراكي . وهذا يمنحنا حصانة أكبر في الكلام على السياسة، مثلما صار يفعل معظم مثقفي الغرب اليوم... ولسوف نرى كيف أن ناقداً كبيراً، كسانت-بيف يحمي أو يتعاضى عن عبقرية ستندال في (الأحمر والأسود)، لأسباب سياسية، أو لأنه كان على بين منقوده، مع أن ستندال كان أبرع بكثير من أن يجعلنا نحس بـ « ثقل » السياسة . بل لقد جعلنا نستمرئ ظلها كثيراً، ونراها مستساغة في الرواية، بقدر الحديث عن العلاقات العاطفية، لأنها كانت جزءاً لا يتجزأ من نسج معنى إذا جردناها من السياسة . فقد أنبني هيكل الرواية بكامله على ملاحقة البطل فابريس ديل دونغو لأنه اشترك في معركة واترلو، تعبيراً عن حبه للابليون . وينبغي أن لا ننسى أن ستندال كان، في هذه الرواية، وفي رواياته الأخرى، جميعها، يتحدى المنوعات (taboos)، التي من بينها حديث السياسة، والصراعات الطبقيّة، إلى جانب الدين، والجنس . وقد لامن الجنس المحرم من خلال العلاقة غير الطبيعية - النظرية فقط - تقريباً بين الدوقة جينا سنسفرينا وابن شقيقها فابريس ديل دونغو . ولا شك في أنه لم يكن يجرؤ - في زمانه - على أن يذهب أبعد من ذلك، اعني ترجمة هذه العلاقة العاطفية بين العمة وابن الأخ إلى علاقة جنسية صريحة، وهو ما ربما كان

سيفعله لو عاش في عصرنا .

وإذا كانت شخصية ماتيلد متألقة على نحو استثنائي في رواية (الأحمر والأسود) ، فإن الدوقة سنسفرينا تمثل استثناء آخر في رواية (دير پارم) . إنها بطلة غريبة في كل شيء ، لكنك تشعر أنها لا تنتمي إلى عالم آخر ، بل من صلب هذه الأرض ، سوى أنها فريدة من نوعها في الوقت نفسه . وهذه هي براعة ستندال المتميزة في رسم شخصياته الروائية . وسأحيل القراء إلى بلزاك في كلامه على هذه البطلة الروائية المذهلة . لكنني أود الآن أن أعرب عن استمتاعي الفائق بالفصل «الدراماتيكي» المتألق ، الذي يسجل فيه ستندال الحوار المتوتر ، الذي يحبس الأنفاس ، بين الدوقة وأمير البلاد المستبد :

عندما علمت الدوقة سنسفرينا بأن الأمير في صدد إصدار الحكم بإعدام ابن شقيقها ، فابريس ، الذي تعشقه ، قررت ترك البلاد ، وطلبت موعداً مع الأمير لتودعه . فظن هو أنها ستأتي لتذرف الدموع التماساً للرحمة والشفقة بابن أخيها ، وأعد المندبل لتكفكف به دموعها . وكالعادة ، وحباً في إذلالها ، أوصى حاجبه بأن يؤخرها ربع ساعة قبل أن يسمح لها بالدخول إلى صالته . وعندما أخبرته بأنها جاءت لتوديعه ، سألها عن سبب رحيلها ، فقالت : « كان هذا المشروع في ذهني منذ زمن ، غير أن إهانة صغيرة تعرض لها السيد ديل دونغو [ابن أخيها] ، الذي سيحكم عليه غدا بالموت ، جعلتني أعجل رحيلي » . فيسقط في يد الأمير ، لكنه يجيبها : « بأنه ارتكب جريمة قتل ، وتلك حقيقة لا ينفياها أحد ؛ وقد أخلت النظر في هذه المسألة إلى أفضل قضائي ... » .

عند هذه الكلمات نهضت الدوقة بكامل قامتها ، وتحلّت عن أي مظهر من مظاهر الاحترام وحتى التهذيب في رمشة عين ؛ وبدا الحق واضحاً عليها ، وبغضب وازدراء ، قالت للأمير : « إنني أترك بلادك يا صاحب السمو إلى الأبد ، لكي لا اسمع أبداً أسماء رازي [القاضي] والقتلة الكريهين الآخرين الذين أدانوا ابن أخي وآخرين كثيرين بالموت ... » وهزأت به بأدب ، بما مفاده أنه ذكي ومهذب عندما لا يضلل من الآخرين ، وأنها تلتبس بكل تواضع أن لا يذكرها بهؤلاء القضاة الشائنين الذين يبيعون أنفسهم لقاء ألف سكودي . فجعلت هذه النبذة المذهلة - وفوق كل شيء ، الصادقة - التي قيلت بها هذه الكلمات الأمير يرتعد ؛ لقد خشي للحظة من أن يرى كرامته تتعرض للاهانة ، لكنه مع ذلك أعجب بالدوقة ؛ فقد كان وجهها وقوامها يتألقان جمالاً في تلك اللحظة . وقال في نفسه « يا إلهي العظيم ! ما أروع جمالها ! ينبغي على المرء أن يتنازل أمام امرأة فريدة كهذه ، حيث لا مثيل لها في إيطاليا كلها . آه ، نعم ، مع شيء من التدبير قد يكون بالوسع أن تكون عشيقتي ذات يوم ... » .

لكن غضبه عاد إليه عندما تذكر كلماتها « أدانوا ابن أخي وآخرين كثيرين » . مع ذلك قال لها بصرامة تتماشى مع منزلته كامير : « وماذا سيكون بوسع المرء أن يفعل ليحول دون رحيل السنيورة ؟ » . أجابت الدوقة بنبرة مفعمة بالسخرية المرة والحقد الصريح : « شيئاً لست قادراً

عليه » .

هنا خرج الأمير عن طوره ، بيد أن مركزه كحاكم مطلق منحه قوة التحكم بأعصابه .

الشوك : إعادة اكتشاف ستندال

المستوفزة . وقال في نفسه : « يجب أن أمتلك هذه المرأة ، نعم ينبغي أن أفعل ذلك ، ثم فلتمت من العار . . . وإذا غادرت هذه الصالة ، فلن أراها ثانية » .

وبعد حضور عشيقها الكونت موسكا ، رئيس الوزراء ، وإصرارها على رحيلها عن يارم ، قال الأمير : « حسن جداً ، أنا أكثر الثلاثة تعقلاً ، وسأعتمد إلى إلغاء مركزي في العالم إلغاء تاماً . سأحدث كصديق . وأضاف : بابتسامة متلطفة ، مستعارة على أجمل ما يكون من أيام لويس السادس عشر المجيدة « كصديق يتكلم مع أصدقاء ، أيتها السنيورة الدوقة ، ما الذي ينبغي عمله لجعلك تنسين قرارك غير المناسب ؟ » أجابت الدوقة بحسرة عميقة : « حقاً ، لا أستطيع أن أفكر في شيء ، إنني أحس بالرعب من يارم » . لم تكن في كلماتها هذه سخرية . كانت صادقة لا غير .

فقال الأمير موجهاً كلامه للكونت موسكا : « أرى أن صديقتك الفاتنة خارجة عن طورها ، وإنه لجلي جداً ، أنها تعبد ابن أخيها » . ثم استدار نحو الدوقة وبنظرة ملؤها التودد ، ويسمى من يستشهد بقول من مسرحية ، قال : « ماذا ينبغي أن يفعل المرء لإرضاء هاتين العينين الساحرتين ؟ »

كان لدى الدوقة وقت للتفكير ، أجابت بنبرة راسخة ومحسوبة ، وكأنها تُملّي إنذارها : « بوسع سموه أن يكتب لي رسالة كريمة ، كما يعرف جيداً كيف يفعل ذلك ، بوسع أن يقول لي ، إنه ليس مقتنعاً بالمرّة بذنب فايريسيو ذيل دونغو [. . .] ، وإنه سيوقع الحكم عندما يُعرض عليه ، وإن هذه الإجراءات غير العادلة لن يكون لها أي مفعول في المستقبل » .

« ماذا ، غير عادلة ! » صرخ الأمير ، محمق العينين ، وقد استعاد غضبه . « ليس هذا كل شيء » ، أجابت الدوقة ، باعتزاز روماني « بل هذا المساء بالذات » وأضافت بعد أن ألقت نظرة على الساعة « إنها الآن الحادية عشرة إلا ربعاً . هذا المساء بالذات سيوجه صاحب السمو أمراً إلى الماركيزة رافيرزي [خصمة الدوقة] بأنه ينصحها بأن تعتزل في الريف ، لتتعافى من الإجهاد الذي لا بد أنها تعرضت له نتيجة مقاضاة معينة كانت تتحدث عنها في صالونها في أول هذا المساء » .

كان الأمير يروح ويجيء كمن به مس ، وصرخ : « هل صادف أي إنسان امرأة كهذه ؟ إنها تتخلى عن احترامها لي ! »

لكن الدوقة أجابت برقة لا مثيل لها : « لم يحدث في حياتي قط أن أفكر في إظهار عدم الاحترام لسموكم يا سيدي الجليل . . . » ، الخ ، الخ . . . وفي الأخير يعطيها وعداً بما تريد . لكنه ينكث الوعد فور خروجها من القصر .

أقول ، سواء كان بالوسع أن تصدر كلمات كهذه في حضرة أمير البلاد (وهي ، على أية حال ، لم تكن من العوالم ، بل امرأة رئيس الوزراء) ، فإن كاتباً آخر ، غير ستندال ، لم يجزؤ على خلق مثل هذا المشهد . وهذا هو سر إعجابنا بهذا الكاتب ، الذي لم يكتفِ إعجابه بروبسيبير ، والذي ربما لهذا السبب كان الكثير من مثقفي جيله يعتبرونه وقحاً وصلفاً في سلوكه ، مع أنه كان معروفاً بمرحه .

والغريب أنني في الوقت الذي شعرت بأن هناك ترحلاً في بعض فصول الرواية، وبخاصة المشهد الطويل، عن علاقة فابريس الطارئة بمغنية الأوبرا الشهيرة فاوستا، والملاحقات المجانية بينه وبين عشيقها، ثم مبارزته، ومشهد المشاعل، الذي تصورته مقحماً على الرواية، فضلاً عن ترحلات أخرى، نجد المؤلف يعمد إلى ضغط أحداث الرواية في الأخير بصورة لا تتسجم البتة مع استرسالاته السابقة. ومن أغرب الأمور أن بلزك كان يفضل ضغط فصل واترلو (في مستهل الرواية) إلى بضعة صفحات، مع أن هذا الفصل هو مركز ثقل الرواية، كما أشرنا.

على أية حال، إن ظروف تأليف رواية (دير پارم) بحد ذاتها لافتة للنظر. فقد كتبها ستندال بين ٤ تشرين الثاني ١٨٣٨ و ٢٦ كانون أول من السنة نفسها، أي في غضون ٥٢ يوماً فقط، وذلك بعد أن حبس نفسه في غرفة في شارع كومارتان. ثم أرسل الدفاتر (الكبيرة) الستة إلى الناشر. ويقال إنه اتبع نفس الطريقة في تأليف معظم كتبه، حيث يكتب مسودة أولية لكل مقطع، ثم يُعْلي الصيغة النهائية على الناسخ. . . . فتقرر نشرها في جزأين. وهنا اقترح عليه الناشر تقليص الجزأين بعض الشيء لأسباب طباعية أو تتعلق بالتوزيع أو بيع النسخ، فاقضى ذلك إما أن يوازن بين الجزأين في المخطوطة الجاهزة فعلاً، أو أن يضغط بعض الفصول التي كان يشعر بضرورة إضافتها في اللحظة الأخيرة، فكانت النتيجة أنه ضغط الفصل الأخير كثيراً، فانتثر الروي المتند فجأة إلى سلسلة من الأحداث المكثفة جداً، ففي صفحة واحدة يموت ساندرينو، ابن المحبين فابريس وكليليا، وبعد ذلك بثمانية أسطر تموت أمه كليليا. ويوزع فابريس أملاكه، ويعتزل في دير. واعتزل جينا سنسقرينا الحياة في فيلا في لومبارد. ولم يُمضَ فابريس سوى سنة واحدة في الدير ثم يفارق الحياة. وبعد موته تفارق عمة الدوقة الحياة. وهذا كله في الفصل الأخير.

والحق أن بلزك هلى لهذه الرواية، ووصفها قائلاً: «كتاب رائع وجميل». وقارن بين عمله وعمل ستندال، فقال: «أنا أصنع لوحة جدارية، وأنت تصنع تماثيل». لكنه اعترف بأن البداية مملّة، واقترح على ستندال سفي طبعة ثانية سان يقلص هذه البداية إلى أربع أو خمس صفحات، كما ذكرنا، وأن يطور المقاطع المشوشة في ختام الرواية.

هذه الملاحظات وغيرها، طرحت بصورة موسعة في نشرة بلزك الدورية *Revue Parisienne*، في ٦٢ صفحة، وبعد أن أكد أن الأدب المعاصر ينقسم إلى ثلاثة أصناف: أدب الصور، وأدب الأفكار، وأدب انتقائي مؤلف من عناصر مستمدة من مصادر مختلفة اعتبر ستندال من كتاب الصنف الثاني، إلى جانب ميريم، وبيرانجي، وموسية، ونودية، وهم كتاب يكتبون، كما يقول بلزك، على نهج القرن الثامن عشر، المتمسم بالإيجاز، ووفرة الحقائق، واعتدال في الصور. وكانت (دير پارم) رائعة أدب الأفكار، وإن مؤلفها هو ماكيا فيليي جديد بحق.

عندما قرأ ستندال مقالة بلزك الطويلة غمرته النشوة لأعجاب بلزك الكبير بالرواية، ووجد لزاماً عليه أن يكتب إليه ليشكره على ثنائه هذا، ويجيبه بشأن الملاحظات السلبية الأخرى التي تطرق

الشوك: إعادة اكتشاف ستندال

إليها بلزاك. ولا تزال المسودات الثلاث لهذه الرسالة الموجهة إلى بلزاك محفوظة، ويمكن الوقوف من خلالها ليس فقط على وجهات النظر المختلف بشأنها، بل وفلسفة ستندال الاستيطيقية... وكان واضحاً من قراءة هذه الرسائل، ومن التصويريات والإحاقات الكثيرة التي سطرها على نسخة تعود إلى آخيل شاپيه، أن ستندال لم يكن مرتاحاً من (دير پارم) كما كانت عليه، وشعر أنه حتى من دون نقد زميله بلزاك القاسي بشأن نواقصها الشكلية، فإن الكتاب كان بحاجة إلى مزيد من التماسك والصلل.

اعترف بأن كُتبيته (مذكرات رجل معجب بذاته) لفت نظري إلى مسألة لم أكن أرغب أن أبدأ كلامي على ستندال بها، هي علاقته بالمرأة. لكن، لم لا، والمرأة نصف المجتمع، وهم رئيسي من هموم الرجل. ثم إنني اعتقد أن هاجس المرأة عند الفنان، قد يلعب دوراً حيوياً في مسيرته الإبداعية، مثلما يصح العكس أيضاً. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الكثير من إنجازات الفنانين يحمل أنفاس الجنس الآخر. فإذا كان البعض يرى في موسيقى موتسارت، مثلاً، نقساً انثوياً، وهو سر من أسرار عذوبته، فإن الكثير من سوناتات بيتهوفن المؤلفة للبيانو ينطق أو يلهج بحرمانات وعذابات هذا المبدع الكبير، وربما انسحقاته أيضاً تجاه نساء أحبهن، ولم يبادلنه حباً، وهو ما صبه في قوالب فنية آسرة، ليست سوناتا رقم (١٤)، المعروفة بضوء القمر، سوى واحدة من بينها. ومعروف أن سبب صدود معظم النساء عن بيتهوفن يعود إلى «قبحة» وإلى منزلته الاجتماعية المتواضعة، بالقياس إلى منزلة من أحبهن. أما ستندال فلعله شارك بيتهوفن سمة «القبح» أو افتقاره إلى الوسامة، بتعبير أقل جرحاً للمشاعر، فهل كان هذا الكاتب يعاني من حرمان عاطفي مماثل لما كان يعانيه بيتهوفن؟ لا شك في أنه كان أقل شقاء من هذا الأخير، بصدد علاقاته بالنساء، رغم حرمانه النسبي، ولا نقول حرمانه الجنسي (الذي عانى منه غوغل، الذي لم يتصل بالمرأة في حياته). فستندال كانت له عشيقات، وكان يمارس الجنس حتى مع بنات الهوى أيضاً (وهي عادة كان يلجأ إليها حتى من لم يكونوا محرومين من العلاقات مع أجس النساء، لأسباب ليس هنا موضع الحديث عنها). ويشكو - أحياناً - من أن بعض أصدقائه كان «يسرق» عشيقاته منه: «... أنا أملك موهبة خالصة في التعبير عن أذواقي فغالباً، عند الحديث عن عشيقاتي لأصدقائي، ما كنت أجعل الآخرين يقعون في حب السايقات، أو، ما هو أسوأ من ذلك، جست عشيقتي تقع في حب صديق لي أحبه. وهذا ما حدث في حالة السيدة آزور [والكاتب بروسيرا ميريعة. لقد أورتني حزناً وجزعاً أربعة أيام. وبعد أن خف جزعي، ذهبت للتمس من ميريعة أن يوفر لي هذا الألم لأسبوعين. فاجاب: «منذ خمسة عشر شهراً، فقدت أي إعجاب كنت أحمله لها. لقد رأيت جواربها متدعكة على ساقها كموس حقيقة...».

ويعترف أيضاً (في يوميات رجل معجب بذاته): لقد كنت على قاب قوسين من السعادة في ١٨٢٤. عندما كنت أكر في فرنسا في أثناء الست أو السبع سنوات التي أمضيته في ميلان، يحدوني أمل كبير بأنني لن أعود إلى باريس المدنسة بأل بوربون، أو يقينا فرنسا، قلت في ذات

نفسى: «إن امرأة واحدة من شأنها أن تجعلني أغفر لذلك البلد، الكونتيسة بيرتوا. لقد أحبتها في ١٨٢٤. وصرنا نفكر في بعضها بعضاً منذ أن رأيتها حافية القدمين في ١٨١٤ [...] حسن كانت مدام بيرتوا في الريف في منزل صديقتها، مدام دولنيي. وعندما قررت أن أبوح بسري لمدام دولنيي، قالت لي هذه: «كانت مدام بيرتوا بانتظارك. لقد تركتني قبل البارحة فقط لأن شيئاً رهيباً حدث: لقد فقدت إحدى بناتها الساحرات».

ثم يقول ستندال: إن هذه الكلمات الصادرة عن شفتي امرأة حساسة كمدام دولنيي، لها تأثير كبير. في ١٨١٤ قالت لي: «إن مدام بيرتوا تعتبرك جديراً بالاهتمام». وفي ١٨٢٣ أو، ٢٢، كانت مدام بيرتوا من اللطف بحيث أنها أحبتني قليلاً. وقالت لها مدام دولنيي ذات يوم: «إن عينيك تستقران دائماً على بيل [الاسم الحقيقي لستندال]، لو كان صاحب قوام أطول، وأرق، لكان صارحك منذ مدة طويلة بأنه يحبك».

وهذا هو بيت القصيد، فهو يعلم جيداً أنه يفتقر إلى الوسامة. كان مربوع القامة، أميل إلى القصر، منتفخ الوجنتين، ذا شعر أجعد واسنان قبيحة. وحسب وصف صديقه الكاتب بروسير ميريم، كان «بديناً قصيراً، ممتلئ الجسم، مفعماً بالحياة». وفي لحظة بوح ذاتي قال هنري بيل [ستندال]: «هل تصدق؟ كنت أتمنى لو أردتي قناعاً، وسيسعدني أن أغير اسمي. إن كتاب (الف ليلة وليلة)، الذي أعشقه، يشغل أكثر من ربع افكاري.. سأكون في غاية السعادة لو غيرت نفسي إلى رجل ألماني، اشقر، مديد القامة، وأنجول في باريس بهذه الهيئة».

في شبابه نصحه خاله:

«يا صديقي، هل تعتقد أنك فني لامع، أنت مفتر بنفسك بصورة لا تحتمل بسبب نجاحك في دروس الرياضيات، بيد أن أيّاً من هذا ليس ذا شأن. إن الوسيلة الوحيدة للنجاح في العالم هي عن طريق النساء. لكنك قبيح، بيد أن الناس لن يؤنبوك على قبحك، ما دامت أساليبك تنطق بملاحة. وعلى أية حال، إن عشيقاتك سيرتكك، لكن تذكر هذا: عندما يشعر المرء بأنه سيهجر، فسيعتقد بأنه سيكون مدعاة للسخرية. بعد ذلك، لن يصلح الرجل لأي شيء سوى أن يُرمى إلى الكلاب، وذلك في نظر النساء الأخريات. وبعد الأربع والعشرين ساعة التي تمر على هجرانها إياك، اكسب ود خادمة».

ثم يعقب هنري بيل: كان يمكن أن أكون سعيداً لو التزمت بنصيحة هذا المعلم البارع في فن التكتيك! فكم فرصة ناجحة ضيقت؟ وكم مذلة تعرضت لها! (مذكرات معجب...)

في عام ١٨٣٥ تعرف ستندال على عائلة إسبانية أرستقراطية بواسطة صديقه بروسير ميريم. فتعلقت طفلتا هذه العائلة، ماريا فرانسيسكا، وماريا يوجينيا بستندال، يوم كان عمرهما إحدى عشرة سنة، وعشر سنوات على التوالي. ويومذاك قال ستندال لهما: «أحبكما لأنكما طفلتان. أما عندما تكبران فستصبحان مثل كل النساء ولن أحبكما بعد ذلك». ومع ذلك كانت البنتان تعبدانه.

الشوك: إعادة اكتشاف مستندال

وقد كُتبت الكبرى لاميها: «تعرفنا على رجل يدعى السيد بيل، إنه رجل ساهر ولطيف جداً معنا. في أيام نابليون كان موظفاً في القصر ويقوم بكل أعمال الامبراطور، وكان يروي لنا عن كل ما كان يحدث في الامبراطورية». وتركت لقاءاته كل يوم خميس عند يوجينيا الصغرى انطباعاً لم تنسه. ثم شاعت المصادفات ان تتزوج يوجينيا بعد موت مستندال بعشر سنوات من ابن أخ بوناپارت، الامبراطور نابليون الثالث، وتكون من المعجبات بأدب مستندال، وتقول لأحد أقرباء زوجها: «هل أتذكر السيد بيل؟ كان أول رجل جعل قلبي ينبض، وبأي عنف»

ومثلما جعل لودفيغ فان بيتهوفن من سوناتاته سقراً له لدى محبوباته من بين الأرستقراطيات الفاتنات، اللواتي كان يوسعهن، جميعهن، عزف هذه السوناتات التي ينطق بعضها بحبه المتيم بهن وانسحاقاته تجاههن، دون علمهن، كانت روايات مستندال جواز مروره إلى المجتمع، والنساء بصفة خاصة، وربما قفازه الاستيطقي، الذي يتحدث به المجتمع والصالونات الأرستقراطية التي ينبغي ان تعلم سيداتها وأساتات الفاتنات ان هذه العبقريه هي خير من معة أمير (بمنطق بيتهوفن)، لأنها تقدم للبشرية كنزاً جمالية لا تعوض ثمن، وهي خير مصدر لسعادة الاجيال القادمة: «إنني أمل ان أقرأ في ١٩٠٠ من قبل النساء اللواتي أحبهن، من موازيل رولان، وميلاني غيلبر...» اللواتي كنّ جوهر حياته. فقد كان هنري بيل يتردد إلى صالونات النساء، ويحاول ان يبدو المعبأ في أعينهن، هن اللواتي يشعر بأنه مدينٌ إليهن بأقصى مباحجه، وكن شاغله الأكبر، وكان يؤثر حبهن على أية صداقة، وصداقتهن على صداقة الرجال. ولعل النساء كن أكبر إلهام لمؤلفاته، اذا اخذنا بعين الاعتبار ان أبطاله كانوا نسخاً منه، في إطار ما. لذلك كان يشعر انه يكتب من أجلهن ولهن.

وتعرف على شابة (جوليا رينييري) من أصل إيطالي، كانت تقيم مع وزير من توسكاني مقيم في البلاط الفرنسي، في السبعين من عمره، ادعى أنها ابنة اخته، لكنها قد تكون ابنته. واصبحت عشيقه مستندال.

في تلك السنة، في باريس، كان يكتب بهمة فائقة، ونشر ثلاث قصص متميزة في Revue de Paris، التي قدمه الفنان ديلاكروا إلى محرريها. وكانت بطله إحداهما، فانتينا فانيني، بمثابة خريشة أولية لشخصية ماتيلد دي لامول.

تقول سيمون دي بوفوار: الحب، أو بكلمة أخرى، المرأة، هي التي تعطي معنى للأشياء في الحياة: الجمال، والسعادة، والمشاعر الحساسة، والعالم الجديد. إنها تقتلع روح الرجل، وبالتالي تجعلها في متناول يديه، إن الحب يشعر [...] أنه أكثر أصالة مما هو عليه في حياته الاعتيادية [...] المرأة هي: الاختيار، والمكافأة، والقاضي، والصديق، في نظر مستندال. وهو ما حاول هيفل في لحظة ما ان يتوسمه فيها: وهو وعي الآخر الذي يمنح الشخص الآخر في اعتراف مقابل الحقيقة نفسها التي تستلمها منه.

لكن هذا كله يفترض مسبقاً أن المرأة ليست مجرد شخص آخر: إنها كائن بحكم حقها الشخصي.

ولم يحصر ستندال نفسه في النظر إلى بطلاته كدوالٍ لأبطاله [بمعنى تابعات]: إنه يمنحهن مصيراً خاصاً بهن. بل لقد جرب محاولة نادرة، محاولة لا اعتقد - والكلام لسيمون دي بوڤوار - أن روائياً قبله جربها: لقد اسقط نفسه [بالمفهوم الهندسي] في صورة شخصية انثوية. إنه لا يحوم حول لاميل Lamiel مثل ماريكو حول ماريان، أو ريتشاردسون حول كلاريسا هارلو، إنه يحدد مصيرها مثلما حدد مصير جوليان، كما تقول دي بوڤوار.

وأحسب أن «عقدة» ستندال العاطفية تهون أمام عقده السياسية. فهذه الأخيرة كانت هاجسه الأكبر، أو الأراس. ودلينا على ذلك الأسماء المستعارة الكثيرة جداً، التي كان ستندال يلجأ إلى الاختباء وراءها، فهي تلقي ضوءاً على علاقته بمجتمعه، أو بالسلطة الفرنسية في أيامه، لا سيما بعد انحسار الأفكار الثورية. لقد استعمل ستندال في كتاباته، في غضون حياته التي لم تتجاوز التسعة والخمسين عاماً، زهاء مئتي اسم مستعار، كان أحدها فردريك ستندال، أو ستندال باهجاز، الذي صرنا نعرفه به. أما اسمه الحقيقي فهو هنري بيل Henri Beyle. ولم يكن ذاك استجابة لنزوة أو نزوات، بقدر ما كان لتضليل الرقابة الحكومية التي كانت تترصد كتاباته. وبوسعنا أن نقدر كم اضطر، رغم ذلك، إلى التنازل عن بعض أفكاره لأجل أن تجوز على الرقابة، تلك الرقابة التي كانت تلاحقه في رسائله وأوراقه الخاصة. وقد جعلته هذه الهواجس، إلى جانب حساسيته المفرطة، يلجأ في دفائره وتعليقاته التي لا حدة لها على هوامش الكتب التي يقرأها، إلى التعليق باللغة الانكليزية، تلك اللغة التي لم يتقن ادائها الشفهي على نحو تام، لكنه كان يقرأ شكسبير بواسطتها مباشرة. على أن هنري بيل لم يكن ثورياً جماهيرياً. كان ثورياً أرستقراطي المزاج. لأجل هذا كان يوقع معظم مؤلفاته الأدبية بالاسم التيوتوني [الجرماني] المستعار «بارون دو ستندال».

عصره

مر ستندال في حياته بمرحلتين: مرحلة الثورة (الفرنسية) التي اندلعت في ١٧٨٩ عندما كان عمره ست سنوات، مع امتداداتها النابليونية، التي حولت الثورة إلى تطلعات إمبراطورية، ومرحلة استعادة الملكية، التي تعتبر من وجهة نظره، ونظرنا، انتكاسة تامة لمبادئ الثورة. لكننا نرى أن نعود قليلاً إلى الوراء، إلى ما قبل الثورة، لنقف على الواقع الاجتماعي والسياسي في فرنسا، والصراع الطبقي فيها، الذي أدى إلى ثورة ١٧٨٩، لأن روايات وكتابات ستندال كلها تقريباً تحوم حول هذا الموضوع.

رغم أن فرنسا كانت أغنى دولة في أوروبا كلها، فقد كانت، مع ذلك، تعاني من إفلاس. فلا الاكليروس (رجال الدين) ولا النبلاء كانوا يدفعون ضرائب. وكلاهما انتزعا حصتهما العشرية وحق العمل القسري من الفلاحين والطبقات العاملة، فأرهق هؤلاء الآخرون بمزيد من الضرائب. ومع أن فرنسا كانت في ١٧٨٨ بلداً مزدهراً، يملك ما يعادل أكثر من نصف ثروة أوروبا كلها،

الشوك: إعادة اكتشاف مستندال

وكانت الحياة فيها أفضل من أي بلد آخر، إلا أن هذا لم يمنع العديد من المواطنين من التذمر. فالطبقة الوسطى كانت ثرية، ومثقفة، وكانت تطالب بالمزيد من المشاركة في الحكومة، وبإنهاء الامتيازات الارستقراطية. أما ما حصل فكان العكس تماماً، وعلى نحو أوهج، فمُنذ ١٧٨١ كانت الطبقة الوسطى محرومة من الترقية إلى ما فوق رتبة الملازم الثاني في الجيش، فما بالك بم بالطبقات الأخرى، الأدنى مرتبة في السلم الطبقي الاجتماعي.

وفوق كل شيء كانت الجماهير تطالب بتخفيض الضرائب التي كانت هي وحدها تدفعها، لا سيما الضرائب الاقطاعية، التي كانت من مخلفات الماضي ولم يعد لها معنى. إنه وضع يذكّر تماماً بما في إنجيل متى: «من معه يُعطي، ويزاد، ومن ليس معه يؤخذ منه».

أما الملك لويس السادس عشر فقد تبا عنه سابقه، لويس الخامس عشر، بأن من سيخلفه «سيفسد كل شيء». ومع أن لويس السادس عشر كان يحكم العرف - «معبود الجماهير»، إلا أنه كان هزاة بين الارستقراطية، التي تعتبر «فضائله» التي تذكّر بسجايا الطبقة الوسطى مدعاة للسخرية. وبعنته بصانع الأقفال. ويروى أنه كان جباناً مغلول الفؤاد، ويرتبك أمام الناس، وندراً ما كان قادراً على النطق سوى بكلمات مثل «نهارك سعيد، يا رجلي الطيب». وكان النواب يعبدونه من بعيد كإله، لكن ظنهم، من قريب، كان يخيب. وقال عنه أحدهم: «كان مظهره أخرق جداً، ويعطي للجميع انطباعاً عن صبي بدين، ضخم، سيئ التربية».

والظاهر أن الثورة كانت حدثاً لا بد منه، لأن الارستقراطية لم تجد ما يجبرها حينئذ على التخلي عن امتيازاتها، بما في ذلك تمتعها بحق عدم دفع الضرائب. فكان ذلك استفزازاً، ليس للطبقات الكادحة فحسب، بل والبرجوازية أيضاً. فقامت الثورة، وأعلن عن حقوق الإنسان، التي كانت مقدمة للدستور. وأكد هذا الإعلان على: الحرية؛ وآداب المجتمع؛ وسلامة الفرد؛ ومقاومة الاضطهاد؛ واستقلال البلاد؛ ومساهمة المواطنين كلهم في تشريع القوانين؛ وحق الجميع في الوظيفة والامتيازات. لكن الثورة شهدت صراعات عنيفة أغرقتها في حمامات دم. ومنذ بدايتها كانت عرضة للانتكاسة، بحكم عنف الصراعات والمصالح الطبقية. على أن أكبر مكسب حققته الثورة هو تشريع الدستور الجديد الذي لم تشهد مثله أوروبا برمتها. وعلى الصعيد الاجتماعي برز صوت الجماهير لأول مرة بعد أن كانوا مواطنين من الدرجة الثانية؛ وفقدت الارستقراطية امتيازاتها، وتعرضت حتى إلى التصفيات الجسدية. لذلك حاول دعاة الثورة المضادة القضاء على الدستور الجديد واستعادة الاستبداد الملكي أو إعادة سطوة الارستقراطية من جديد. فرأى رويسبير شن الحرب على الارستقراطية، والظلم، والاستبداد، والخيانة. وكان يخشى أيضاً من أن يستغل القادة العسكريون الموقف ويصادروا الثورة؛ وخشية من لافايت، وكذلك من دوموربية، حذر رفاقه المواطنين من طموح ومكائد الجنرالات «لئلا يظهر في فرنسا مواطن قوي بما فيه الكفاية لجعل من نفسه سيدنا ذات يوم، إما ليلسنا إلى البلاط ويحكم باسمه، أو ليسحق الملك والشعب على حد سواء ويبني على حطامهما حكماً استبدادياً».

شرعياً، أسوأ من كل الحكومات «الاستبدادية»، كما قال روبسبير.

ويبدو انه لم يكن يعلم ان في حامية ما في فالنس Valence كان ملازم شاب لم يُدَّعَ لافاييت، بل بونابارت، ستؤهله مواهبه العسكرية لان يصبح جنرالاً ويصادر الثورة.

ووسط الفوضى الطاحنة، لم توفر المقصلة حتى رأس روبسبير، أحد أنزه وأخلص رجال الثورة.

ومنذ عام ١٧٩٦ كان نابليون جنرالاً في الحروب الثورية، وفي ١٧٩٩ قام بانقلابه العسكري وأطاح بحكومة المديرين (التي حكمت فرنسا بين ١٧٩٥ - ١٧٩٩). وحكم نابليون فرنسا ومعظم أوروبا في مرحلة حافلة بالأمجاد والهزائم (الهزائم بعد أن اتحدت حكومات أوروبا كلها ضده). لكن حكمه بشرّ ببعض مبادئ الثورة. لهذا تطلعت إليه آمال المثقفين المتنورين في أوروبا، بمن فيهم بيتهوفن. لكن نابليون خذلهم حين جعل من نفسه امبراطوراً. وانتهى حكمه في ١٨١٥.

في ١٨١٥ تغير كل شيء في فرنسا. لكن انتصار الحلفاء على نابليون في واترلو لم يعن تغيراً بسيطاً في نظام الحكم أو حكماً اجنبياً طويلاً؛ كان عودة الى الوضع السابق للثورة، وإلغاء للمكاسب السياسية والاجتماعية للسنوات الخمس والعشرين السابقة. وعادت أسرة آل بوربون الملكية التي أطيح بها بعد مقتل لويس السادس عشر في ١٧٩٣، الى الحكم بشخص لويس الثامن عشر، أولاً بعد تنازل نابليون في ١٨١٤، ثم في السنة التالية، بعد عودته من ألبا وهزمته النهائية في معركة واترلو، وحكم لويس الثامن عشر، عشر سنوات، حتى وفاته في ١٨٢٤، ثم تلاه شقيقه الأصغر، شارل العاشر، الرجعي. وبعد سقوط شارل العاشر في ثورة ١٨٣٠، استُبدل بـ لويس - فيليب من الفرع الأورلياني، الذي كان مفترضاً أن يصبح ملكاً دستورياً، على غرار النظام البريطاني تقريباً.

كان طبعياً، إذن، أن تشهد فرنسا في بداية العشرينات من القرن التاسع عشر، بعد الانتكاسة السياسية وتسلب الرجعية، سخطاً متعاضداً بين فئات واسعة من الجماهير والمثقفين. وشعرت هذه الفئات الساخطة بالحاجة الى تشكيل تجمعات ثورية على غرار الكاريوناري الإيطالية (السرية)، حيث يُزوّد كل فرد منهم بمسدس أو بندقية وخمس وعشرين طلقة. ومع تصلب الحكم الرجعي اكتسبت هذه التجمعات والحركات تعاطفاً متزايداً من لدن الجماهير الفرنسية، وخلقت جواً من السخط السياسي الذي تميزت به فرنسا في القرن التاسع عشر منذ سقوط نابليون وحتى قيام الجمهورية الثالثة وما بعدها.

كان عمر هنري بيل [ستندال] ست سنوات عندما رسمت الجمعية الوطنية التي تم تشكيلها حديثاً، بمصادرة الممتلكات الهائلة التابعة للكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، وجعلتها «تحت تصرف الأمة».

وفي السنة التالية تمت المصادقة على الدستور المدني للايكليروس، الذي بموجبه ينبغي تعيين الاساقفة والقسس بواسطة الجمعيات التشريعية المنتخبة، وتدفع لهم رواتب محددة من قبل الدولة. وكان «عهد الارهاب»، الذي كان نتيجة لغزو فرنسا من قبل الجيوش الاجنبية تحت قيادة دوق

الشوكة: إعادة اكتشاف ستندال

برونسفيك وتمردات الملكيين في الجنوب والغرب، موجهاً بصورة جزئية إلى الكنيسة، التي سحب اعتراف الدولة بها في ١٧٩٣. وبقيت غرينوبل [مسقط رأس هنري بيل] هادئة في أثناء الحرب الأهلية والأرهاب، بيد أن والد هنري كان ملكياً وكاثوليكياً مخلصاً؛ ويتذكر هنري كيف أن منزلهم كان يؤوي في تلك الفترة قساً وأثنين بين الحين والآخر.

وانتهى «الرعب» بعد سلسلة من الانتصارات العسكرية. ومع ذلك واجه النظام ما يُعتبر تحولاً غير متوقع. إن الانتصارات الحاسمة التي حققها دوسيه في إيطاليا ومورو في هولندن، ونهاية الحروب الثورية، كان يمكن أن تُفضي إلى تعزيز ما تم تحقيقه قبل عشر سنوات (أي بداية الثورة): تشكيل مؤسسات ديمقراطية وإبطال الامتيازات المتوارثة أو الامتيازات الخاصة بأية طائفة دينية؛ وتأسيس نظام اجتماعي على غرار ما هو قائم الآن في فرنسا. لكن بدلاً من ذلك، أصبح نابليون امبراطوراً على الفرنسيين «ببركة الله»، في احتفالات أقيمت في كنيسة نوتردام بعد عشر سنوات على الاحتفال بإلهة العقل في الكنيسة نفسها. ومرة أخرى صار يُدفع إلى القسس من خزائن الدولة، واعترف بالكاثوليكية الرومانية ديناً «للسواد الأعظم من المواطنين الفرنسيين»، بدلاً من دين الدولة الرسمي... ولم يرافق سقوط نابليون وشارل العاشر تغييرات جوهرية في العلاقة بين الكنيسة والدولة، وبقيت الكنيسة تتمتع بمعظم الامتيازات التي منحها إياها نابليون إلى أن تم إلغاؤها في ١٩٠٤.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان لكتاب شاتوبريان (عبقريّة المسيحية)، الذي نُشر قبل تنويع الامبراطور بعامين، نفوذ كبير. كان شاتوبريان ضابطاً في جيش اللاجون (الهاربين من الثورة) الذي حارب ضد الجمهورية. ومع أن (عبقريّة المسيحية) كُتبت بشيء من التجاوب مع المشتككين، وهو في توجهه العام يخالف الدوغما ومع دولة «المضارة»، إلا أنه كان بمثابة اعتذار للكاثوليكية التقليدية وهجوم على «فسسطة» القرن الثامن عشر. وكان هته الرئيسي البرهان على أن «الدين المسيحي من بين كافة الأديان القائمة، هو أكثرها شريعة، وأكثرها إنسانية، وأكثرها ملاءمة للحرية، وللفنون والآداب، وإن العالم الحديث مدين للمسيحية في كل شيء، من الزراعة إلى العلوم المجردة، ومن الملاجئ الخيرية للفقراء إلى المعابد التي بناها مايكل أنجيلو وزينها روفائيل».

وكان لهذا الكتاب تأثير على الرومانسية الفرنسية في العقود الثلاثة من القرن. فقد كان لمرتبن، وفيني الشاب، وفكتور هوغو [اليمني المتطرف في بداياته]، وسانت - بيث أشبه بنظمين لنشر شاتوبريان الخطابي. من هنا كان نفور ستندال من نشر شاتوبريان والرومانسية الفرنسية (وليس الإنكليزية والإيطالية)، كما يقول جيفري ستركلاند.

على أن الرومانسية الفرنسية الثورية انطلقت بعد ذلك من متاريس ثورة ١٨٣٠. فالعديد من مقاتلي تلك المتاريس كانوا من الجيل الشاب الذي تحدث عنه ألفريد دي موسيه في كتابه (اعتراقات

(*) الكاربناري كانوا أعضاء في منظمة سياسية سرية أُنشئت في نابولي في ١٨٠٧. ومن ١٨٢٠ - ١٨٥٠ كان هذا الاسم يطلق بصورة فضفاضة على كل من يُتهم باليوول الليبرالية.

فتى العصر)، الصادر في ١٨٣٦. أولئك الشباب الذين كانوا على استعداد للقتال حتى الموت ضد الرجعية. ومن بين أهم النتائج الفنية التي عبرت عن هذه النزعة، السمفونية الجنائزية والانتصارية للموسيقي الشاب هكتور برليوز، التي خلد بها شهداء الثورة؛ ولوحة ديلاكروا (الحرية تقود الشعوب) التي غرّضت في صالون عام ١٨٣١.

ويقول البروفسور موراز في مخططة لدراسته عن الطبقات الوسطى الفرنسية: إذا كان فولتير والانيسكلو يبيدون قد قرئوا بحماس، فذلك لأن «... قرناً من الفلسفة أمضى مطامح الطبقات المنتجة بعدد من المبادئ». وإذا كانت هذه الطبقات نفسها بعد ١٨٤٨ تسامحت مع إحياء الكنيسة، فقد كان ذلك أيضاً يتمشى مع مصالحها. فبعد مصادرة وبيع ممتلكات الكنيسة وإلغاء امتيازاتها التجارية، كفت الكنيسة عن ممارسة دور منافس اقتصادي... والمهم أن المسيحية لم تعد أكثر من شكل من أشكال الفن (أو لعل المقصود بذلك الزخرفة)، كما يقول استركلاند.

وكانت فرنسا في القرن التاسع عشر أكثر انفتاحاً للمؤثرات الأجنبية، على الصعيد الثقافي. ففي أيام نابليون درس سيموند دي سيزمونيدي، ومدام دي ستايل، وآخرون، الأدب الفرنسي بالمقارنة مع آداب أوروبا الشمالية، بمعنى أنهم تخلوا عن الموقف «القمي» للأدب الفرنسي الذي سار على نهج القرن السابع عشر في انماطه الكلاسيكية الملتزمة بقواعد معينة في الشكل والذوق كانت تُعتبر النهج العقلاني الوحيد للكمال. هذا في حين أن ستندال أكد مراراً في كتابه (راسين وشكسبير) الصادر في ١٨٢٣ أن الذوق ليس مطلقاً كما كان الكلاسيكيون يعتقدون، بل يتناسب مع كل عصر.

كان هناك تياران رومانسيان في فرنسا: «الليبراليون»، ورثوا الانيسكلو يبيدين، وهم المنضوون تحت لواء ستندال وميريمه؛ والمحافظةون الشباب، أو «الفلوتيريهون المليون»، كما أطلق هوغو ونوديه على تجمعهما. وكان الطرفان متعارضين في مواقفهما: السابقون يؤمنون بأن الأدب وسيلة للتقدم السياسي، لكنهم شديداً الحساسية تجاه المخاطر الاستيطيقية للهيمنة الشعبية التي تفتقر إلى الثقافة خشية أن يساء إلى الأدب الكلاسيكي، رغم أنه يضرهم. أما الآخرون فيتمسكون بالمواضيع والأساليب الأدبية الثورية، لكنهم يؤيدون نظاماً تصرف كأن لم يحدث شيء بين ١٧٨٩ - ١٨١٥. إن هؤلاء الذين يريدون أن يتحدثوا عن زمنهم قدموا دعماً ضمنياً للنظام الرجعي.

لكن تغيراً طفيفاً بدأ في ١٨٢٥، وأسهم الاهتمام بتحرير اليونان من الامبراطورية العثمانية، الذي ألهب حماسة الشباب في أوروبا كلها، والنضال في إيطاليا من أجل التحرر السياسي، في التقارب بين هذين التيارين الرومانسيين. وفي الوقت نفسه أصبحت مجلة *Globe*، التي عُرفت بأنها كانت تضم بين صفوف محرريها كتاباً كاربوناريين ^(٥) Carbonari، بمثابة لسان الحركة الجديدة. وقد مر هوغو من ١٨٢٢ إلى ١٨٢٨ بمرحلة من التحول الفكري والسياسي. في ١٨٢٢ كان يدعو إلى إعادة التسليح تحت لواء الملكية التقليدية؛ وفي ١٨٢٤ لم يرغب للتحالف بين الملكية والكلاسيكية الأدبية المتعقبة؛ وفي ١٨٢٦ فصل بين قصائده «السياسية» الشبابية وقصائده الذاتية بما يرقى إلى تبرة

الشوك : إعادة اكتشاف مستندال

الذمة؛ وفي ١٨٢٨ صار يدعو إلى الحرية في الفن وفي السياسة.

ويبدو أن هذه «الانتهازية» لم تنشأ عن دوافع سياسية وحدها. فمن جهة، بدأ نظام آل بوربون يصبح شبيهاً فشيئاً أقل ليبرالية؛ ومن جهة أخرى، كان الشاعر الشاب الطموح في المجتمع الباريسي الأدبي الضيق - يومذاك في عشرينات القرن التاسع عشر - يرغب في كسب ود أكثر الفئات أهمية من جمهوره، وكان هذا الجمهور رجعيًا اجتماعيًا. لذا استمرت الحشية من أن تخدش طلقة المسدس الرهافة الهارمونية الاستيطمية إلى أن ظهرت أشكال أدبية جديدة أتاحت لرجال الأدب الكتابة عن معتقداتهم الحقيقية.

في أثناء ذلك تغيرت الأذواق: فقد غزا النشر القصصي سوق الأدب. وصار لكتاب الرواية وزن في الساحة. وإذا كان الفنان في موقف مشابه لنديم البلاط، يتكئ على نزوات الظهير الأرستقراطي، أو المنحة الملكية، فلا بد أن يتزلف إلى العالم المغلق المذهب الذي يطعمه، ويقصر فنه على كتابة الشعر الاحتفالي. ومثل العديد من المؤسسات في النظام القديم، كانت هذه العبودية بمثابة حماية أيضاً، وقد تنطوي في كثير من الحالات على شيء من الليبرالية. وبين ١٧٥٠ و ١٨٣٠ أخذت حالة الكاتب تتغير تدريجياً. فهو غر ولامرتين، عندما كانا يستلمان المنح من لويس الثامن عشر، كتباً أيضاً للأنثجنسبا الباريسية الصغيرة؛ لكنهما، بعد عشر سنوات، مثل كل الزملاء الآخرين، عقدا اتفاقات مع أصحاب دور نشر، وصار النتاج يتخطى السوق القومية أيضاً.

هناك عوامل كثيرة لعبت دورها في تحول الأدب من تزجية لوقت الأغنياء إلى صناعة استهلاكية. كانت هناك ثورة تقنية في الطباعة والنشر: صناعة ورق بواسطة الماكينة، والتحرير الميكانيكي السريع، والتحسين في وسائل النقل، ذلك كله ساعد في توسيع القاعدة الجماهيرية للقراء. ففي حين كان في ١٨٢٠ اثنا من خمسة يحسنان القراءة في فرنسا، اعتبر مرسوم غيزو وقالو في ١٨٣٣ - ١٨٧٥ التعليم الابتدائي إلزامياً على الصعيد الوطني، حتى أصبح الأمي في ١٨٤٨ استثناء. وشهدت الحقبة الرومانسية صدور بواكير الدوريات الأدبية والفلسفية الكبرى. وتزامن ذلك مع «الانفجار» الصحافي. كانت هناك ١١ صحيفة باريسية يومية في ١٨١٠، ثم قفز الرقم إلى ٢٦ قبيل ١٨٤٨. وفي ١٨٣٦ دشنت La Presse، و Le Siècle عهد «صحافة الفلس» في فرنسا، تمولها الإعلانات، وأصبحت تعتمد على المبيعات الفردية إلى جانب الاشتراكات. فكانت لهذه الصحف أهمية كبيرة في تطور الرومانسية الاجتماعية، لأنها اعتمدت على الأخبار اليومية التي جعلت أصحاب القلم على تماس مع حياة كافة قطاعات المجتمع.

وقبل ذلك، ظلت المهمة بالافكار والصور الجديدة حييسة الصدور أمام العزلة الأرستقراطية المتأصلة التي كانت تتطلب من الشعراء أن يقفوا في غرام السيدات الموسرات، واللجوء إلى قلاعهن، أو قصورهن الريفية، للتأمل، والقيام برحلات باذخة. وحتى أدباء تلك المرحلة كانوا يختارون لأنفسهم ألقاباً رفيعة المستوى، بمن فيهم شاتوبريان، ودي ستايل، ودي فيني، ولامرتين، وفكتور هوغو (ينظر

بهذا: كريستوف كامبوس في فصل الرومانسية الاجتماعية من كتاب: الأدب الفرنسي وخلفيته، بدايات القرن التاسع عشر، قائمة المصادر).

وعلى الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي تفيد الاحصاءات بأن زهاء رُبع الفرنسيين لم يكونوا قادرين على شراء الخبز في ١٨٣٠. ولثلاثهم كانوا قادرين على تناول اللحم بين حين وآخر. وقبل أشد حالات الهبوط في الأجور، كانت المرأة العاملة الباريسية تحصل على ٧٥ سنتيماً لقاء عمل يومي لمدة ١١ ساعة. وكان رطل من الخبز (يكفي لشخصين لمدة يوم) يكلف ٨٥ سنتيماً في تلك الأيام.

وتشير احصائيات البوليس في أربعينات القرن التاسع عشر إلى أنه من بين تسعمائة ألف مواطن باريس، كان حوالي الثلث يكسبون رزقهم بوسائل معروفة، وهذه تتضمن الكدية والبقاء. وكانت ١٥ ألف بغي مسجلة لدى البوليس، وكانت واحدة من ثمان من أولاء تحت سن الثانية عشرة. وبين ١٨٢٠ - ١٨٣٠ كان ثلث الأطفال المولودين في باريس غير شرعيين، وربعهم مهجورين. وأكثر من نصفهم يموتون قبل بلوغهم السنة. أما احصائيات الجرائم فليست متوفرة بصورة كافية؛ بيد أن من المفيد الإشارة إلى أن السجن كان يُطعم ويُكسى ويجبر على العمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، في حين أن الرجل الحر في صناعة النسيج كان يعمل أربع عشرة ساعة ونصف دون أن يكون قادراً على إطعام أطفاله. (المصدر السابق نفسه).

هذه الخلفية عن الواقع الاجتماعي الفرنسي، كانت أرضية صالحة لنشوء الأدب الواقعي الفرنسي الذي كان ستنдал وبلزاك رائديه. وقبل أن يقتحم ستنдал الساحة الأدبية، كانت الرواية التاريخية موضحة المرحلة (فترة استعادة الملكية). في رسالة أرسلها ستنдал إلى صديق بريطاني في ١٨٢٤ جاء: «كل الكتاب الذين يتطلعون إلى الشهرة في فرنسا يكتبون على غرار [والتر] سكوت...». وبعد ذلك بشماني سنوات قفز عدد مقلدي سكوت من بين الفرنسيين بمغتي كاتب، ولم يكن مبالغاً، كما يقول فردريك غرين. كانت الرواية التاريخية تحتذب عدداً كبيراً من الكتاب الذين لم يكونوا روائيين بكل معنى الكلمة، بل مؤرخين. ففي ١٨٣٦ أعطت مجلة *Flaneur* وصفة لكتابة الرواية التاريخية، التي تنطبق على مقلدي والتر سكوت: «لكتابة رواية تاريخية، ما عليك سوى أن تصفح أرشيف إحدى المدن؛ وتقف على تقاليد وتصرفات الناس في تلك البلدة، وأحوال المؤسسات الاقتصادية، وفضائح تلك الأيام؛ ثم أضف إلى ذلك حباً فاشلاً، وأربعة أو خمسة حوادث عريضة، ومبارزة، وإغواء، وحادثي فسق، واحبك عقدة أو عقدتين، عند ذاك ستحصل على رواية درامية - تاريخية، أو شبه درامية - تاريخية...». وتقول المجلة إن مثل هذه الروايات لا تختلف إلا في النكهة المحلية والتاريخية.

وهذا ما اعترض عليه ستنдал بقوة. وفي واقع الحال كان ينفر من كل شيء له علاقة بمرحلة استعادة الملكية. وكان ينفر من الرومانسية العاطفية، أو «الجملة على الطريقة الشاتوبريانية»، على حد تعبيره. ومع أنه كان من أوائل من نبه أبناء وطنه الفرنسيين إلى جماليات الدراما الشكسبيرية، إلا أنه نأى

الشوك: إعادة اكتشاف مستدال

بنفسه بصورة باتة عن الغلو الميلودرامي والهوغوي [نسبة إلى هوغو] للشئل الرومانسية. وكان على معرفة جيدة بالأدب الانكليزي. وفي شبابه أعجب كثيراً باللورد بايرون، الذي التقى به في ١٨١٦، وجعله في مصاف نابليون، والنحات كاتونفا، من التقى بهم من العظماء. ومثل ديكرات، الذي كان معجباً به، اكتشف أن ثلاثة أرباع مما يُفترض في أنها «حقائق» يتبناها الناس الاعتياديون دون تمحيص، هي أشياء غير صحيحة. وكان يعتقد أن الضعف الأساسي عند الإنسان هو افتقاره إلى عنصر الخلاص الثقافي. وفي رواياته صور الحياة كفوضى خارقة، وكوميديا إنسانية لا يعرف فيها أي من المثلين أدوارهم ولا ينطقون بما نتوقه منهم. ذلك أن معظم الكائنات البشرية لا تنصرف عن منطق أو تفكير بل عن عاطفة (ينظر بهذا فردريك غرين: روايون فرنسيون من الثورة حتى هروست، ص ١٢٣ وما بعد، قائمة المصادر).

في الكلام على الواقعية الاشتراكية في الرواية، غالباً ما يستشهد النقاد بتعليق موجه إلى القارئ من الراوي في (الأحمر والأسود): «بما أن الرواية مرآة، فإنه [الراوي] لن يعكس سوى ما يرى: إذا كان الطريق موحلاً، فلن نلومه هو ولا الطريق، بل الموظف المسؤول عن الوحل».

لم يجانب مستدال الصواب حين قال إن «سجل العام ١٨٣٠»، وهو العنوان التفصيلي لرواية «الأحمر والأسود»، سيثير استياء جمهور من القراء يتألف في معظمه مما يدعوه مستدال الأرستقراطية الخاملة والبرجوازية محدثة النعمة: جمهور يرتاح لسوداوية شاتوبران، وميلودراما هوغو، وعاطفية جورج صاند، على خلاف «السعداء القلائل»، إن قراء كهؤلاء نادراً ما يفضلون رواية فيها مواقف، وتصرفات، وأحداث مشحونة بالأبعاد السياسية والأيدولوجية. ورغم تأثير أجواء باريس الممدوقة عليه، فقد وجد مجتمع فرنسا بعد واترلو [سقوط نابليون] ضيق الأفق، ولبليداً، ومنافقاً، فكان ورثاً نادراً للتنويرية الفرنسية، بعقل تحليلي وحساسيات جمالية، نهلت من طبيعية روسو، وعقلانية كوند ياك وهلفيتوس المادية، ودهاء فولتير وديدرو الساخر.

ففي حين كان ينظر إلى الإنسان كحيوان اجتماعي، فهو حريص جداً على الغور في ذلك العالم من المشاهد الأكثر تعقيداً وغموضاً، نعني به دراسة النفس. وإذ تجده مؤمناً بنسبية المعايير في دنيا الجمال، والأخلاق، والحقيقة، فهو أحد القلائل من بين معاصريه الذين أدركوها استقرار المؤسسات والقيم التي تحكم المجتمع؛ وهو أحد المثقفين القلائل الذين استعادوا ثقة كوندورسيه الراضخة بالتقدم البشري النهائي، مع أنه لم يجد فئة سياسية في الأفق قادرة على تحقيق تغير فعال في أيامه. كان يرى أن هناك الكثير من النفاق والانتهازية عند الجماعات السياسية «الليبرالية»، ولم يكن ساذجاً ليؤمن بالرؤى الطوباوية لجورج صاند وفكتور هوغو. وإذ تجده ضعيف الإيمان بتمجيد الطبقات الدنيا، فإن حساسيته تجاه الأذلال الذي تعاني منه هذه الطبقات الاجتماعية تأتي متماشية مع معارضته لاية فكرة عن التفوق أو التميز الطبقي المتوارث.

(يوجين شولكند، في كتاب من أعداد جون كرويكشاند، قائمة المصادر)

ومثلما كان يرفض الاتكاء على التفاصيل الغزيرة لاستحضار «واقعية» المشهد، فلم يكثر كثيراً للزعة التقليدية الداعية إلى الغناء صوت المؤلف، الهاجس الذي سيشغل بال جيل تال في «جمود الحبس في مدام بوقاري». ولم ير أن الحضور الفعلي لشخص المؤلف مسيء للانطباع عن الحياة الحقيقية. هناك حالة واحدة يتعين على المؤلف أن يكون فيها غائباً عن الرواية: ينبغي أن لا يكون واضحاً أبداً أن تخرق استقلالية الأبطال (الروائيين)، أو أن مجرى الأحداث ينجم عن توجيه المؤلف، كما هو الحال في روايات هوغو. يجب أن تتطور أحداث القصة بصورة مطلقة من التفاعل بين الأبطال والأوضاع.

ونهجاً على تقليد رابليه، وسرفانتس، وستيرن، وديدرو، سخر ستندال من الدعوات القائلة بأن الرواية ينبغي أن تحقق الانطباع بالأصالة. في رواياته، يجد القارئ نفسه مدعواً لمشاركة المؤلف.

في لعبة تبدو فيها قوانين استحضار الواقعية غير صارمة، وذلك في صالح التركيز على الحبس الواقعي للحياة وجعل الرواية أكثر إقناعاً وراهنية. (يوجين شولكنند)
حياته

ولد ستندال، الاسم المستعار لمازي - هنري بيل Beyle، في غرينوبل الفرنسية في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٧٨٣، وتوفي في باريس في ٢٣ آذار سنة ١٨٤٢. وتلقى تعليمه في مسقط رأسه غرينوبل. ومن عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٠٢، وكذلك من عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨١٣ كان ضابطاً في جيش نابليون، أولاً في إيطاليا، ثم في المانيا، وروسيا، والنمسا. بعد أن أمضى في إيطاليا سبع سنوات، متابعاً اهتماماته بالفن، والأدب، والموسيقى، أُجبر على تركها في ١٨٢١ لأنه كان، حسب تقارير البوليس النمساوي «عدواً للدين، ولا قيم له، وخطراً على النظام». في باريس كرس نفسه من ١٨٢١ - ١٨٣٠ للكتابة المجادة، بما في ذلك الكتابات النقدية للصحف البريطانية، والسيرة الذاتية، والرواية، وفي ١٨٣١، تحت حكم تموز الملكي [الذي جاء بعد ثورة تموز ١٨٣٠]، عُين قنصلاً لفرنسا في تريستا، وبعدها في ميناء صغير على مقربة من روما، وهو المركز الذي شغله حتى وفاته.

كان أبوه شيرو بان بيل محامياً ومثقفاً (قارئاً) مع نزعة كاثوليكية متشددة. لكن مكتبته لم تخل من كتب تقدمية. على أن جده من جهة أمه، الدكتور غانيون، هو الذي غذى عنده حب الفضول تجاه الكتب التقدمية، فدرج على التهام أنفس الكتب، وأصبح واحداً من بين أكثر كتاب القرن التاسع عشر غنى في عالم القراءة. وفي مكتبة جده كان يجد حرية أكثر، نسبياً. وبدأ جده يوجهه للقراءة، وهو لم يكذب يبلغ العاشرة، فقرأ تراجيديات فولتير، وكتباً أخرى له.

وهناك كتب أخرى كان يقرأها في السر، ويتذكر ستندال أن نبأ إعدام لويس السادس عشر حين أُعلن في منزل جده الدكتور غانيون، كان هو يتظاهر بأنه كان يراجع دروسه، في حين أنه كان يقرأ في السر كتاب الأب بريغو (مذكرات رجل ذي منزلة)، وهو رواية تتضمن أيضاً رواية أخرى منفصلة،

الشوك : إعادة اكتشاف ستندال

هي (ماثون ليسكو) الشهيرة . وكان روسو محظوراً عليه قراءته أيضاً ، لكنه استطاع الوصول الى روايته الشهيرة جداً (ايلويز الجديدة) . ومع انه اعرب ، فيما بعد ، عن استيائه من تأثيرها على كتاب جيله ، الا انه كان لا يزال يشعر ان تأكيد الرواية على صدق العواطف ودفع المشاعر ، كان له تأثير واضح عليه في التحلي والاستقامة مهما كان الثمن كمعيار للعظمة الانسانية .

ويبدو ان رواية (العلاقات الخطرة) لشودرلو دي لاكلو أصبحت تحت تناول يد هنري عندما كان لا يزال مراهقاً ، وهي رواية عن مكائد جنسية ذكورية بمعونة وتواطؤ ومنافسة انثوية . وكان ستندال يعتقد انها ألقت في غرينوبل [مسقط رأسه] ، وأكثر إثارة من ذلك ، انه عثر على رزمة من روايات كان خاله قد ألقي بها جانباً ، بيد انها ألهمت حماسة هنري لقراءتها ، لانها من الادب المكشوف .

وقد أشار ستندال الى ان احدى هذه الروايات التي تندرج في باب ادب الاثارة ، كان لها دور في ان يتخذ قراره بان يصبح كاتباً ، مع انه في تلك المرحلة كان يريد ان يكون كاتب دراما وليس رواية . وسنسلط الضوء على الحقبة النابليونية من حياة ستندال ، لانها لعبت دوراً كبيراً في تكوين شخصيته .

كان حضور نابليون بارزاً في روايات ستندال كلها تقريباً ، واذا شقنا الحقيقة ، فان حياة ستندال كانت موازية لحياة نابليون في نقاط كثيرة .

فمثل نابليون استفاد من العلاقات الاجتماعية الرفيعة التي لعبت دوراً في تحقيق طموحه . وقد نجح ستندال في وظيفته التي ارتبطت بصعود نجم نابليون ، وسقط مع سقوطه ، كما اكد هو في يومياته . بل لقد صادف انتقال ستندال من مسقط رأسه غرينوبل في تشرين الثاني ١٧٩٩ ، الى باريس ، في اليوم الثاني لاستلام نابليون السلطة بعد انقلابه (في التاسع من تشرين اول) .

كان من مبررات ذهابه الى باريس مجاحه المتفوق في الرياضيات (كان الاول على مدرسته في غرينوبل) . ودخل معهد البوليتكنيك ، لكنه سرعان ما غير رايه ، ربما لاسباب صحية ، او لانه كان يحلم بان يصبح موليير معاصراً ، فتلقى دروساً في فن الدراما ، وحرص على ان يتخلص من لهجته الريفية . ووقع في حب ممثلة من الدرجة الثانية تدعى ميلاني لوزون ، تبعها الى مارسيليا ، وفي تلك الايام ، بدأ يكتب يوميات ، واشياء اخرى حول مواضيع اثيرة لديه . لكنه عاد الى باريس بعد ان سئحت له فرصة للعمل والتقدم في الحياة . عن طريق احد اقرباء والده المقربين ، كان نوبل دارو قريباً لابيهِ يعيش في باريس . وكان يشغل مركزاً اساسياً مهماً في غرينوبل وباريس ، وله علاقات مع الحكومة ، بما في ذلك تاليران ، وبفضل هذا القريب وولديه بيير ، وماريشال تمكن ستندال من الحصول على مركز وظيفي جيد في الدولة طوال حكم نابليون .

كان ستندال في بدء حياته في باريس (التي قدم اليها وهو في السادسة عشرة) موزعاً في اهتماماته بين الفن ، والادب ، والحب ، دون ان يحقق نجاحاً ملموساً . لكن الجنرال بيير دارو ، الابن الاكبر لنوبل دارو ، حاول ان يجعل منه ، رجلاً مثقفاً ، اما شقيقه مارشال دارو فقد كان يرافق ستندال في التجول

في شوارع باريس للمتعة والتسلية . وعلى أية حال أوجد الشقيقان له عملاً كموظف بين المئات من المكتبة في وزارة الحرب، التي كان بيير دارو أمينها العام . وكان هذا الأخير أحد أكثر الرجال نفوذاً في أوروبا (كمهندس) للبناء التحتي الواسع الذي لعب دوراً في انتصارات جيش نابليون .

وفي غرفة فسيحة مذهبة التواضد في وزارة الحرب، كان دارو يكدّ ليل نهار؛ وكان نابليون يُرعد عليه، وكان بيير دارو بدوره، يُرعد كثور على الموظفين الذين يعملون تحت ادارته . وكان ستندال يُمضي النهار كله أمام طاولة في وزارة الحرب يحرق رسائل لدارو . . . كان دارو يضغط على مرؤوسيه، وكان ستندال يرتعد خوفاً من رعب « الثور الوحشي » .

كان ستندال في تلك الايام بائساً، ففي عمره الفتى يومذاك (سبع عشرة سنة)، كان مفعماً بالاحلام المثالية في الحب والادب، لكن صرامة العمل في وزارة الحرب كانت خيبة أمل . وما زاد الطين بلة، انه لم يكن ناجحاً في عمله، اذ كان يرتكب اخطاء سببت له حرجاً . كتب في يومياته : « كان كل موظف في وزارة الحرب يرتعد لدى دخوله دائرة السيد دارو، أما أنا فكنت ارتعب حتى من رؤية الباب » .

لكن الوضع لم يدم على هذه الحال . فبفضل هذه العلاقة العائلية الحميمة وصعود نجم نابليون، تحسن وضع ستندال . فقد أعدّ نابليون العدة لمهاجمة النمسا في ايطاليا من جهة الشمال عبر جبال الالب . وهو ما يُعرف الآن بممر سان برنار الكبير . وقد تم تعيين بيير دارو مديراً للاستعراضات العسكرية، وتوجه الى ايطاليا مع نابليون . وعندما اقترح على ستندال الانخراط في الحملة كملازم ثان في المكتبة السادسة من سلاح الفرسان ويلتحق في أركان حربه في ايطاليا، استجاب بمزيد من السرور . فهنا، أخيراً، منحت له الفرصة للتعرف على العالم .

لكن ستندال لم يكن ملماً بفتون القتال، فرأى حاميه، الجنرال دارو ان يدرّبه على بعض المهارات المهمة . وبعد زيارة لمنزل جان - جاك روسو في جنيف، يتم ستندال وحاميه وجهيهما صوب ايطاليا . وكان ستندال يسير في خطى نابليون عبر الالب، بما في ذلك وقفة استراحة في نُزل سان برنار . وهنا في اثناء هذه المسيرة أدرك ان المغامرات العسكرية لم تكن كلها بطولية ورومانسية . فقد تعلم منذ هذه الرحلة ان المقاتلين لم يكونوا كلهم اولئك الابطال الذين كان يحلم ان يصبح مثلهم، فلم يترددوا في سرقة زملاتهم الجنود، واكتشف انهم غلاظ الطبع واجلاف . مع ذلك إن حبه لنابليون بدأ هنا . وقد عكس هذه المشاعر جيداً في السطور الاستهلاكية لرواية (دهر بارم)، حيث كتب (مشيراً الى حملة سابقة) : « في ١٥ أيار ١٧٩٦ ، دخل الجنرال بونا بارت ميلان على رأس جيش فني، لكنه قُبيل ذلك كان قد اجتاز جسر لودي، ولقّن العالم درساً بأن قيصر والكساندر كان لهما خلف بعد عدة قرون » .

ويبدو ان فكرة ستندال المثالية السابقة عن باريس حلّت محلها ميلان بخاصة، وايطاليا بعامه . الفن، والموسيقى، والجمامير المفعمة بالحماسة، وفي المقام الاول، النساء الجميلات، اصبح ذلك كله

الشوك : إعادة اكتشاف ستندال

موضوع ولع ستندال. وفي المسرح في ميلان رأى ستندال لأول مرة بطله وحاميه غير المباشر، القنصل الأول نابليون بونابارت نفسه. واتهج له ان يشاهد الآثار والمباني التاريخية، ومعالم الحياة البهيجة الأخرى في ميلان. وكان له حظ في العلاقات مع النساء. وفي حركاته وسكناته كافة لم يتوقف عن القراءة. بل يبدو حقاً انه أمضى وقتاً طويلاً في القراءة، فوصفه لما قرأه يشغل حيزاً كبيراً من كتاباته. أما حياته العاطفية، فقد تكللت بذلك المرض الاجتماعي الكريه، السفلس. ذلك المرض الذي سيلاحق ستندال حتى وفاته، وقد يكون هو السبب وراء اجازاته الطويلة.

ثم نسب له عمل يتماشى أكثر مع مهنة الملازم. ونُقل الى بلدة صغيرة خارج ميلان. وسرعان ما اكتشف ان الحياة العسكرية مملة، لا سيما اذا كان عمله بعيداً عن مركز ثقافي كميلان. وتملكه الملل من حياته الجديدة التي افترقت الى عالم الكتب، والثقافة، والنساء المتيسرات. ثم عاد الى غرنبول في اجازة مرضية، قدم بعدها استقالته، وعاد الى باريس.

وكانت السنوات التالية أقل من ان توصف بانها تليبي الطموح. وقد خابت مساعيه في الكتابة والعمل، والمُ به الفقر. وفي هذه الاثناء جعل نابليون من نفسه امبراطوراً، وغزا عدداً من بلدان أوروبا، واصبح قريبه بيير دارو كوتناً وجترالاً محافظاً على الجيوش الامبراطورية.

وفي ١٨٠٦ التحق ستندال بمارشال دارو [الشقيق الاصغر لبيير دارو]، الذي تسلم مهمة المحافظ للمالية في دوقية برونسفيك الألمانية.

وبعد ذلك بفترة قصيرة، اصبح ستندال نائب قوميسار الحرب لبرونسفيك. ثم رُفِع الى قوميسار الحرب. وفي ١٨٠٨ حل محل مارشال كمحافظ على المقاطعات الامبراطورية. فكان هذا العمل يتسم بأهمية كبيرة ومركز اجتماعي كبير، كما عبر عن ذلك ستندال في رسالة ارسلها الى شقيقته بولين في ايار ١٨٠٨: «قبل اربع سنوات كنت في باريس لا أملك سوى زوج حذاء واحد فيه ثقب، وبلا تدفئة في عز الشتاء، وغالب الاحيان بلا شمعة. أما هنا فانا شخصية بارزة: استلم عدداً كبيراً من الرسائل من المان يخاطبونني كمونستور، ويخاطبوني الفرنسيون بالمسيو المحافظ، واستقبل جنرالات زائرين، وتقدم إلي عرائض، وأحرر رسائل، واعتُف مرؤوسيّ من الموظفين، وأحضر دعوات عشاء رسمية، وامتطي صهوة جواد، وأقرأ شكسبير، بيد انني كنت أسعد حالاً في باريس».

وفي ١٨٠٩، نُقل ستندال أولاً الى ستراسبورغ، ثم الى فيينا. في هذه الرحلة مر بالمدينة الألمانية، ستندال، التي اتخذها اسماً أدبياً له (من بين معني اسم آخر استعملها في حياته الادبية). وكانت رحلته الى فيينا قد امدته بتجربته الاولى من فضائع الحرب. ففي مسيرته هذه، وهو يتبع خطى نابليون والخط الامامي للجيش، شاهد أولاً بأول المدن المدمرة، والجثث المتناثرة في العراء، والدمار العشوائي. وهذا نموذج مما كتبه في يومياته في الخامس من ايار ١٨٠٨:

«حتى إذا بدأنا نقطع الجسر، وجدنا جثث رجال وخيل، كان هناك لا يزال زهاء ثلاثين على الجسر؛ ووجدنا انفسنا مجبرين على إزاحة الكثير منها ورميها في النهر، الذي كان عريضاً [...]»

وكانت بلدة ابرسبرغ برمتها لا تزال تشتعل، وكان الشارع الذي مررنا به يضيح بالجنث، معظمها فرنسية وكلها تقريباً متفحمة. وبعضها كان محترقاً الى حد يتعذر التعرف على الهياكل العظمية. وفي اماكن عديدة، كانت الجنث مكدسة؛ وكنت اتفحص الوجوه. على الجسر كان ثمة المانيّ رجيّه ممدداً، كانت عيناه مفتوحتين؛ بسالة المانية، وكان الاخلاص والطيبة مرتسمين على محياه، الذي تمّ عن شيء من كآبه.

لقد استثمر ستندال وقته في فيينا جيداً. وكان يعمل بجهد لئرضي ببيير دارو وببيير حسن ظنه فيه. وفوق ذلك، عزز علاقته بزوجة ببيير الفاتنة ألكساندرين [التي سيرسم صورتها الفنان الكبير دافيد]. (ولو كان ستندال من المعجبين بيهتوفن، لربما كان سعى الى اللقاء بهذا الموسيقي الكبير الذي كان يومئذ في فيينا، رغم انه لم يرحب بالجيش الفرنسي). لكن الحنين الى باريس استبد به. وغادر الكونت ببيير دارو وألكساندرين الى باريس، ثم التحق بهما ستندال بعد ذلك بشهرين.

في فيينا التهبت مخيلته بالاحساس المفاجئ بكل ما تنطوي عليه هذه المدينة العظيمة من امكانيات واعدة. وقد اورثته كثرة النساء الجميلات في هذه المدينة إحساساً بالحزن الغريب، أخذين في الاعتبار خجله وتردده عند التقرب اليهن. « لكنني لم أجد السعادة الكاملة التي انشدها. أنا بحاجة الى امرأة تملك روحاً سامية، لكنهن كلهن مثل الروايات، يُثرن الاهتمام في إطار العقدة الروائية، وبعد ذلك يومين [بعد حل العقدة؟] سندهش إذ تكتشف أنك إنما كنت تعاشر كائناً اعتيادياً».

وتحت تأثير ألكساندرين، على ما يبدو، دبر ببيير دارو أمر تعيين ستندال فاحص حسابات قنصل الدولة. فحقق هذا لستندال مركزاً مهماً كواحد من موظفي الدولة الكبار في الإمبراطورية. والى جانب هذا المركز، كان هناك دخل محترم. وكان هذا كله لم يكن كافياً، فنُسبت اليه مهمة الاشراف على حسابات، وبنابات، وأثاث التاج. وتضمنت هذه المسؤوليات الاشراف على قصر فرساي، وفوننتبلو، ومتحف نابليون (اللوفر).

لا بد ان هذه المرحلة من حياة ستندال كانت أسعد أيامه. فهنا تسنى له ان يحقق احلامه بالاختلاط مع أرقى طبقات المجتمع. فقد كان يحضر العديد من الفعاليات الاجتماعية، واختلط بوجوه اجتماعية لامعة مثل شقيقتي نابليون، كارولين مورا، وبولين بورغيز، والأمير مترنيخ، وصوفي غي، ومدام ريكامبية، ومدام تاين، ومدام دي ستايل. وكان قادراً على مشاهدة الفنان الكبير جاك لوي دافيد وهو يرسم، لكنه يزعم انه كان قادراً على الوقوف على «سقطاته»: « منذ لحظات شاهدت دافيد يرسم. انه مجموعة من تفاهات... وفوق ذلك، ليس دافيد ذكياً بما فيه الكفاية ليخفي تفاهاته». لا شك في ان بوسع المرء القول ان هذا الطعن بواحد من اعظم فناني المرحلة الامبراطورية، يعكس قدراً معيناً من الغرور وحب الذات، كما يقول ديفد ماركهام.

ومرة أخرى، وقرله طابع نابليون فرصة جديدة، مع انها الآن لم تقترن بصعود نابليون. فقد قرّر ان الامبراطور غزو روسيا، وكان ببيير دارو في صميم الحملة. وكان ستندال، مثل نابليون، يعتقد ان

الشوك : إعادة اكتشاف ستندال

هذه ستكون سلسلة اخرى من الانتصارات السريعة، وأحب ان يشارك في هذه الحملة. فمُنح ترخيصاً للالتحاق بالجيش الكبير، وتوجه الى روسيا في الخريف. وقبل مغادرته، أنعم عليه بشرف لقاء مع الامبراطورة ماري - لويز، واتيحت له فرصة رؤية ملك روما، طفل الامبراطور الرضيع. كان هذا مؤشراً بئناً على مركز ستندال العالي، وها هو يحدث شقيقته بولين عنه في رسالة خُرت في قصر سان كلود في ٢٣ تموز ١٨١٢ :

« عزيزتي، ها أنا اغتنم الفرصة للكتابة اليك. انني خارج هذا المساء، في الساعة السابعة، الى كورنيش نهر دفيننا، لقد جئت الى هنا لاستلام اوامر من صاحبة الجلالة الامبراطورة. لقد اتعمت عليّ بالحديث معي سيع دقائق بشأن الطريق الذي يتعين عليّ ان أسلكه، ومدة الرحلة، الخ. ولدى وداعي صاحبة الجلالة ذهبت لزيارة صاحب الجلالة أمير روما؛ لكنه كان نائماً، واخبرني الدمام الكونتيسة دي مونتيكيو انه من المتعذر رؤيته قبل الساعة الثالثة، لذا كان عليّ ان انتظر ساعتين. إن الانتظار غير مريح باللباس الرسمي والمخمرات. ولحسن الحظ انني تذكرت ان مركزي كمحافظ قد يؤهلني لان اتعمد ببعض الاعتبار في القصر. فقدمت نفسي، وأدخلت الى غرفة كانت خالية ».

وشهد ستندال حريق موسكو، من الضواحي. وشعر بالارتياح بعد ان اصدر نابليون الأمر بالترجع عن موسكو. كان قبل ذلك يامل في حضور الحفلات الموسيقية في الكرملين: « يبدو وكأنني سامعي الشتاء هنا؛ أمل ان تقام حفلات موسيقية... ».

وغيّر ستندال مفوض التجهيزات الحربية، وأرسل الى سمولنسك لتجهيز المؤن للجيش المتراجع... وفي احدى المناسبات، كاد هو ورفاقه ان يُقتلوا على أيدي القوزاق، لانهم استطاعوا الهرب تحت جناح الضباب الكثيف.

كانت حال ستندال أفضل بكثير من معظم افراد الجيش الذي لم يعد عظيماً. لقد عبر نهر بريننا بعد ان وجد مخاضة مطروقة بدلاً من الجسر العائم الفارق. ولعل هذا القرار انقذ حياته وزملاءه... وواصل رحلته عبر اوروبا، ووصل الى باريس في ١٨١٣. لقد شهد أحد أكبر الاحداث في التاريخ. وبعد ذلك تبع خطى نابليون في مناسبتين اخريين. لقد أرسل الى المانيا، حيث شاهد معركة بوتزن. وقد صُنع بما شاهده من ارتباك عام وصعوبة تحديد ماذا كان يجري. ولربما كانت هذه التجربة قد أمدته بالمادة التي استعملها في وصفه الرائع لمعركة واترلو في (دير بارم).

ومن المرجح أيضاً ان هذه الحملة أتاحت له حواراً المباشر الوحيد مع الامبراطور (نابليون). وكان هو مع كتيبة من الجند، تملكها الهلع عندما هاجمها القوزاق. فلم يرحل لذلك نابليون وحقق في الأمر. ويزعم ستندال انه استُجوب شخصياً بشأن الحدث.

وشيك انهيار الامبراطورية، خدم ستندال نابليون مرة اخرى. لقد تم تعيينه للاسهام في الدفاع عن غرينوبل (مسقط رأسه) ومنطقة دوفينية. فكان نشطاً في القيام بواجبه. وبعد ذلك عاد الى باريس وشهد انسحاب الامبراطورة ماري - لويز وملك روما الصغير.

ومع السقوط النهائي لنابليون حان الوقت للتفكير في المستقبل . ففي حين كانت امام ستندال فرصة مؤاتية لقبول مركز رفيع تحت خيمة الحكومة الجديدة، الا انه رفض العيش في فرنسا التي كانت في سبيل العودة الى الحياة السابقة للثورة وعهد نابليون . وفي ١٨١٤ انتقل الى ميلان، وبقي فيها حتى ١٨٢١، حيث أبعد عنها، كما مر بنا سابقاً.

لا شك في ان ستندال استفاد كثيراً من مغامراته النابليونية . فمن ذاك الفتى المتهور، الذاتي، اللامسؤول، الذي كان اهام استلمه الاخوان دارو، اصبح انساناً أكثر حكمة واحساساً بالمسؤولية بكثير، قادراً على فهم كل ما شهده من تجارب (ينظر بهذا مقال ديفد ماركهام: في خطي الحمد، ايام ستندال النابليونية) .

قد يكون من المناسب ان نشير الى رأي ستندال بنابليون، بالمقارنة مع رأي تولستوي، لان هذا القائد العسكري والسياسي كان له حضور قوي في مؤلفات كل من هذين الكاتبين الكبارين . وانا هنا سأنقل ما كتبه جيفري ستركلي بهذا الصدد :

يمكن تشبيه تولستوي بستندال على الصعيد السياسي مع ان هناك فوارق بينهما، بقدر تعلق الأمر بالموقف من نابليون على وجه الخصوص .

ولربما كان تأثير ستندال على تولستوي، روائياً أكثر منه فكرياً . لكننا سنركز الآن على موقفهما من نابليون . فعند ستندال، كان نابليون « اعظم شخصية عرفها العالم منذ قيصراً » . لكن هذا لا يعني ان ستندال تعامى عن سلبيات نابليون . اما تولستوي فكان يعتبر نابليون شخصية لا أهمية لها مثل بقية من يدعون بالشخصيات القوية . وعنده ان هناك قانوناً يفيد بأنه « لكي يتخذ رجال معنيون بأمر ما قراراً مشتركاً، فكلما شاركوا فيه بصورة أكثر فاعلية، فان سيطرتهم تكون اقل وإن عددهم يكون اكبر، في حين كلما كانت مشاركتهم المباشرة في المهمة نفسها اقل، فان سيطرتهم تكون اكبر وعددهم يكون اقل » .

وتكمن حماسة نابليون، حسب رأي تولستوي، في فشله في فهم هذه القاعدة؛ على خلاف خصمه الروسي كوتوزوف، الذي كان يدرك مقدار قابليته، كجنرال، ليؤثر في الأحداث بأية صورة حاسمة، او حتى في معرفة ماذا كان يجري في اثناء المعركة .

اما بالنسبة لستندال، فإن صعوبات فهم الأحداث في اثناء وقوعها، والتدخل الحاسم بشأنها، ليس غير ممكن التغلب عليها، وان العبقرية تتجلى في فهم ذلك بصورة اسرع من الآخرين . فهو لم يعتقد، على سبيل المثال، في مثاله الشهير عن معركة واترلو في رواية (دير پارم)، ان نابليون او ولنغتون كانا غير عارفين بما كان يجري في المعركة بعامة، كما كان حال بطله فابريس، المبتدئ البريء في فن الحرب . ولناخذ وجهة نظر ستندال عن حملة نابليون الايطالية، التي كتبها في نفس السنة التي كتب فيها رواية (دير پارم) :

« إن المبدأ الذي على اساسه يعمل القائد الاعلى للقوات المسلحة مماثل تماماً لعمل اللصوص في

الشوك : [إعادة اكتشاف ستندال

ركن شارع ما، فهم يضمنون ان يكونوا ثلاثة في مقابل واحد، وعلى بعد مئة ياردة من دورية مؤلفة من عشرة رجال. فماذا سيكون تأثير الدورية اذا كانت ستستغرقها ثلاث دقائق للوصول الى ضحية السرقة، سبعة الحظ؟

« وكلما عزل نابليون جناحاً من جيش العدو، فانه يضع نفسه في وضع بنسبة اثنين ضد واحد...
« وأي جنرال معاصر كان سيفكر بأنه سيكون خاسراً لو كان في وضع نابليون [في تموز ١٧٩٦ بعد تراجع ماسينا -جنرال في جيش نابليون - من Adige؛ لقد رأى، على أية حال، ان العدو بانقسامه، وفر له فرصة لان يرمي بنفسه بين جناحي الجيش النمساوي وبهاجمهما كلاً على انفراد.
« لكن كان عليه ان يتخذ قراراً فورياً؛ وان لم يفعل المرء ذلك فإنه ليس جنرالاً!!

(...) « وكان من الضروري، بأي ثمن تفادي إتاحة الفرصة لـ Wursmer للالتحاق بقواته في كوزانو فتش على Mincio، ولا ستكون مقاومته متعذرة. كانت لدى نابليون الشجاعة لرفع الحصار عن مانتوا، والتخلي عن ١٤٠ قطعة من المدفعية الثقيلة في الخنادق، وهي المدافع الثقيلة الوحيدة التي كانت في حوزة الجيش!!

« كانت لديه الشجاعة في التفكير على النحو الآتي: «إذا هُزمتُ، فماذا ستكون فائدة أجهزتي الحربية بالنسبة لي؟ يتعين عليّ ان أتركها في الحال. وإذا أفلحت في قهر العدو، فسأعود الى مانتوا لأجد مدافعي بانتظاري...»

ولنقارن هذا بما قاله تولستوي عن المعركة نفسها:

« ان عدم كفاءة زملائه، وضعف وتفاهة خصومه، وصراحة كذبه وثقته العالية بنفسه رغم قدرته المتوسطة، رفعتة الى قيادة الجيش. والتنوع العالية للجيش الذي أرسل الى ايطاليا، ورغبة خصومه عن القتال، وخطأه وغروره الطفوليان حققن له النصر العسكري...»

وقد كتب ستندال عن نابليون، وكان إبطاله نابليونيين أيضاً. لكنه لم يتخل عن الموضوعية في كتاباته هذه. ثم ان ستندال، كجمهوري النزعة، تأسف بشدة لتتويج الامبراطور [نابليون]، وقال:
«جاء الدين ليقدم الطغيان وهذا كله باسم سعادة الناس».

وقال هنري بيل في ١٨١٧: كان بإمكان مجلسين انقاذ الجمهورية قبل استيلاء بوناپارت على الحكم. وقد سقطت حكومة المديرين [التي حكمت فرنسا من ١٧٩٥ الى ١٧٩٩] «وليس لان الجمهورية ليست ممكنة في فرنسا»، بل «لعدم وجود مجلس اعيان محافظ ليحافظ على التوازن بين مجلس العموم وحكومة المديرين...»، وكانت هذه هي صيغة الحكومة التي خطتها بالتفصيل في ملاحظاته لعام ١٨١٠ حول «الدستور الذي كان الشعب يريد» في ١٧٨٩.

بيد ان افتتان بيل بالانظمة الدستورية، الذي ينعكس في دفاقره، يقابله ضعف ثقة باية عبقرية او ارادة جماعية. ولو كانت الجمهورية، أعطيت المؤسسات الصحيحة، لانقذت فرنسا، الا انه على غرار شاتو برهان تماماً تقريباً، لا يُنحي باللائمة على بوناپارت فقط بل على الفرنسيين انفسهم ايضاً الذين

خلقوا الطاغية في ١٧٩٩.

ويختلف بيل كثيراً عن تولستوي في اعتقاده في التأثير الذي يحدثه الفرد على بيل، يختلف عن تولستوي في ما كتبه في خاتمته لرواية (الحرب والسلام). (ان كلمات وأفكار بيلير بيروخوف في الرواية تعكس انه حتى تولستوي كان يشعر بقوة كاريزما نابليون). ويبدو ان هنري بيل اقرب في تقييمه لنابليون الى د. هـ. لورنس: «بطرس الكبير، وفردريك الكبير، ونابليون... أسسوا رابطة جديدة بين البشرية والعالم، والحصيلة كانت اطلاق طاقة كبيرة...» مع ان ايمانه بالميكانيزم الفعلي للمجتمع مخالف للورنس تماماً وأقرب كثيراً إلى روح التنويرية في القرن الثامن عشر. كان يعتقد ان احد اعظم إنجازات نابليون، كان تأسيسه قانوناً عقلائياً.

ومن الخطأ حقاً القول إن بيل كان يؤمن به الطريقة الساذجة في تفسير التاريخ كقصبة عن الطغاة العظام والجنرالات العظام، التي يقول كارل بوهر ان تولستوي كان مخالفاً لها عن حق. ان إصرار بيل على ان سياسة نابليون كانت ناعمة، دليل بعد ذاته على رفضه الاستسلام لاية عبادة للفرد.

وكانت وجهة نظر بيل المنعكسة في كتاباته تعبر عن موقف انسان ليبرالي النزعة (في فترة استعادة الملكية)، وينعكس هذا في اعجابه بالخطباء الليبراليين، وبالشاعر الديمقراطي بيرانجييه، وغيره. والمجتمع الذي يصفه تنحكم فيه مؤامرات الجزويت، والتطهيرة الجديدة التي ادخلها نابليون (الذي جعل الزواج محترماً بالإصرار على ان لا تظهر النساء في القصر من دون ازواجهن)، والصناعة الصحافية الأدبية الجديدة بفضل تسامح الرقابة في ظل الملكية المستعادة، والباطنية، والنزعة الدينية، اللتين هيمنتا على الفلسفة، والادب، والصالونات. ولم يكن تشخيص بيل لعلل الملكية المستعادة غير مألوف تماماً بعد ذاته. فحتى شاتوبريان كان يتخوف من الجزويت، وكتب سانت بييف وبلزاك عن الروح التجارية في الادب؛ كما أن التناقض بين السوداوية وصرامة القرن التاسع عشر، والحياة في فرنسا السابقة للثورة صعد الكثير من الراصدين المعاصرين الآخرين لما يسمى مرض القرن. لكن أحداً من المعاصرين لم يفهم العلاقة بين هذه الأشياء بمثل وضوحه؛ ولم يكن ثمة ناقد معاصر لادب المرحلة خيراً منه؛ ولا أحد يجمع بين انفصال المثقف، والغضب، والسخرية، مثل بيل الذي كانت حتى اخف كتاباته الصحافية تختلف عن أي كاتب آخر. (ينظر بهذا كله كتاب جيفري ستركلي عن ستندال، المشار اليه في قائمة المصادر).

(يتبع)



قطتان

ليانة بدر

١ - سلحفاة تصعد إلى سماءها

غادرتني تلك السلحفاة وذهبت تفتش عن سماءها.

وجدها الولد هنا وأغرم بها قبل عامين. كنا نعبّر السوق الريفية الأسبوعية المقامة على حافة المدينة المتوسطة. شلالات من الحبوب، أكياس ممتلئة ببهارات ملونة، باعة يعرضون كل ما يخطر وما لا يخطر على البال، من تماثيل الخزف الطيني الموشوم على الطريقة الفينيقية، إلى العطايا المجففة التي تبتاعها النساء من عربات العطارين لضمان حيوية أزواجهن. وبشر كثيرون يفرشون قففهم أو بسطاتهم بين الشمسيات والسقوف المصنعة من جريد النخيل لتخفيف الحر. موسيقى أرغول وعويدة وطبول أفريقية مع دقات دفوف عربية ترقص الأطراف بشكل خفي على إيقاع كلمات أغانيها الشعبية، تذكرني في كل لحظة بمزيج الحضارات المتعاقبة على شمال أفريقيا.

ليانة بدر، كاتبة فلسطينية تقيم في رام الله

حملها الولد عندما اشتراها، ووضعها في علبة بلاستيكية تخترقها ثقبوب صغيرة، يعبر منها بعض الهواء كي تنفّس سلحفاة الصغيرة. لم يتح لي وقتها أن أستوعب فكرة الانتقال الدائم إلى منفى آخر إلا بعدما دار ذلك الحوار عنها في الخاتمة. أشار شاب تونسي إليها وقال لزميله :

ـ فابسل (فيصل)، بريني ! هذا فكرون !

وعندما تلهي الولد عنها بعد مرور الفترة الأولى على عادة الأولاد في الملل من استئناف العناية بحيوان صغير ، أخرجتها من علبتها ووضعها على الشرفة. أجلس قريبا وأقرأ الرسائل التي تغلق قوسا من حياتي. امرأة وحيدة تحت نجوم الليل. وسلحفاة تختبيء تحت الطوار الأندلسي الذي يحيط الشرفة. ولا أراها، إنما أتخيل عينيها المشعّتين. أفكر أن ما يربط النجوم مع الزواحف إنما هو أصل العالم. كلاهما ولد في فترات متقاربة تسبق جنسنا البشري. وما زالت السلاحف تحمل الكون على عاتقها حتى اليوم، بدروعها المنحنية المرسومة بدوائر صغيرة على شكل مقاطع عرضية تشبه جذوع الأشجار المقطوعة .

من وراء القاطع الخشبي المنقوش بالثقبوب، استرق السمع إلى غناء بنت الجيران التي تدمدم وتهدل كحمامة، وأراقب حياة أهل المكان وأعراسهم من خصاص السياج ذاته . أتسلى لبرهة جديدة عن الوحدة التي تهدر مثل أمواج لا تتوقف حولي ، فلا أحد يسأل عني هنا . وأنا وحدي دون درايتهم أرصد نمو أشجارهم، وأعداد زوارهم ، وأزهار ليمونهم، وحجور ثماره الصفراء المشبعة عصيرا. وأحاذر أن أنسى أن أرمي لها للسلحفاة، له ثريا، ذلك هو اسمها، قطعة جزر صغيرة أو ورقة خس أخضر مع بعض الماء.

ولم ألبث أن رأيته في الحديقة. كان يمشي ويتحرك متقلقا بخطاه البطيئة. يحرس خطواته الواثقة من كيد القطة تحت الأعشاش الصغيرة التي تكونها شجرة اللبلاب مع تربة الجنينة. يتشابه حجمه مع حجم ثريا، فكانتهما من جيل واحد بلون بني رمادي من فصيلة واحدة. يدب، ويدور حول الحديقة دون أن يصدر صوتا أو نامة. خطر لي أن التقطها من الشرفة لأضعها قربه على التربة،

لكنني تمهل، فلربما هاجمتها الجرذان، أو ضاعت في مسلك خاطئ يؤدي إلى شارع الإسفلت فتدهسها السيارات.

ولأنه كان عليّ ضمان سلامتها فقد وجدت أن الأفضل هو أن أفكر في الأمر بتمهل و«على رواق». ربما مقتلتها القطة الغادرة لو حملتها ووضعتها هناك دون حماية، فهي ليست في الأصل من هنا، وقد يؤثر هذا على إمكانية بقائها. ثم، إذا اختفت في حفرة ما، فكيف سأضمن أن تعثر على غذائها، وأن تستطيع التقاط الحس الأخضر الذي أتركه لها؟ وربما ضاعت في نفق يؤدي إلى حديقة جارنا الذي يكره الحيوانات، ويحاول إبادة كل ما تطاله يدها منها؟ لن أنسى كيف مات كلب جيراننا في الشارع الخلفي، عندما بادر إلى استدعاء الأعوان لقتل الكلاب الضالة في البورة القريبة.

لذلك تمهل وأجلت نقلها إلى الحديقة.

ويوماً لفت انتباهي إلى أنها تكرر الدوران حول الشرفة العالية طيلة الوقت، فاعدت ذلك إلى تأثير حر منتصف الصيف. لكن ما صعبني حقاً هو يوم أن اكتشفت أن «الفكرون» السلحفاة في الحديقة يدور الدورة ذاتها. آنذاك أخذت قراراً لا رجعة عنه بنقلها نهائياً إلى الجنينة. خصوصاً بعدما حكى لي بعض الأصدقاء عن أن هنالك سلحفاة متوحدة، صارت تمتنع عن الطعام بين عائلة السلاحف التي تعيش في حديقتهم.

كان ذلك ما عزمت عليه فعلاً، لولا أن شؤوننا بيتية عاجلة استغرقني أياماً وإياماً. كنت أضع الحس والجزر مع الماء على باب الشرفة، ولا أطل على ثريا بانتظار فسحة من هدوء. كنت، وكنت، وكنت..

إلى أن رجعت إليها، فلم أجدها. بحثت طويلاً على البلاطات المزخرفة بالنقوش العربية، وتحت الكراسي، وعلى السياج، وأيضاً لم أجدها!

لم أكد أصدق نفسي، لكن نظرة أخرى إلى حافة الطوار الذي يحيط الشرفة، والذي كان ممتلئاً بأصص الزرع جعلتني أشفق فزعاً. كان هيكلها معلقاً على الحافة التي لم تفلح في اجتيازها، وكان رأسها ناشفاً، ومنحجراً عينيها فارغين من العينين اللتين سطاً عليهما طائر جارح ولا بد، فقد غادرت مخبأها الأمين بين الأصص وسيقان الكراسي، وعلقت في مكان لا شراب ولا طعام فيه ولا عودة منه. وأنا الحمقاء التي لم يخطر لي أنها قد تكون فعلاً مثلنا.

لم يخطر لي أبداً..

حتى حينما وجدت أن الفكرون الآخر في الجنينة قد هجر الدار إلى غير رجعة.

٢ - حفلة

ثمانية رؤوس على طاولة واحدة. والمغنية على المسرح.

هو ليس مسرحاً في الحقيقة، بل انه قطعة خشب أفقية منصوبة داخل قاعة افراح، منذ ذلك الزمن الذي حشرفه الناس داخل بيوتهم بأوامر عسكرية، فما عاد باستطاعتهم التجمع إلا للموت أو الميلاد أو مناسبات الزواج. أقيمت الحفلة في هذا المكان المخصص لعقد الاجتماعات المحلية، أو لإقامة الأفراح في مدينة يهاجر أهلها الذكور إلى أمريكا في العادة، فيما تتضاءل احتمالات عودتهم فلا يرجعون إلا مرات قليلة، وغالباً ما يكون السبب هو الاقتران بفتاة الأحلام المناسبة.

لم تكن القاعة مسرحاً فنياً، وإنما أريد لها الآن أن تكون كذلك.

إضاءة نيون مدرسية، وحبل من أضواء زرق وصفر ركب على عجل لكي يكون لافتاً بالمناسبة. وأضيفت سلتا ورد على جانبي الخشبة على جري العادة في احتفالات الأعراس.

ثمانية رؤوس صغيرة تشبه بعضها متحلقة على الطاولة الامامية. وواحد منها لطفل بين العامين والثلاثة ينزل عن كرسيه بلباسه الأزرق البحري، وقصة شعره «المارينز»، وهو يصرخ منادياً على المغنية التي اعتلت خشبة المسرح.

كانت قد بدأت الغناء. لكنه لا يهتم ولا يهاب النغم المنطلق من ثلاثة عازفين، ومن المغنية الشادية التي كانت أمه إلى ما قبل طلوعها إلى المسرح.

فرقة صغيرة. عازف الأورغ. عازف طبلية، عازف عود، لا أكثر. والمغنية التي ترتدي الثوب الوطني التقليدي تستعيد ذكرى شوارع طرقتها، ومعالم تجولت فيها، ثم أغلقت ولم تعد تتذكر بعدها سوى الجدران. تشدو وهي تبسم بمرارة وكأنها تعاتب العالم على نبذه لها.

جدران وراء جدران . وهي تحاول الصعود إلى سماء أخرى لكن شيئا حولها لا يشير لها بأن محاولتها مجدية .

ظل حنين صوتها يتفتق خلفها، ويقارع أشكال الإسمنت المعلقة حولها على شكل شقق وبيوت . بدأ صوتها في التدحرج وفقد انضباطه القديم . صعد فوق كتل الحجارة في الشارع . تسلق النوافذ المغلقة باحثا عما افتقده الجميع ولم يعد متوفرا في هذا الزمن . شعلة الإيمان ١ . فلا هي تؤمن بأن خروجها من عطلتها الطويلة في البيت وفرلها الفرصة التي حلمت بها بعدما تغيرت الأحوال . ولا الجميع .. جميع المستمعين كانوا بحاجة إلى تذكيرها لهم بأيام الاحتباس، ومنع التجول في الانتفاضة الأولى .

مر أكثر من سبع سنوات حين كانت وحدها من يغني لهم وراء الجدران المغلقة، والبيوت الصامتة .

تغيرت الأحوال اليوم، ولم تعد الشوارع مسدودة بسيارات الجيش التي تذرع الطرقات حاجزة عنهم الهواء .

ربما ثماني سنوات وأكثر .

ثمانية رؤوس صغيرة، وثمانية أغنيات قصيرة تغنيها المغنية على خشبة المسرح . ليس في حوزتها سوى حلم بالآتزان، ومحاولة التوازن، ومد يد متقشقة إلى العالم . وضجيج التصفيق الذي حظيت به أيام طلوعها الأول يتدافع إلى رأسها، والناس لا يتوقفون عن المضغ والبلع من الصحنون الكثيرة المصفوفة أمامهم على طاولات القاعة .

كانت تنظر إلى تزاحمهم على البوفيه الرئيسي بوداعة، شاكرة لهم الحضور، ومحاولة غض النظر عن حركاتهم الموزعة بين الشوك والملاعق والمغارف . كانوا غاطسين في أحاديثهم المتدفقة بالشرثرة،

فكانهم هم أيضا بعض أطفالها الذين لا يكفون عن متابعتها بنظراتهم حيثما اتجهت .

لم تكن الملابس الاحتفالية التي ترتديها ملابس خاصة بالسهرة . وقع اختيارها على الثوب التقليدي « الفلاحي » باللون الأسود والمطرز باللون زاهية ، كي لا تثار الأقاويل الظالمة عن تشابه حفلاتها مع سهرات « الكاباريه » . فقد نسي الناس عهد الأفراح القديمة ، وصاروا يدينون كل من يجرؤ على إقامة عرس أو حفلة . قد يجرؤ أحد الحاضرين على التشهير بها ، ظناً بأنه لم يحن الوقت لتخطي مراحل الأحزان رغم عهد الأمل الجديد .

تسريحة الشعر المعقودة فوق رأسها كانت تكابر هناك مثل شجرة عيد ميلاد تلبي أن تذهن للصقيع . منذ أيام زواجها الأولى لم تذهب إلى صالون كي تصفف شعرها . كان الوضع صعبا دائما ، ولم يكن من الممكن النظر إلى مآثم الشهداء حولها ، ومآسي عائلات السجناء من الجيران ، ثم الذهاب بكل بساطة وتصفيف شعرها بما يفوق عاداتها من التمشيط المنزلي البسيط .

فكرت بالاصدقاء المتحمسين الذين عملوا على تنظيم هذه الحفلة ، أملا في إعادة إحياء فرصة ظهورها وعودتها إلى الفناء . هجست بأن زوجها واحد منهم . كانه التقط صدى معاناتها التي نزت عن جراح عمرها المهدور قطرة فقطرة ، فأراد أن يعطيها الفرصة كي تننفس ولو مرة واحدة كي تقول لمن حولها :

انظروا ، هذي أنا . الزواج لم يقطع دابر أنفاسي .

حاولت كثيرا أن تسأله إن كان وراء تنظيم هذه الحفلة ، فانكر وراوغ وكانه لا يعرف شيئا .

انتهت وصلة أغنيات الطرب العربية ، وبات عليها أن تبدأ جدول متواعتها الجديد الذي أرهقت وهي تستعيده فاصلة فاصلة . أغنياتها القديمة هي نفسها . تستعيد كلمات المقاومة والنضال والتشبث بالأرض .

يتلوى العود شجناً وأنيباً ونداءات التزام واضحة أو ملغزة . لكن نغماً كثيرة لا تلبث أن تدب في صوته فتتفاجأ بأنه قد فقد بريقه، وضاع في حلقها .

تأملت المدعوين الذين تواحموا على البوقية الواسع الذي يرقد في زاوية قصية من المكان . لا أحد يستمع . إنهم منشغلون بتعبئة صحنونهم الحافلة بمشروبات الطباقي اللذيذة التي حرموا منها أيام إغلاق المطاعم في الماضي القديم .

جميعهم منهمكون ولا أحد يكلف نفسه مشقة التطلع إليها . يعاملونها كجزء مضمون من جهاز راديو يملكونه قيد الاستخدام . لا أحد يتابعها سوى الطفل الصغير الذي بدأت دموعه الغزيرة في السيلان على قميصه الأبيض المكوي .

وهي الآن فوق الحشبة تحمل نبرات صوتها الشجي والحنين كله ، لكن ما يخرج منها لا يمثل سوى الحبيبة المصفاة قطرة فقطرة .

ماذا تفعل إذا ؟

قامت بالإعلان عن استراحة ، ونزلت إلى الصغير الذي كان قد بدأ في تمزيق المحارم الورقية وإلقائها على الأرض ، دون أن تفلح أخته الكبرى في إسكاته . انحنى قربه كي تسمح دموعه ، فإذا بيده الصغيرة تمتد بختة وتدخل في تسريحة شعرها . أفسدت التسريحة الجديدة وضاع تصفيفها ، وتحولت أطرافها إلى بقايا متطايرة من شعر كث ومتداخل . أرادت أن تصفعه كما كانت ستفعل لو أنها كانت في بيتها ، لكنها تراجعته وسأيرته بكلمتين طيبتين . فماذا لو ارتفع صوته بالعويل ، والتفتت إليهما الانظار جميعها ؟

ماذا تفعل إذا ؟

نظرت حولها ، لم ينتبه أحد إلى ما جرى . أعادت رص التسريحة كيفما اتفق ، ونظرت بحسرة إلى حداثها الذي يزعجها ، وتمنت في سرها لو أن الحفلة تنتهي بأسرع ما يمكن كي يتسنى لها

ان ترجع إلى بيتها . ترتخي على الكنية، ثم تضع قدميها في ماء ممزوج بالملح .

كانت تعلم بان يتوقف الزمن ويعود الى الوراء عشر سنوات أو أكثر، فيعود هؤلاء الناس إلى ما كانوا عليه، وتعود هي إلى ما كانت عليه، وينتهي ينتهي كل هذا .

ومع هذا، فقد كانت تحس الآن وللمرة الأولى في حياتها بان ما مضى لن يرجع، وانها ابدا بعد الآن لن تثق في ثبات أية تسريحة منضدة على شعرها، حتى لو حلفوا لها الف مرة أنه الزمن الجديد . . الجديد .

خوزيه سارماغو: التشاؤم أملنا الوحيد

يخرج خوزيه سارماغو، الحائز على جائزة نوبل للأدب، من مأدبة أقيمت على شرفه، ليقول في عصر يوم مشمس، وسماء صافية، إن كلمة واحدة تلخص مشاعره في تلك اللحظة: «الضجر». «لا أرى الناس يمشون على أقدامهم» يقول عبر المترجم، رداً على سؤال ما إذا كانت زيارته القصيرة إلى الولايات المتحدة، التي يلتقي خلالها بنادره، ممتعة.

«لا أرى سوى سيارات، ولا أفهم لماذا، يمكن فهم الجانب المادي، ولكن لا يمكن فهم الجانب الإنساني، لماذا لا يمشي الناس؟ فالسفر عبر سيارة كل الوقت يشبه العيش في سفينة فضائية تحميه من كل شيء. على أية حال، إذا كان الأميركيون سعداء، فهذا شأنهم».

لا يبدو التفوه بعبارات كهذه خروجاً على المؤلف، بالنسبة لسارماغو، اليساري الغلص، الذي يصف نفسه بالمتشائم، ويدلي بتصريحات جارفة. وعندما يطرح عليه سؤال محدد، يرد بالرمز أو الجواز. ومصدر الغرابة في شكواه من ثقافة أميركا الآلية يتمثل في المكان الذي قيلت فيه:

في منهاتن، في منتصف النهار، بعد تجاوز حشد من المازة على مهل، ويبدو أن هؤلاء كانوا غير مرتين في النظرة الحكيمة للمؤلف. يخرج الإنسان، أحياناً، بانطباع أن كلام سارماغو يصدر عن واقع بديل، لا يراه أحد سواه.

تقول: انظر إلى الناس في الشارع، وتساءل عن أميركا، يرد بابتسامة مأكرة تفهم السائل: «ولكن نيويورك ليست أميركا».

ولد سارماغو في العام ١٩٢٢ لعائلة من الفلاحين. كان جداه يربيان الخنازير، واشتغل أبوه شرطياً، وفي الحرب العالمية الأولى كان ضابط مدفعية. وهو تعلم ليشتغل في الحدادة، وتصلح السيارات. ذاع

صيته في العالم في وقت متأخر، على عتبات الستين، وقد اشتغل موظفا حكوميا، قبل العمل في مجال النشر في البرتغال، كمدير للإنتاج، ومترجم، ومحرر.

في العام ١٩٤٧ نشر رواية بعنوان «أرض الخطيئة»، ولم ينشر روايته التالية إلا في العام ١٩٧٧ بعنوان «دليل الرسم والخط». وقد علق على فترة الانقطاع أكثر من مرة: «لم يكن لدي ما أقوله، لذلك صمت». ورغم المسيرة البطيئة في السابق، تقدم سارماغو مسرع الخطى على مدار ربع القرن الماضي، ليصبح أهم كاتب ألمجته البرتغال، والفائز بجائزة نوبل للأدب في العام ١٩٩٨. يقول عنه الكاتب والناقد هارولد بلوم: إنه ليس واحدا من أفضل الروائيين الأوروبيين وحسب، بل أحد العبقرات القليلة بين الأحياء في عالم اليوم. والكتاب الأخير للبروفيسور بلوم، الصادر بعنوان «العبقرية: موزاييك لمائة عقل مبدع»، يسجّم مع هذا الكلام.

يعيش سارماغو في الوقت الحالي في جزر الكناري، مع زوجته الصحافية الأسبانية بيلار دل ريو، وكلاهما، وهي الحيوانات ذات الحضور البارز في رواياته باعتبارها ترى، وتقدم العون، والتعاطف، وتقّاز بالإدراك أكثر من بني البشر. وقد انتقل للعيش في جزيرة لانزروت في العام ١٩٩٢، بعد خلاف مع الحكومة البرتغالية، التي أدانت إلى جانب الفاتيكان، روايته «الإنجيل حسب يسوع المسيح».

تقول مترجمة رواياته إلى اللغة الإنكليزية مارغريت جل كوستا، التي عرفت الكاتب للمرة الأولى بعد قراءة «الإنجيل حسب يسوع المسيح»: «إن أعماله تقّاز بقوة بصيرة نادرة المثال». ترجمت مارغريت أحدث أعمال سارماغو: «كل الأسماء» و «الكهف»، و «الرجل المستنسخ». تقول: «إن «الإنجيل حسب يسوع المسيح» سحرها بفضل ما فيه من لفظة، ومشاعر إنسانية، ومخيّلة قوية». لا أحد يجاري سارماغو، من حيث حس الفكاهة والسخرية، في معالجة الموضوعات السياسية والأخلاقية، ربما منذ كافكا. أحد الكتاب الذين كثيرا ما يُقارَن بهم. وقد يتفوّق على كافكا من حيث نزعة الإنسانية، وقدرته على خلق الإحساس بالأسى في جملة واحدة. شخصياته، كما قال: «أكثر حكمة وأفضل منه» دائما.

يتخلل كلام سارماغو - كما يدرك السامع - إحساس بالتشاؤم، وبأن كل كلمة يقولها يجب أن تتحلّى بالصرامة الفلسفية. في حفل للغداء أقيم احتفالا بصلور «الكهف»، يعبر المزاج الجمعي عند انتقاده لسلوك بني البشر، مستشهدا بكلام لكونراد لورنز، النمساوي المختص بعلم السلوك لدى الحيوان، والحائز مثله على جائزة نوبل: «لقد اكتشفت أن الحلقة بين الحيوان والإنسان المتحضر، هي نحن». ويكرر هذه العبارة في المساء، خلال مداخلة له مع هارولد بلوم في مكتبة نيويورك العامة. وعند جلوسه في مكتب ناشر كتبه يقول بتجهم: «اللغة تكاد تموت كل يوم، الثقافة تموت كل يوم».

يقول: «ربما لا توافق على هذه النظرة المتشائمة، ومع ذلك، إذا كانت ثمة وسيلة لتحويل العالم نحو الأفضل، يمكن القيام بها عبر التشاؤم فقط، المتفائلون لن يغيروا العالم نحو الأفضل، أبدا». يعبر سارماغو في كتابته الروائية عن الميل نفسه إلى التصريحات الكبيرة، فبعض موهبته يقوم على براعته في نقل

أفكاره عبر مجازات، وحكايات رمزية تتماز بقوة وتأثير النبوءات. ورغم أن المجازات قد تبدو مألوفة، وغنية عن التعريف، عند سردها من جديد، إلا أنها تبدو على الورق طازجة إلى حد بعيد، وذات نظر ثاقب، وبصيرة حادة.

رواية «العصى» الصادرة في العام ١٩٩٥، هي أكثر أعماله شهرة، وهي عبارة عن رؤية ذكية، ومرعبة، تجتمع فقد نعمة البصر. يقول سارماغو إن الرواية بدأت بسؤال من جملة واحدة: «ماذا يحدث إذا فقدنا جميعاً قوتنا على الإبصار؟». يقول: «وجدت، عندئذ، الجواب، جميعنا كفيفون، لا نرى بعضنا فعلاً، ولا نرى أنفسنا».

في «تاريخ حصار لشبونة»، وهي أكثر رواياته طرافة، يقوم مصصح متواضع الشأن، بتغيير الطريقة التي يذكر بها التاريخ، بإضافة كلمة واحدة فقط إلى نص يقوم بمراجعته. في «الطواف الحجري» يتخيل أن شبه الجزيرة الأيبيرية انفصلت عن أوروبا. تقول فيغيت بيرو، كاتبة السيناريو لفيلم مستمد من الرواية، وممثل المعالجة السينمائية الأولى لعمل من أعمال سارماغو: «إنها قصة متعددة الطبقات، تتخللها حكاية رمزية فلسفية، ومغامرات شريفة».

في روايته المعنونة «كل الأسماء»، يتم تصوير العالم كمكان تحكمه بيروقراطية عفا عليها الزمن، ويصعب فيها من ناحية فعلية التمييز بين الموتى والأحياء. «الكهف» على غرار «كل الأسماء» أكثر بساطة من أعماله الأولى، وهي قصة حب رقيقة ومؤثرة تتضمن نقداً لاذعاً للرأسمالية، وهي أيضاً رواية ساحرة، مكتوبة بلغة جميلة، رومانسية لم تعد متداولة في عالم اليوم، عن التأثير المدمر الواقع على حياة أناس عاديين، يكافحون من أجل البقاء، في مجتمع أصبحوا فيه من سقط المتاع.

يخطر خراف مسن في الرواية إلى البحث عن مهنة جديدة، بعدما أبلغه بمثل للمركز أن خدماته لم تعد مطلوبة. والمركز، هنا، مركب كافكاوي هائل الحجم للتسوق والسكنى.

يقول سارماغو مفسراً:

«هذا ما يحدث على حين غرة في كل مكان من العالم، يقول لك أحدهم: لم تعد مفيداً، ولم تعد لي حاجة بك بعد الآن. الإنسان شيء يمكن التخلص منه كما نتخلص من الأشياء التي نشتريها من مركز التسوق». الرواية في أحد جوانبها محاولة ساخرة وفلسفية لتنوع قصة الكهف الرمزية لدى أفلاطون، حيث البشر غير المتنورين سجناء في أصفادهم يراقبون الظلال. وهي، أيضاً، على غرار أعماله السابقة، مليئة بالمجازات التعليمية.

يقول سارماغو:

«مراكز التسوق هي النسخة الجديدة لكهف أفلاطون.. مركز التسوق في الوقت الحاضر هو أكثر المناطق أماناً في أي مدينة، الأشياء نظيفة، ولامعة، ولا توجد نوافذ، في العادة، لمراكز التسوق، تماماً مثل الكهف».

عموما، نجحت مجازات سارماغو، وأفكاره المستفزة على الصعيد الأدبي، بينما عادت عليه تعليقاته السياسية بالمتاعب، كما حدث، مؤخرا، عندما انضم لوفد من الكتاب والفنانين، بينهم رسل بانكس، رول شوينكا، في الأراضي المحتلة من جانب إسرائيل.

في مكتب ناشر كتبه، يبدو سارماغو مرهقا من السفر، والمشي على أرصفة نيويورك المزدهمة، يبدو كقريب مسن يتأهب للقبولة، ومع ذلك يتحرق لمزيد من الحكمة.

يعود إلى كهف أفلاطون لعقد مقارنة مثيرة جديدة، لكنها عن نفسه هذه المرة. في قصة الكهف الرمزية يحاول الفيلسوف تخمين ما قد يحدث، إذا تمكن أحد السجناء الكفيفين من فك أصفاده، ثم العودة إلى بقية السجناء لإخبارهم بما رأى من العالم. يفترض أفلاطون أن الرجل سيتعرض للقتل لبلوحيه بالحقيقة. ويوحي سارماغو أنه مثل ذلك الفرد النكود.

لم يعرف السجناء في كهف أفلاطون أي نوع آخر من الواقع، يقول سارماغو: «وهناك الكثير من أوجه الشبه بين ذلك الوضع ووضعنا الخاص.. نحن نبتكر نوعا من الواقع ليناسب ما نريد، ونعتقد أن الواقع المزعوم الذي ابتكرناه لا يمثل الواقع الوحيد وحسب، بل يمثل ما نريد من الواقع، أيضا، ونتصرف بسلبية عندما يخبرنا أحد من الناس أن حقيقة العالم لا تتسجم بالضرورة مع ما نرى فيه حقيقة للعالم.

تنطبق هذه العبارة على سارماغو، بقدر ما تنطبق على بقية أفراد المجتمع، فهو متمسك بأفكاره المتبسة أحيانا، كما يفعل كل واحد منا. وهذا لا يعني أنه لن يرسخ في ذاكرة القرن العشرين، والقرن الحادي والعشرين كأحد أعظم الروائيين. روائي يعاني من قصر النظر [بالمعنى الطبي] لكنه يمكن الآخرين من رؤية الأشياء بمزيد من الوضوح.

ومهمتي أن أقول ما أرى، يقول سارماغو بطريقة مباشرة: «وإذا افترضنا أنني في الكهف، سأكون من يذهب إلى الخارج لرؤية ما يجري، ويقول للآخرين ما أرى.. ومع ذلك، لن أنتظر في الكهف بل سأخرج قبل أن يتمكنوا من قتلي».

آدم لانغر

مجلة «بولك» ٢٠٠٢

غارسيا هاركيز: أكتب كي لا أموت

يلوح لنا أكثر كتاب الأميركتين شهرة، ويدعونا إلى دخول الاستوديو الخاص به، المستقل عن بيت جميل كولونيالي الطراز من طابقين، يتم الوصول إليه عبر فناء داخلي تكسوه الأعشاب. وما إن نصبح في الداخل حتى يرحب بنا بحرارة، يعرض علينا قهوة، ويتعذر عن إجراء مقابلة رسمية. يقول: «سيتلني جميع من رفضت طلباتهم من قبل».

كانت الأنباء قد رددت اسم غبريل غارسيا ماركيز بكثرة في الآونة الأخيرة، بعد نشر الجزء الأول من مذكراته المعنون باسم «عشت لأروي». وقد بدأ الروائي الكولومبي الحائز على جائزة نوبل للأدب في العام ١٩٨٢، كتابة ذكرياته في العام ١٩٩٩ بعد تشخيص يرجح أن يكون مصابا بسرطان الغدد اللمفاوية، ولفرغ من كتابة المخطوطة الواقعة في ٥٧٩ صفحة بعد ثلاث سنوات فقط. ومنذ ظهورها في السوق، باعت الطبعة الأسبانية ما يزيد على مليوني نسخة (ما عدا الطبعات المزورة).

كان غابرو -وهذا هو الاسم الذي يُنادى به على سبيل التحجب- خلال فترة طويلة من حياته شخصية عامة، يحاضر، يقدم قراءات، ويجري مقابلات، ويدلي بآراء ينتظرها الناس بشوق حول قضايا أخلاقية مهمة.

وفي السنوات الأخيرة، فقط، عاش حياة تنسم ميل أكبر إلى العزلة، كرس فيها كل وقته وطاقته لكتابة ذكرياته الواقعة في ثلاثة مجلدات. وفي هذه الأيام، في بيته الواقع في ضاحية سان الخميل في مكسيكو سيتي، يلتزم غابرو بنظام صارم، فيكتب لمدة ست ساعات يوميا. ورغم هذا الانضباط، قبل

يلطف بعد قضاء إجازة في هافانا، أن يخصر لنا بعض وقته. لم تكن مقابلة بالمعنى الكامل للكلمة، ولكن عندما قمنا، أنا وابني جويل، بتصويره خلال يوم من أيام العمل العادية، استمعنا إلى تعليقاته حول موضوعات كثيرة.

عاد، بعد الترحيب بنا، إلى مكتبه حيث يطل عبر شاشة الماكنتوش أحدث ما كتب من كلمات، شرح لنا أن الكمبيوتر موصول بأجهزة كمبيوتر أخرى في البيوت الكثيرة التي يقطنها، ليتسنى له العمل بلا مشاكل بصرف النظر عن المكان.

وعندما شرع جويل في التقاط صور عن قرب، قلت لغابو إن صديقه القديم توماس إيلوي مارتينيز اقترح علينا قبل سنوات عمل مقالة مصورة عنه من نوع «يوم في حياة غابو». قال:

«آه، إيلوي، عندما صدرت ومائة عام من العزلة» في هونيس آيريس، استضافني في برنامجه التلفزيوني، كما وضع صورتي على غلاف ملحق أدبي كان يقوم بتحريره آنذاك، ومع ذلك لن تطلب مني أن أفق للتصوير تحت الدوش، أليس كذلك؟» سأل ذلك وشبح ابتسامة شيطانية يرتسم على شفتيه.

بعدها، شرع في استعراض برنامجه في الأيام العادية: الاستيقاظ في الخامسة صباحا، قراءة الكتب، والجراند، والرلد على البريد حتى الساعة السابعة صباحا، الاستحمام والإفطار، ثم التوجه إلى العمل في التاسعة، والكتابة لمدة ست ساعات على الأقل، حتى العصر. «عندما لا أكتب يتأبني الملل».

وعندما قال جويل إنه يعمل عموما في السينما والتلفزيون، رد غابو قائلا: إن أحد أبنائه، رودريغو، يشتغل في المجال نفسه: «درس في هارفارد، ثم في المعهد الأميركي للأفلام في لوس أنجلوس، ويقوم بعمل مسلسلات تلفزيونية، وأحدث ما قام به إخراج فيلمه الروائي الأول».

وقد كانت كلفة الفيلم، الذي يحمل اسم «ما يمكن أن نقوله عنها مجرد النظر إليها» لا تزيد على مليوني دولار، ونال استحسان النقاد. أما الابن الثاني المدعو غونزالو فيشتغل مصمما، ويعيش في مكسيكو سيتي.

لاحظ غابو، الحاضر أبدا، عندما التقطت صورا عن قرب أن الكاميرا التي استخدمها ليست في حالة جيدة. وأجاب بعد تغيير الموضوع والسؤال عن وضعه الصحي «ما زلت أذهب إلى لوس أنجلوس للمقايام بفحوصات دورية، وأشعر أنني في حالة جيدة». سكرتيرته الخاصة أكدت وضعه الصحي الجيد، وبدا فعلا في حالة جيدة. وعند السؤال عن تربيته الرياضية قال: «ألعب كرة المضرب مع مدرسي، ولا يحصل على راتبه إذا لم أفر في اللعب».

كان الجو عابسا، ودرجة الحرارة منخفضة بالمقاييس المحلية، وكان غابو الحريص، دائما، على مظهره الخارجي، يرتدي قميصا ثقيلًا من الصوف فوق قميص الشغل، كما كان يرتدي بنطالا يبعث الدفء، ويتنعل جزمة إنكليزية.

«وكيف كانت كوبا؟ هل التقيت بغيدل [كاسترو]؟»

«طبعًا، كما حضرت احتفالا في معهد اللسنيما أقوم برعايته، يبعد المعهد خمسة كيلومترات عن

هافانا، ويقدم خبرات عملية للمتدربين، أزور المعهد مرتين في العام، وأجمع المال لدعم المدرسة من مصادر مختلفة في العالم.

وعندما تلقى غابو مكالمة هاتفية، طفت في الحجرة للاطلاع على البيئة المحيطة، خاصة على مكتبه الشخصية، التي تغطي رفوفها جدارين على جانبي الحجرة. كانت الكتب مرتبة أبجديا، تفصل بين أقسامها قواطع ملونة. على أحد الأرفف خلفه مباشرة توجد مؤلفاته المجلدة بالأحمر، والأسود، والذهبي.

وسياتي المزيد، لم أنته بعد. قال ذلك كملاحظة جانبية عندما لاحظ اهتمامي بالكتب. كانت معظم الكتب باللغة الإنكليزية، وكثير منها لغراهام غرين، ويوجين أونيل، وفرانز كافكا، لكن عددا كاملا من الأرفف كان مكرسا لهيمينغواي ووليم فولكنر، كاتيانا أنارا إعجابه أكثر من الآخرين. وقد تأكدت مكانة الكاتبين بصورة إضافية من خلال صورة صغيرة مؤطرة لكل منهما على خوان جانبي، وهما الشخصيتان الأدبيتان الوحيدتان اهتمني بهما في تلك الحجرة. وضعت الصورتان إلى جانب صورتين لغارسيا ماركيز في حفل تسلّم جائزة نوبل للأدب في ستوكهولم. وعلى الجدار المقابل صورة مؤرخة في ٢١ أكتوبر ١٩٨٢، يوم تلقى غابو مكالمة من السيد حول فوزه بالجائزة، ويظهر في الصورة محتفلا مع اثنين من أصدقائه المقربين. وما عدا تقالين فضين على أحد الأرفف يخلان جائزتين لكتابة السيناريو، من الأكاديمية المكسيكية للفنون السينمائية (وهي تعادل جائزة الأوسكار في المكسيك) لا وجود للجوائز والشهادات الفخرية الكثيرة التي نالها غابو.

ورغم أن غارسيا ماركيز يحب التنظيم والانضباط في حياته، إلا أنه يبدو مرتاحا للعمل بطريقة تشوبها الفوضى. ربما جاء هذا الميل من سنوات عمله الكثيرة في الصحافة، أو كما يحب القول: «كصحافي يكتب روايات على هامش المهنة».

كانت موسيقى شعبية من الكاريبي تصدح خلال زيارتنا. وقد رن جرس الهاتف مرّات عديدة، وغالبا ما كانت مونيكا تقوم بمقاطعة من مكانها في الطرف القصي لغرفة المكتب، للكلام عن شؤون العمل، أو عن ارتباطات قادمة. وفي أحد المرات نظر في حزمة ضخمة من العقود، التي أعدها وكيسته الأدبية في برشلونه، ووثائق للترخيص بنشر أعماله بالبرتغالية، والتشيكية، والصينية. وقد عقب بطريقة فلسفية خلال توقيع العقود قائلا إنه لن يحصل على الكثير من العائدات، خاصة في الصين، التي تكثر فيها النسخ المزوّرة. مشكلة النسخ المزوّرة ألحقت الضرر بمذكراته المنشورة. ففي بورتوريكو ظهرت نسخة مزوّرة في السوق السوداء حتى قبل ظهور النسخة الأصلية المرخصة.

وبالنظر إلى المدى الواسع لشروعه الحالي، سألت غابو ما إذا كان قد استعان بمساعدين لجمع معلومات عن العدد الهائل من الأحداث الواردة في مذكراته. وبينما كانت مونيكا تهز رأسها من جهة إلى أخرى، قال: «ما عدا التحقق من بعض الأشياء مع أفراد العائلة، والأصدقاء القدامى، اعتمدت على الذاكرة فقط». ضربت مونيكا يدها على جبهتها: «إنه يحتفظ بكل شيء هنا، لديه ذاكرة هائلة». ابتسم غابو. وعلى غرار زميله البرتغالي الفائز بجائزة نوبل، خوزيه سارماغو، الذي قال ذات يوم: «نحن ذكرياتنا»، قال: «إذا

لم استطع تذكر حادثة ما ، ذلك يعني أنها لم تقع .

تشكل الذاكرة كل شيء بالنسبة لغايو الكاتب . كنت مدخما شرها لمدة ثلاثين عاما ، وفي سن الخمسين توقفت فجأة بعدما أخبرني طبيب في برشلونة أن عادة التدخين تسبب فقدان الذاكرة . وقد حاول أحد الناشرين وضع صورة قديمة لي على الغلاف الخارجي لكتاب المذكرات ، أبدو فيها جالسا أمامي الآلة الكاتبة ، وسجارة تتدلى من فمي ، ولغبت الفكرة ، وبدلا منها اخترت صورة لي في الثانية من العمر التقطها مصور جوال ، عاد والتقط صوراً لي في سن الثالثة ، والرابعة ، وما زلت احتفظ بالصور الثلاث .

غايو مسرور نتيجة الحماسة التي استقبل بها الجزء الأول من المذكرات ، ومع ذلك يقول بنوع من التواضع ، أو ربما ما ينتاب الكقاب من شك ، حتى الكبار منهم : «أرجو تحقيق الجودة نفسها في المجلدين الباقين» . وقد أثني كثيرا على مترجمته إلى اللغة الإنكليزية ، إيديث غروسمان : «ممتازة إلى حد أننا نحتاج إلى فحص بعض التفاصيل الصغيرة فقط» .

وبينما كنت أحريش هذه الكلمات ، وغيرها ، في دفتر ملاحظات صغير ، ذكرني غايو أن مقابلتنا ليست رسمية ، وعندما قلت إنني أدون عبارات تكتل الصور ، انقسم وهز رأسه بطريقة ودية . بدلا من الكتابة انسحبت إلى الحديقة لالتقاط صور لغايو خلف مكتبه من خلال النافذة ، وما إن عدت حتى سمعته يسأل جويل : «وماذا بعد ؟؟» أجاب جويل : «وما رأيك بصورة مع كارليتوس ؟؟»

«كيف عرفت ؟؟» ، سأل غارسيا ماركيز بدهشة مصطنعة .

«قالت مونيكا : إنك لديك بهاء» .

وهكذا ، خرجنا إلى الحديقة ، بينما جلبوا كارليتوس من المرائب ، لأن الجو كان شديد البرودة في الخارج . دغدغ غايو - ومن الواضح أنه يحب البهاء - الطائر بنظارته . وفي الساعة والعشرين من العمر ، ولم يتكلم بعد ، ويحب الكاميرا .

دلفنا ، بعدئذ ، إلى قاعة مكتبة الهواء ، نطل منها على الحديقة من خلال ثلاثة شبابيك زجاجية كبيرة الحجم . وهذه حجرتي المفضلة ، قال أثناء جلوسه على أريكة بهاء . وقد عرّجت عليه لقطات ملونة صورتها قبل سنوات ، لجدارية تبلغ عشرين قدما ، مستوحاة من مائة عام من العزلة .

نظر إلى التفاصيل باهتمام :

الكولونيل أورليانو بوندا مقيد إلى شجرة ، زوجته التحيلة أوسولا ، تصعد مع الجميلة زيميدوس إلى السماء ، ومكويدياس يحضر الفلج إلى ماكوندو للمرة الأولى . في أعلى الجدارية قرأ العبارة الأخيرة في الكتاب ذات الشهرة الفائقة (لم تحظ أجناد حكم عليها بمائة عام من العزلة بفرصة ثانية على الأرض) .

«هل استطيع الاحتفاظ بالصور ؟؟» ، سأل .

«طبعاً ، هذا أقل ما يمكنني عمله . . لن تعرف أبدا قيمة كتبك في نظري ، ومدى إعجابي بما فعلته لي

حياتك» .

أجاب بصوت نحيل (وهي المرة الوحيدة التي تكلم فيها بالإنكليزية) : «كلّى ، أنت تدفعني إلى

كذلك، عرضنا عليه مقالة في الملحق الأدبي لجريدة ناسيون اليومية في بونيس آيريس، حول مذكراته. لم تكن لديه فكرة عن المقالة، وشرع في القراءة على الفور، مما أتاح لنا فرصة تصوير غابرييل قارئاً المقالة التي صوّرت مونيكا نسخة عنها في وقت لاحق، للاحتفاظ بها في الأرشيف.

بعدئذ، وقع غابو عدداً من الكتب التي احضرنها. وقع لجويل كتاب «الحب في زمن الكوليرا»، ووقع لزوجتي على نسخة كتب عليها «وردة من أجل كلوديا» ورسم الوردة. وعلى نسخة تعود إلى الطبعة الأولى لرواية «مائة عام من العزلة» كتب: «إلى كاليب مع العرفان من ضحيته». وبينما كان يناولني الكتب، نظر باستغراب إلى شعري الأبيض - لم يزل شعر غابو، في السادسة والسبعين من العمر، أسود اللون مع وجود بعض البياض. قال: كم عمرك؟

وعندما أجبت أنا في الثالثة والستين، ناداني بالشاب، ثم قال بتهيدة: «أشعر بالتعب، هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالتعب، ومع ذلك أستمع في الكتابة كي لا أموت».

حان وقت الرحيل. جمعنا أغراضنا، ومشى معنا غابو مودعا حتى الشارع، وقبل دخول البيت ذكر جويل بضرورة الاتصال مع ناشره Knopf في نيويورك «أعرض عليهم صورك، ربما يستخدمونها لغرض الدعاية، عند صدور الطبعة الإنكليزية من المذكرات، قابل محرر كتبي، قل له إنك قادم من جهتي».

لا ينسى هذا الرجل الوقور، الذي أغنى حياة العديد من الناس، أصوله المتواضعة، ولا ينسى ما بذله من جهد لجعل حياته ذات معنى، كما أن من صفاته مساعدة الغير، خاصة الشباب وقد شرعوا في رحلتهم الخاصة.

كاليب باخ

مجلة americas حزينان ٢٠٠٣

تنتسلاف ميلوننت: أندحرج على هوجة

ولد تنتسلاف ميلوش في العام ١٩١٦، واشتهر في الأوساط الأدبية البولندية في الثلاثينات، باعتباره من الأصوات الشابة، الداعية إلى إحياء و شحن الشعر بمضامين جديدة. وقد اشتغل خلال تلك الفترة في الإذاعة البولندية. عمل في الحرب العالمية الثانية في محطة إذاعة سرية ضد النازي، وانضم بعد الحرب إلى السلك الديبلوماسي في بولندا، التي أصبحت جزءاً من المنظومة الاشتراكية.

تمرد على النظام السائد في بلاده في أوائل الخمسينات، واختار الإقامة في فرنسا، وفي أوائل الستينات أنفصل للعيش في الولايات المتحدة، وبقي فيها حتى وفاته في آب (أغسطس) الماضي.

نال ميلوش العديد من الجوائز الأدبية، كانت أبرزها جائزة نوبل الآداب في العام ١٩٨٠، وإلى جانب الشعر كتب المقالات، والرواية، والسيرة الذاتية، كما اشتغل مدرّساً للآداب واللغات السلافية في الجامعات الأميركية.

وقد تركت تقلبات حياته، وما اتسمت به من وحيل، واضطرابات أيديولوجية، وثقافية، أثرا واضحا على أعماله الشعرية والنثرية على حد سواء، حيث تكثر لديه مجازات ما بعد السقوط، بالمعنى الديني للكلمة، أي بعد طرد الإنسان من الجنة، وهبوطه إلى الأرض. ويعد هذا المجاز دلالات أوسع من خلال مفهوم النفي الذي يسري في أعماله. كما أن لغته تعبر عن حالات مختلفة من المجردة إلى الحسي، ومن الفلسفي إلى نثر الحياة اليومية.

محادثة مع جين

دعينا لا نتكلم في الفلسفة، ولنضعها جانباً، يا جين
الكثير من الكلمات، الكثير من الورق، من يصبر على شيء كهذا
أخبرتلك بالحقيقة لماذا تأيت بنفسي
لم يعد ينتابني الفلق تجاه حياتي المسوخة
لم تكن أفضل ولا أسوأ من الناس الإنسانية العادية

لدة تزيد على الثلاثين عاماً نشن المشاهدات على بعضنا
كما نفعل الآن، في الجزيرة تحت سموات مدارية
نهرب من رحة المطر، وفي لحظة تسطح الشمس ثانية
يصبيني الخرس، يبهمني اللب الزمردى لأوراق الشجر

نغطس في الزبد عند خط تكسر الأمواج
نسبح بعيداً إلى حيث يكون الأفق محبوكاً بشجيرات الموز
وطواحين هوائية صغيرة من النخيل
أتمرض حينها للالتهام: لست في مستوى عملي الفني
لا أرغم نفسي على القيام بأعمال كبيرة
بينما كان في مقدوري التعلم من كارل ياسبرز
ويان اذرثالي لأراء هذا العصر يتعابه الفتور مع مرور الوقت

أندحرج على موجة وأنظر إلى الغيوم البيضاء

أنت محقة، يا جين، لا أعرف كيف أعني بغموض روحي
البعض تشمله العناية، والبعض الآخر يحاول قدر ما يستطيع
أقبل بما أصابني كنوع من [الحكم] العادل
ولا أدعي وقار حكمة الشيخوخة

ولأن يعني لا يترجم في كلمات، اختاره في ما هو الآن
في أشياء هذا العالم، الموجودة، ولأنها موجودة تسرنا:
عري النساء على الشاطئ، الاكواز النحاسية لأندالتهن
نبات الجزيرة، زنبقة حمراء، يسرني التهام عصير الجوارح يعني
وشفتي، ولساني، وعصير برقوقي أفروديت
الروم بالطلع والعصير، والنباتات المستلفة
في غابة مدارية حيث الأشجار تقف على أطراف جذورها.

الموت ، تقولين إن موتي وموتك ، اقرباً أكثر فأكثر
لقد عانينا الكثير وهذه الأرض الفقيرة لم تكن تكفي
أرض حدائق الخضراوات الأرجوانية - السوداء
ستبقى هنا ، سواء نظرنا إليها أم لم ننظر
والبحر ، كما يفعل اليوم ، يستنفس من أعماقه
وأنا أزداد حنّاً ، أختفي في المساحة الهائلة ، لأصبح حراً أكثر فأكثر .

١٩٩١ غواديلوب



قصيدة لنهاية القرن

عندما كان كل شيء على ما يرام
واختفت فكرة الخطيئة
وكانت الأرض متاهة
في سلام تام
للاستهلاك والفرح
بلا مذاهب ولا يوتوبيات
بحثت ، لأسباب غير معلومة
محاظاً بكتب الأنبياء وعلماء اللاهوت
بالفلاسفة والشعراء
عن جواب
بحثت عابثاً ومقطب الجبين
مستيقظاً في الليل ، ومدمماً بكلمات في الفجر

ما أصابني إلى هذا الحد
كان مخيفاً نوعاً ما
وكان الكلام عنه في العلن
لا يدل على لباقة أو حرص
وربما بدا انتهاكاً لسلامة بني البشر

ولكن ذاكرتي ، لسوء الحظ ، لا تريد مفارقتي
وفي الذاكرة كائنات حيّة
لكل منها عذابه الخاص
وموته الخاص

وذعره الخناس

لماذا البراءة ، إذاً
على شواطئ فردوسية
وسماء معصومة من الخطأ
فوق كنسية الصحة العامة
الآن ذلك حدث منذ زمن بعيد ؟

إلى رجل صالح
- كما تقول الحكاية العربية -
قال الله بنوع من المكر
ولو أنني كشفت للناس
أي نوع من الخطاة أنت لما مدحك أحد منهم ؟

هو أنا ، قال الرجل الصالح
ولو قلت للناس عن مدى رحمتك
لما خافوا منك .

لمن أتوجه الآن
بشان تلك المسألة المظلمة
المصنوعة من الألم والذنب ، أيضا
والكائنة في صميم بنية العالم
سواء ، هنا ، على الأرض
أو فوق في الأعالي
لا يمكن لأي قوة إلغاء السبب والنتيجة

لا تفكر ، ولا تتذكر
الموت على الصليب
ورغم أنه يموت كل يوم
الواحد ، الممتلئ باخبة
إلا أنه يقبل ، ويسمح ، دون حاجة لذلك
بوجود كل تلك الأشياء
بما فيها مسامير التعذيب

محير تماما، وملتبس
من الأفضل التوقف عن الكلام عند هذا الحد
هذه اللغة ليست للناس
تبارك الفرح
تبارك المحصول والحصاد
حتى لو لم ينعم جميع الناس بقدر متساوٍ من الطمانينة

بور كلي

■ ■

في وارسو
ماذا تفعل، هنا، أيها الشاعر،
بين أنقاض كاتدرائية سانت جون
في يوم ربيعي مشمس؟

ماذا تفكر في هذا المكان
حيث الريح التي تهب من [نهر] الفستولا
تبعثر غبار الأنقاض الأحمر؟

لقد أقسمت ألا تكون النادب في الجنازات
ألا تلمس، أبدا، الجراح العميقة لشعبك
لكي لا تجعلها مقدمة
بتلك القداسة الملعونة
التي تلاحق الأحفاد على مدار أجيال

لكن نواح انتصفتها الباحثة عن أخيها
أقوى من طاقة الاحتمال، والقلب
حجر يطوي، كالحشرة، ذلك الحب الأسود
لأكثر البلاد تعاسة

لم أرد أن أحب إلى هذا الحد
لم تكن هذه خطتي
لم أرد أن أشفق إلى هذا الحد
لم تكن هذه خطتي
قلبي أخف من ريشة العصفور الطنان

وهذا الحمل ثقیل علیها
کیف أعیش فی هذا البلد
حیث یضطلم الماضی بعظام لم تدفن بعد لواحد من الأهل ؟

اسمع أصواتاً ، أری ابتسامات
ولا أتفک من كتابة شیء ، خمس من الأیادی
تقبض علی قلمي وتأمرنی بكتابة قصة حیاتها وموتها
ولکن هل خلقت لأكون النادی فی الجنازات ؟
أرید الغناء فی الأعیاد
الذهاب إلى الغابات الخضراء التي کثیرا
ما أخذنی إليها شکسیر
اتركوا للشعراء بعض الفرحة
لئلا یهلك عالمکم

من الجنون المیش بلا بهجة

شعرية اللغة في ملتقى الأساطير في رواية كهوف هايدراهوداهوس، لسليم بركات، مؤسسة الدراسات العربية ٢٠٠٤

بيان سلمان

« اخترقوا رأسي كما اخترق السفن الحربية بحاراً، أدموا كلماتي كما تدمي المجازر ميناء أعين، أما مخيلتي - فهي
حمن يحميها الزمن - لكل متخيل... لتفادي سطحية البحث عن مفتاح للقراءة، سأشرح بالبحث عن مدخل
لكهوف هايدراهوداهوس:

إن يعيش الكاتب تجربة خاصة لا يخلو من مغامرة وخطورة وربما العنف الشديد، أن يخلق كياناً منتجاً في محاور
دلالية ومنها يخلق كياناً منفصلاً لكائنات تستغرد بالمكان ليس كرقعة جغرافية بقدر ما هي حدود مطلقة للمكان.
وهذا ما تطويع أحداث هذه الرواية الدقيقة التشبث بالغثيش داخل الأسطورة وإحيائها وليس « إسقاط أساطير في نص
الرواية » بإعطاء اللغة بعدها الأكمل، فتسرد الأحداث على السنة انصاف بشر فينجز الكتابة من الداخل، بالفها
الحيال وتسري في الشرائع.

هناك في مكان ما أسطورة غطاء الغبار، طمست معالم شفراتها، عالم يبدو لنا نحن البشر - بداليا، موهلة في
القدم، يعثر سليم بركات على مفاتيح دهاليزها - من خلال القراءة، ندخل مكتبتها الحياتية، أشبه بمكتبة بابل لبورخيس،
ويقترب من مكتبة المتاهات الموصوفة في رواية اسم الوردة لامبرنو إكو. نكان، هو موطن أسطورة محمودة. يصف
الراوي الأحداث من الخارج، لا يعرف أكثر من شخصيات لا يتفرد أي منها البطولة والاحتكاك بينها شبه معدوم،
يشير الشبهات. ومن هنا، فلكل محاورة أبطالها، وروفيول كل واحد منهم مفصل على مقاسه، مقروء بالدور الذي
سيلعبه في الأحداث. نتقرب معه وهو الدليل المتبصر، منيرا لنا بشعرية فائقة وشفافية مرفقة، كلمات مصاغة في
محاورات تنحو منحى منطقيا داخل سرد مرتب بتنسيق وتناغم نهائي تجدد صداها داخل كهوف هايدر اهوداهوس.
تساءل عن حقيقة الوجود، وجودنا، وجود انصاف البشرات تداخل الأساطير وتلتقي عند مداخل الكهوف

ومخارجها، وبالمزة لا يبدو أبداً أي منفذ للكهوف، فنحن نشعر طوال الرواية بأننا ندور في حلقة دائرية من قاعة إلى قاعة أخرى، تؤدي كل منها إلى مدخل قاعة أخرى دون مخرج حقيقي. وهنا تكمن قوة الكتابة وحدائتها حين يرغم قارئ القرن الحادي والعشرين باستعادة خصوصية الخيال والعيش داخل واقع الأسطورة بيوميات مسبوك من خيال واع، مدرك لآثر الفانتازيا وتمييزها عن عيث الكتابة.

في هذا النص الهجين المجموع بمياه تنبع من شطحات الخيال، تنتبج الراوي سارداً الأحداث من زاوية خارجية، شخص، ربما كائن آخر له معرفة بالتاريخ والأساطير عابراً حصن الإلياذة والأوديسة، معطياً أبعاداً شاملة للأحداث، ومانحاً قوة التكلم لشخصيات أشباه بإجراء محاورات طويلة أو قصيرة بين كائنات تمتلك أسرار الكلمة، وتنطق الجمل على شاكلة الإنس يفضل امتلاكها للقسم الأعلى (البشري).

تنطلق الرواية من أسطورة واحدة لتصب في بحر من أساطير متشابكة في البنية. من تلك السلالة النصفية، يولد عالم مشفر برموز، يقدم الراوي المفوظات على شكل حقائق مختبرة: نعيش زمن الأسطورة، والمكان ديكور يجتاحنا بغربة تراكيبه داخل فضاء متخيل يلتقي فيه الزمن والمكان وشخصيات أنصاف إنسان وحيوان تعيش حلم الكمال أو عدمه؟ أمر مقترن بمخيلة عالم فكرة الكمال فيه رهينة بما يتصوره كل مخلوق، بالأحرى بما يتلقونه، أو يملئ على مخيلتهم من قبل سلطة الأمير الأعلى. قاورسين بمفهوما النوعي للإنسان، إن هو إلا مخلوق دخيل، غريب عن عالم الموديل الخلفي فيه كائن على شاكلتهم، ينصفه الأعلى إنسان (حيث يمثل العقل، الفكر، الأحاسيس، الفرائز والأحلام) ويجذع وحوافر حصان تمثل فيه (القوة، الصلابة، الأعضاء الجنسية ومنها اللذة والولادة أيضاً). ولادة كائن إنساني الم، وولادة الأنصاف الم مضاعف، أما ولادة كائن نصفي بقرن في جبهته فهو الم مستثنى، والاستثناء يمس الشاذ عن القاعدة العامة بما يعني يشذ عن أحكام عالم كهوف هايدراوداهوس. في هذه الثلاثية التي تبدو عقلانية، تولد ثلاثية: الإنسان؛ كائنات أشباه؛ وأحلام بانصاف. هل الإنسان موديل يقاس عليه أم هم الموديل؟ هل يمثل الحلم الكامل بهم، بانصافهم أم بالإنسان الذي يبدو لهم كجزأين متشابهين، مركبين لا يترجم أي معنى لهم؟ ما هي معايير التشابه والاختلاف في عالم نفتحمه نحن (الإنسان) باعتبارنا كائنات أسمي وبالنسبة للهوداهوس— كائن لم يرتق عن الدرجة الثالثة؟

برغم أن سليم بركات سبق القارئ بحكمه معلناً على الغلاف الرابع (الخير): لا إسقاطات من الأساطير في نص الرواية. لا إعادة صوغ إنشاء أسطوري، إلا أننا لا نستطيع الامتناع عن التفكير في أساطير ومعتقدات أخرى وحتى قصص وروايات عالجت فكرة كائنات بانصاف أو تحول الكائن الإنساني إلى كائن آخر. فسنستور، كائن معروف عند الإغريق والرومان على السواء ممثلاً العتمة، مخلوق نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حصان؛ شخصيات من عالم التحولات لا وفيد، أشخاص يتحولون إلى حيوانات في ألف ليلة وليلة الخالدة، مسخ كافكا، وجانيش ابن الإله شيفا. أليس الاغتراب الذاتي، تعقيد العصر الحالي، الملته خلف السراب، ازدياد درجة العنف ورقعي الحضارات— عوامل يحث الكاتب للالتحام بحالم يصنعه من جنس خياله؟

الكهوف تمثل العالم أجمع حين ينقسم على ذاته في ترتيب هرمي تتركز السلطة فيه تحت إمرة كائن واحد يمتلك العنن والسر، يصادر الحقيقة والحلم، مستبجهاً المشرع واللاشروع. وحتى داخل نظام الكهوف العالم منقسم مرة

أخرى: الداخر (الأمير وعائلته، خاصته وأتباعه، مهرجه، طباقوه المصعبون، قبة الملقفين)، الخارج (العامية) نظام اجتماعي مبني على تدرج معدن الحدوات أيضاً (الذهبي للأمير، الفضي لانتوميس، الحديد لحنايس ونعال من جلد الجاموس للعامية)، في ذلك الفضاء المستلب يلتقي الإنسان بمسحه أو تلتقي كائنات انصاف بمسحهن، يلتبس الأمر عليهما- من مسخ من؟ ومن تعرض للاندثار ومن خضع للتطور؟

الصور الثلاث ممثلة أورمين في حركتين مديروستين: من زاوية تراها أنتوميس: «واحدة لأورمين مستنسخة، بتمامها، عن شخصية اللوح التي وهبتها أنتوميس إلى ديديس. والثانية لأورمين وقد أضيف ذبل طويل إلى جسده، فوق ردفه، كما استبدل قدماء بحافرين. والثالثة لأورمين، بنصفه الأعلى فقط، متصلاً بنصف جواد، مثله مثل مخلوقات اليهوداوس. لكن ما سكب في قلب أنتوميس قطرة من ندى الطلق هو القرن. الذي برز مستقيماً في جبهة أورمين». أما الأخرى فهي من زاوية الأمير (ثيوني لخطات أخيرة قبل موته): «نقل الأمير بصره من شكل اليهوداوس الكامل إلى الشكل الثاني ذي الذبل والحافرين، ثم أطل التحديق إلى الشكل الثالث- شكل المغلوق الواقف على ساقين، عارياً...» إنها أيضاً لحظة- يتم الراوي فيها قوله: إن الأمير مات مطبقاً أجفانه على نقوش الحقائق. ونسأل: أية حقائق في عالم يبدو ترميماً لصور ورسوم غائرة وتشكيلاً من محاورات لن تحمل نهاية لها؟

في كهوف يستلزم فيها خيط أربان للدخول والخروج، يمتزج الدال والمدلول في تقييم اللغات والمعاني داخل نظام جيولوجي بدائي قائم على محاكاة الطبيعة ولكنها طبيعة مرسومة في مرحلة بدائية لتشكيل اللغة، وهذه ليست كافية فيتوجب تدخل العقل لتصنيف الأوضاع في تشكيلة علامات ورموز لا يفلك شفراته سوى الفوضى حيث بداية الأصل، الخلاص ولكن مم؟ «الفوضى هي النظام الأصل»، «الفوضى خلاص» نسمع صدى هذه الكلمات على شفة آزينون الشاعر/ شبيه الأمير في الآن نفسه. توأمه الشكلي.

مخلوقات بلا ذاكرة ليست لديها أدنى وعي عن وجودها أو عدم وجودها، بينما الموت يفرض نفسه في جدال، أقطابه ينتجون الموت حرقاً، مفضلين عليه التحنيط بما يضم هذا الأخير من دلالة عميقة، حيث الخلود، السرمدية وما فيها من تناقض الفكر حين يعلن: «شرع التسليم بتحنيط الموتى بدل حرقهم. الحرق يكثر من اقتحام الأرواح للأمكنة المحظورة: العقل. الهيكل الذي يتزوّد فيه الأمراء برؤية الكهوف المفقودة. مخادع النساء». الحرق هنا مرادف لكل الشرائع والأديان القائمة على حرق الجثث، مؤمنة بأن الأرواح تتناسخ وتلبس جسداً آخر (حيوان أو إنسان). بينما التحنيط يتحوّل إلى تاعيل للعودة للحياة، نوع من إعادة إحياء الميت بصورة ما، مما يتيح مراقبته، حيث بالمقارنة مع الحرق (حيث تتجول الروح بحرية) ينفذ من المستحيل السيطرة على تلك الأرواح الهلامية التي تتمكن من دخول أية مكان تريده والمحظور منه خصوصاً.

دورة الحياة في ذلك العالم قصيرة: «في السادسة يتزوج مخلوق هايدراهداوس. يكتمل في العشرين. يشيخ في الثلاثين. إن لم يمض ضعفاً، أو مصادفة، حتى الحادية والثلاثين، حمل معه حدوق. كما في روايته الأولى سليم بركات فقهاء الظلام، حيث شخصية بينكاس (...) يولد، يكبر بصورة استثنائية ليشيخ في دورة ليلة واحدة مختلفاً في صحراء الثلوج.

في نظام فلكي يدور حول نفسه: تعاقب الليل/ النهار، فاكهة الظل/ فاكهة الشمس، القمر/ الشمس. يحتكم

عالم كهوف هايدراهوداهوس، بالأرقام إذ لها مكانة مميزة . فالرقم ستة مكرر في عدة مواضع (أحياناً يمثل نصف رقم آخر « ستة وأربعون، ست وستون، ستة عشر ») ألها علاقة بقصص الخلق والعكوبين؟ سلسلة من أشكال هندسية تفرض كياناً منفصلاً مخترقاً بدلالاته حدود عالم مطلق، مرسوم على خريطة زمن سباكن، زمن « حقائق ثابتة »، محاولة إجراء أي تغيير عليها أو حتى فهمها هو المس بقدمية ذلك الكيان : « ستة وأربعون خواناً وأطعاً من المرمر الأسود، أنصاف دوائر، توزعت، في حلقة واسعة على أرض الكهف . كل ضيف أخذ مجلسه أمام خوان منها يتسمع لسته صيحوون من الفخار، وإبريق آجري مليئ بنبض الثوت الأبيض . في وسط الحلقة مائدة مستطيلة من الصوان ذات عروق من الفلز الأصفر والمقرمزي » .

مقاربة أخرى لصور تجمع بين نصوص دينية سماوية ووجهات نظر فلسفية بالإضافة إلى صبور لمآدب معدة أشبه بمادة أفلاطون (مع فارق الشخصيات)، وأقربها مائدة البطريك في رواية ماركيز خريف البطريك : (حين إحضار جنة وزيره مشوية ليشارك الوزراء الآخرون في أكله)

« كان الخوان الصخرة، المستطيل ستا وستين ذراعاً، على أتم عذته : فاكهة البطل وفاكهة الشمس متجاورة في الصحاف . . . في أبهة تلك الأجواء الاحتفالية يعيش أولئك المهاريون زمنهم ممارسون طقوساً ليست أقل معاصرة في وحشيتها من طقوس عصرنا الحالي . ضمن هذه الاستعراضية أيضاً يقدم سليم بركات الرواية وكأنه لا يمت إليها بصلة، متحولاً بدوره لقارئ محاورات تبدو كمونولوجات، لأنها تؤولي أفكاراً ميتافيزيقية تنحصر في دائرة مغلقة؛ وإن تحولت إلى دبالوغ أي إعلانات، فإنها ستؤدي للنهاية كما هو حال الكائن الأبيض حين يستنطقه الكاهن كيدرومي : [ما الحلم الكامل؟ . ساعيدك طليقاً إن شرحت لي ما كنت تثرثه للطحائين ساعة قبلوتهم » ، قال الكاهن . صهل ثانية : « هو هرطقة ما تفوت به ، أم رؤيا ؟ . « لا هذه ولا تلك ، أبها اليهوداهوس الكاهن . الأمر يجرى على الوحدة » ، قال اليهوداهوس المقيد .] . الحلم الكامل، التمرين على الوحدة، ما هما إلا وجه واحد لفرديانية محكوم عليها بالفناء في عالم يعيش نظاماً جماعياً لا مكان فيه للأسرار التي تعني بدورها عدم الانفراد بالنفس - « محمدم كيدرومي : ما حاجتك إلى الأسرار؟ رد اليهوداهوس للمقيد - سي حاجتي إلى الوحدة »

. الكائن ، في هذه الرواية مقدم ككائن طبيعي يعيش على مساحة أرضية بعيدة عن التجريد . غير أنه عالم متقطع عن الاتصال ، بعيد إنتاج ذاته عن طريق منظومة من العلامات المستهلكة لا جديد يضاف عليها، حياة فقدت الحركة، وانعدم فيها التغيير والانتقال نحو الامام (المستقبل)، والحاضر اجتراح لماض قابع في سيرة ترميم . فالزمن هو عصر أشكال ونقوش على الجدران، إذ لا وجود لزمن حقيقي بالمفهوم المعروف للزمن، لا أداة تلمعن الوقت، ولا نعرف ما هو الوقت، كل الزمن أشبه بالتأثير داخل « ساعة محطمة » . نحن راضخون للتمتعة والثور، لنصاع لنظام متسبّر في الأفلاك .

ففي هذا المنحى يخطو سليم بركات درجة أخرى في استمرارية الإبداع، مقترحاً وجهاً آخر من لراجيدما لها بعد فلسفي عميق يحتم التوقف عنده للوقوف على خاصية النص المقدم، باعتباره معالجة سياسية غير أنها معالجة بعيدة كل البعد عن المباشرة والسذاجة، أنه نص لتذوق رفيع، تخيال ليس بحاجة إلى جواز سفر . أما إبقاء المحاورات فهو مسجل في زمنين : زمن السرد في الماضي وزمن المحاورات في الحاضر، وهناك لحظة تتداخل مع هذه الأخيرة يعاد سردها

عن طريق الفلاش باك بالاستعانة بخيال الأميرة انكسوميذا يُعلم فيها القارئ وقائع اختفاء الأمير: «امتعض أكسيانوس،
حجمم الكاهن كيدرومي، رغرقت أنيكساميدا بمروحة بعدها أمام وجهها، عائدة بخيالها إلى المساء الذي كاشفها
الأمير برغبته في الخروج إلى ساحات هايدراوداهوس وأسواقها، متكرراً (...).»

من زوايا تلك الأشكال الهندسية التي تعج الرواية بها: الدائرة، المربع، والمستطيل، المكعب والسداسي (...)
المرتبطة بنظام الكون أيضاً ويعلم الأفلاك حيث يمتلك أسرارها «مدراس» الشاعر الفلكي، صورة تذكرنا بالشاعر
الفارسي، الفلكي عمر الخيام، صورة توظف العقل في سرورة لا منقطعة، سرورة الكون على منوال نظام مؤسس داخل
شريعة هايدراوداهوس في هارمونية متصاعدة تؤدي بنا للسباحة في مدار أفلاك لا توجد في سماء عادية؛ أي كما
نعرف السماء ونراها بمصورتنا، السماء بوجودها أو عديمها في نظام الكهوف.

فضاء الرواية مغلق لدرجة لا تعطي إمكانية تسمية وجود الأشياء بمسمياتها، وهكذا فولادة أنستوميس من فصيلة
يقرب فرهد ثابت في جبهتها كعلامة فارقة ترمز لفرادتها أيضاً، فأنستوميس حاكمة فيغلانفيدي (المكتبة بعبارة
أخرى)، لذا فمعنى الرمز يتسع وتحقق جذوره عميقاً شاملاً الحياة نفسها في كهوف هايدراوداهوس، حين يتعلق
الأمر بسلطة المعرفة ملخصة نفسها في مكتبة أشبه بمقابر الفراعنة بما تحمل أجساد جدرانها من وشوم؛ مكتبة مفاتيح
أبوابها في عهدة أنثى، بقايا سلاله فرهدة أنقرض نوعها ولم يبق في حوزتها إلا معاناة التساؤل: «ما الذي فعلته أمتي-
أمة القرن الثابت في الجبهة- بنفسها»

الإجابة لنفسها على الأرجح معلقة داخل مخطوطات تتألف من نقوش ورموز؛ الوحيدة هي- أنستوميس مالكة
لأسرارها. التساؤل أثناء ذلك ليس إلا حيلة معرفية تتقنها هي محاولة تحريك القارئ للدخول في لعبة فك الأسرار وليس
كشف الأسرار (وأعادة صياغتها في بناء جديد. بالإضافة إلى ذلك فشخصيات الرواية جميعها محكومة بالدخول
لاجراء قرين شاق للذاكرة. بالدخول في لعبة أفسى- سرد الأحلام التي تحمل محل سرد الحكايات في ألف ليلة وليلة،
ومن هنا فالأمير يحكم على كل الفنون بسرد نصف حلمه حيث النصف الآخر يفترض أن حلمه هو حلم شخص آخر.
نصف إنسان، نصف حصان؛ ونصف حلم؛ حتى الديكور المحيط بالمكان نصفني. نحن داخل دائرة أنصاف لن نكتمل
إلا بالصرد والذي لا يسرد حلمه يحكم عليه بالموت. أما حين ينفذ خزن الأحلام يجري البحث (وليس الاستغراق في
التفكير) عن خدعة تحمل محل سرد الأحلام، يتم إذن تلفيق الأحلام، ومستلزمة الفكرة هي أنستوميس العارفة بالحبايا
والأسرار، فتصد الجميع بالرموز وتضمن الذاكرة الجمعية من مصدر سرد واحد. حين كشف اللعبة من التوأمين اللذين
يبدو عليهما عدم فهم ما يجري، يبدو لها وكأن الراوي رأى ضرورة إيقاف اللعبة وإعلان انقطاعه نحو المصير المرسوم
للأمير؛ غم الحكيم يساري الموت المنتظر لشهرزاد بينما قوة الرواية هنا هي في هذه الدورة المرتدة على الأمير نفسه،
وكانته تغذي من الحلم الذي حلمه الجميع ونفذ وتغذي أيضاً مما لُفّق لإطالة السرد وإبعاد الضجر عنه. حين استطردت
شهرزاد في سرد حكاياتها حتى وصلت إلى الدرجة الخامسة في السرد لم يكن فقط إنقاذ لراس الأميرة كما قال
تودوروف، وإنما أيضاً لتسلية الأمير وأبعاد الضجر والملل عنه وقصة شهرهار مع النساء ليست إلا حجة لإيجاد الراوي
ذي الباع الطويل- شهرزاد التي لا تسرد فقط وإنما تستطرد في الحكيم وتقتن فن السرد. كما أن أنستوميس لا تلفق
صوراً خيالية فقط وإنما وحدها مالكة زمام المعرفة وإن حملت خنجرين ككل مخلوقات الهوداهوس [...].

وهكذا بالنسبة للمهرج خانياس حين يقر الأمير بأنه لم يعد مضحكاً مما يعطينا مفتاح تاويل للوجه الآخر لهذه الملقوفة : (نهائيتك وشيكة) .

لن أبالغ في المقاربة بأنها نفس تلك الصفحات البيضاء التي لا تحمل كتابة فتؤدي لموت متصفجها . بعبارة تودوروف أيضاً : « الصفحات التي لا تسرد تمت » ، فهنا يصير خانياس يُعلن عن نفسه منذ البدء وعلى لسانه : « الآن سأقول لك ما هو الموت ، لأنني أعرفه » . وحين لن يتمكن من إضحاك الأمير ، لأنه فقد أيضاً قوة تجديد الدهشة عنده ، مفترضين أن الأمير لا ينتظر شيئاً مما قدم له مسبقاً أو توقعه من قبل ، لذا خانياس يصير مهرجاً من جديد بموته ، الذي يحمل بفضاعته الإثارة والدهشة : [« علا الصهيل في كهف الولايم ذي الزوايا التسع » (...) إنها جثة خانياس مشوية على الحقة ، جالسة في كامل هيبتها (...) فهقه ثيوني : « انظروا إلى حوافره . انه يرتدي حدواته » ، قال ، ثم صهل صهيلاً موحشاً : « لم اعد أذكر متى كان خانياس مضحكاً . ها هو مضحك أخيراً »] . كل شيء يظهر وكأنه اللامتوقع حتى تسود فكرة : إننا في غيبوبة ، الصحوّة منها انصدام بواقعنا الإنساني والتصادي فيها استسلام لواقعهم هم . فلا مفر من التساؤل : ما هو الوعي الإنساني حين يخص الأمر كائناً يملك رأس إنسان ، عينيّه ، أذنيه ، فمه ، وربما قلبه ؟ وما هي نوعية الأحلام التي يجرّد الأمير الآخر منها ؟ أكفّ الأمير عن الأحلام وقام باستنزاف أحلام اليهوداهوسين كما حجز كرائك الأطفال وقام بسرقة أحلامهم في مدينة الأطفال المفقودين ؟

في داخل تلك الكهوف المغلقة ، الشمس بما تحمله من معنى الضوء والحرارة مرادف لرفض المتعة . لا نلتبس وجود النور حتى في لحظة « خارجية » تشرق فيها الشمس أو يعلن الفجر ، لأن الأمير وحده من يملك حق تأمل الفجر من مرصده والبلورة في حوزته ؛ ويسري الأمر على وجود المشاهل في « الداخل » ؛ فالإنارة الحقيقية هي تلك التي نهرس فيها آثار كتابات (رموز وعلامات ورسوم) على جدران الكهوف لحظة تعقينا لأنستوميس حاكمة المكتبة : « تحمل فانوسها القوي وتدور ، بأمومة بصرها وخيالها على الرسوم النافرة والغائرة » .

لن أبالغ في الاستطراء : إن رطوبة المكان تتسرب إلى الجسد لحظة ملامتنا لأرضية كهوف محشوة بصور معيشة بدائية . حقل المصطلحات كلها ينتمي للكهف والحوان وفتة من كائنات تتقن الحروب : [جلد ، صهيل ، عرف ، ذيل ، قوائم ، حوافر ، بهو ، صخر ، خنجر ، حجر ، حديد ، برونز وقضة ...] حتى زينة الإناث الذهبية تفقد رونقها ويتحول معناها إلى مكمل للإكسسوار للعد ضمن مآدب هستيرية . لذا يتحد التامل مع فكرة الحرب ويصير الفكر في خدمته حين يُصرح : « وضع يديه على مقبضي خنجريه كعادة اليهوداهوس في التامل » إنه إشارة أيضاً لعالم يؤمن بالهوسوس . إذ في مكان آخر تقول أنستوميس « نحن قراء الصور لا نثق إلا بعيوننا » . الصور رؤية بيننا وضعية أنستوميس كحاكمة لفيغلافيفذي (المكتبة) تتوشش الأمر علينا ، فالمعرفة في حوزتها وهي تثق بالعين ، إلا إذا تعلق الأمر بإشارة ضمنية للبصيرة الثاقبة مشيرة للعين كاستعارة وليس وسيلة هذه المصطلحات تشير أيضاً فكرة أن هؤلاء الأنصاف يتدربون على تداول المعاني ، لا تعرف لغتهم ، فاللغة أيضاً نظام تفكير وهذا معدوم عندهم ويحتاجون ترميزاً ذهنيّاً لإظهارها فقد من صور ورموز وشفرات على جدران الكهوف ، ومن هنا أيضاً ظهور أورسين (إنسان بمفهوما) في دائرة خانياس إن هو إلا لغة أخرى غريبة عنهم كما تبدو غريبة علينا بعد اعتيادنا على عالم مرموز مقدم لنا من أولئك الأنصاف وعلى أساس أحكامهم نحكم حين يتبعوننا في إشارة تهكمية لأورسين : « الكائن الذي يتأمل

كائناً آخر مثله ناقص الأعضاء، هو بلا ذاكرة « إذن هم في مرتبة أرقى لأنهم يتأملون كائنات أخرى غيرهم، مدونين ما يكتشفونه ومن ثم يقومون بصيانتها. أورشين ليس اسماً بل جنس آخر ناقص، فالكمال يشتمل بهم » حين تفتنخر الأميرة انكساميدا (...) نحن مخلوقات الشكل الأنبل ». وهكذا فحملم أنستوميس النصف (...) الذي يكرر نفسه، باحثة دون جدوى في كل مرة في حلمها عن مخرج ليس إلا إن من كان يكمل حلمها، نصفها الآخر الذي انقرض ولا نعلم شيئاً عنه سوى أنه كان من سلالتها. فمن هو الآخر، النصف هنا؟ اقتراح ديديس على أنستوميس بالزواج وهي أنثى، إن هو أيضاً عرض بالزواج مرددة على مسمع أنستوميس « أنا شريكك » في دلالة على تزواج المعارف حيث ديديس تقول « لقد تزوجت نقرش هذا الكهف » (...) انتزجيني، أنت أيضاً أيتها الهوداهوس أنستوميس؟ (...) أنا وأنت، وهذا الكهف، والأعمدة، والرسوم، في دورة خيال واحد. يمكننا أن نعلم بلا نهاية « أهو حلم الكمال، نقل المعرفة وصيانة الذاكرة عن طريق ترميم جدران الكهوف المشحونة بالخيال، بصورة أوضح البناء الأتم؟ أهو تزواج بين المعرفة والثورة حيث تمثل بشخصيتي أنستوميس وديديس (أنثين)؟

المرأة كاستعاره عن مضاعفة الصور وانعكاس نرجسية الأمير تفرض علينا التوقف عند انكسارها ورؤية الأمير لنفسه ورؤيته للأميرة في صور متناكثة ترى في كل شيء، في كل الأماكن وتنعكس في ذاكرة الكل. توارى الأمير في زوايا الكهوف وتكره في زي ما ومن ثم خروجه إلى الأسوأ، ليس إلا خدعة كل الأمراء بعد التشكك في مؤامرة (عند اكتشافه خدعة الأحلام المملقة)، غير أنه عذر للتخلص من ضجيره. إذ ليس في أجواء هايدراوداهوس أي دخان لنار مؤامرة، فهذه الأخيرة تعني توقع حرب، وهذه بدورها تعني للأمير وأخيه وخلصتهما إبعاد الضجر فالخرب تسلية مباركة، مرحب بها من قبلهم: « بين حرب وأخرى تلزمتنا فسحة للتفكير في حرب جديدة، أكثر كمالاً. وهؤلاء الأمراء يعدون بي إلى الضجر (...) ». فبعد أيام من بقاء الأمير متنكراً، الموت يتمص شخص ديديس حين تكشف أنستوميس أمر الأمير، فتهب الأولى إلى قتله قائلة: « أمير متنكر هو أمير ميت (...) زفر ليوني مطبقاً أجفانه على نقوش الحقائق » يقول الراوي- ليوني مجرداً الأمير من لقبه لحظة موته، حيث الأمير انبهت في شخص الشاعر مذ تنكره مما أعطي شرعية اختفائه كلياً. نحن في دائرة من الرموز، شاعر يخلف الأمير في حكمه، فلكي آخر يخلف الشاعر الفلكي إزبون / الأمير في قراءة الأفلاك، للكهان جوناو يخلف الحاكم كيدرومي. يتولد لدى القارئ انطباع بأن أنستوميس هي المدبرة الحقيقية لكل المصائر بامتلاكها لسلطة المعرفة وإملاء الخيال على الآخرين، تطريز أحلامهم وحشوه بالصور الهيست هي مروضة الصور؟ العملية على ديديس قوة التعامل مع الرموز والصور ومزاجية الأشكال؟ مرددة على مسمعها: « أبدأي بتخذية قلبي جديد حتى ينفجر من التضمة » أهني ذلك قلقاً فلسفياً، معرفياً؟ ربما، ومن هنا لا يستبعد إملاؤها لخيال ديديس بقتل الأمير أيضاً.

في هذه الأجواء السريالية يتوارث الهوداهوسيون نظاماً أقرب شبهة بالعراقة منها عن المعرفة، في استعارات بلاغية مكشفة وتوريات مقبولة في أفكار مستعرضة ضمن المحاورات. داخل قراءات فلكية وفلك تقام الودع المعلق بشعر الإنثا وعلى صدورهن؛ حق استنطاق إله اللون من قبل الأمير وحده وتجريد الآخرين من اللون؛ وفي توارث المباءات كرمز لتوارث الملكية والسلطة؛ فللهود التسعة، حقائق اللون العشر، الأعمدة الشامخة الحضر، وأرقام أخرى يولدون معاني ممتدة الغزير إلى عوالم خفية لا تملك إلا بصيرة قصيرة خيال أصلها. صراع متوارث بين العتمة والنور، بين أشياء

منطقية وأشباه أشياء، بين الحقيقة والتجريد .

يحتمل الجسد مساحة متخطية الشكل المرسوم له . إذ في فضاء الجزء الأسفل، في ذلك « المقطع » الحيواني تتركز اللذة الجسدية بمعناها البدائي، بينما الصهيل كميزة للحصان ينطلق بالضرورة من الفم أي من الجزء الإنساني . الطهارة المخصيون يشكلون وحدهم علماً خاصاً : « صهيل الطاهيان صهيلاً خافتاً فيه وسوسة لا تكون إلا في حناجر الطهارة المخصيين في عموم هايدواهاوس : » يخصصونهم كي يشرّد النسيان شهوات خيالهم إلا شهوات ابتكار بمالك من النكهات، وشرائع من قدسية الطعم » : ما علاقة الطبخ بالإخصاء ؟ الطبخ في كل زمن مشير للشهوة، أما أن يخصى كائن كي يخصب في ابتكار النكهات فهذا من شمائل اليهوداهوسين ! الإخصاء ملازم للخيال وهذه مرابض للأحلام، فلكي يقتلع الأحلام من جذورها لابد من نسف الطاقة المرسلّة، شهوة الخيال، التي تعني الإتيان بالمجديد - الإبداع . غير أن هذه الأخيرة مرتبطة بفكرة الحلم الكامل . فمن مالكة ؟

إن من الأهمية الإشارة إلى نقطة قابلة لأكثر من تأويل : وهي التناسل المضمّر ! حيث أن الرواية تأخذ بعداً آخر من القصص والأساطير المعروفة وهو البعد الزمني وعكسه بما يفيد غرض المحاورات (كقصّة فرعون مصر ساردا حلمه على يوسف) . فحلم العملاق تيتونا النصفي، حيث نصفه الآخر عند كيدرومي هما نوع من استيقاظ الزمن لنبوة تخص مصير الأمير حين يتشكر بزي راعٍ : « أرض عراء، لا شجر . لا حجر . قطيع هائل من الثيران (...) كنت، أنت، أيها اليهوداهوس الأمير، من يقدّم تلك الثيران ... » كما هو الحال بالنسبة لتفوهات المهرج خانياس الذي بدأ بكلامه وكأنه يستعجل ميتته الشنيعة القادمة . أما فيما يخص ما بعد الحياة، فهو يمثل بين نهر حقيقي كمصدر للحياة وبين نهر سيثام كمصدر يحتضن الموت « حيث ينتظر أربعة حراس أقوياء » صورة شبيهة بنهر الموت في الأساطير المعروفة [...] حيث خمسة كلاب شرسة تحرس بابها .

النص الإبداعي هو أيضاً النص الذي يبحث للقارئ على الدخول إليه من أبواب لا ترى بالعين فقط وإنما يحتاج التفكير في مخرج بعد دخوله . وهذا ما يحدث لنا عند الدخول في هذا النص المتناسك البنية وكأنه مشيد على رقعة شطرنج نقلة « كش ملك » فيه ليست إلا لعبة واحدة في دورات محكمة الحكمة .

كل شيء يبدأ « بعد »، وهذا البعد يتحول بسهولة تحول الأحداث كلها إلى حدث واحد يصور نفسه في مشاهد متقطعة على شاشة ليست باقل استعراضية من مشاهد تصوير سينمائي . وهذه نقطة قوة أخرى تضيف لشهرة الكتابة عند سليم بركات لهذه الرواية، حيث لا يمكن إنجاز عمل أدبي معاصر دون أن يكون التصوير السينمائي توغرافي في الذهن . أن نكون داخل الحدث ليس كما في خارجه، قد يبدو لبعض صعوبة العيش داخل حدث يستبعد واقعيته، بينما يكفي الواحد منا أن يمد إنتاج الحدث المروي داخل مخيلة خصبة قادرة وواعية للاستجابة لما هو ليس بمعقول حسب مفردات عقلنا البشري، فجواب أنستوميس لسؤال الأمير عن معنى الموت : « أنه خراب اللون » ما عو إلا إشارة للفناء حين يطفى اللون الأبيض والأسود على كل شيء . بالأحرى ينعدم اللون ولا نجد تحريفاً له . وهنا أصبح لنفسه لا شير للقارئ برائعة كوكتو فلم « أورفيّة » حين يدخل أورفيه من خلال المرأة عابراً للعالم الآخر يرافقه مرسل من الموت ماراً بمنطقة أشبه بمدينة بعد الحرب، ينعدم فيه اللون، يمثل الخراب متسائلاً أورفيه بدهشة : [...] أين نحن ؟

يجيب المرافق: إنها منطقة، صنعت من ذكريات الإنسان وأطلال عاداتهم. الأصعب ربما وأرجع إلى كلمة « بعد » حيث الصعوبة القصوى تكمن بعد الحدث: إذ تصوير الأحلام كلها كابوساً واحداً يصاحبك إلى الأبد في رحلة داخلية ليست أقطع من رحلات نحو عالم الأموات حين تلازمنا الأشباح وتتكتل حولنا الجثث، وستتحول بدورنا إلى جثة تتأمل شبحها من الأسفل للأعلى ولكن بخطوط متقاطعة، متداخلة في بعضها كتماعات لا خروج منها إلا لإعادة السيناريو بشكل أقطع لليلة قادمة. وأحياناً في قبولة نهار نطمعن فيها إلى أن الكوابيس لا تقاطع مع القبولات! وما يشتهه سليم بركات هنا، منها المحاورات على مشهد الشعراء وكان به يلمهث معهم وبهذي بالأشعار، أو ليس الشعر نوعاً من (السقوط) الواسي داخل الهذيان؟ أو ليس العالم نفسه مخلوقاً من هذيان الشعراء؟ « اندفع سيل من الغبار خلف الشعراء الراكضين في الحلبة يلقون أشعاراً مختنقة من حناجرهم الهاذية، وتصادمت أصدااء الحدودات المدربة على ابتكار رصنها ».

غير أنه حتى في فضاء كهوف هايد راهوداوس للخلقة والمقلقة بتناجها النهائية، يترك للفارئ حق العبور على ثغرة في كرة الكهوف لإعادة الإيمان في لوح مجري نصفه الأسفل مكسور، منقوش عليه رموز وشفرات لم تكتمل، وما على الفارئ إلا البدء بتكملة لهاتيك الكتابات المتوارثة، لا لشيء إلا للتواصل مع أجناس أخرى وإن لم يكونوا من نوعنا أو نحن من نوعهم.

المصادر: باللغة الفرنسية

- Tzvetan Todorov, Poétique de la prose, éditions du Seuil, 1971-1978.
- Michel Fayol, Le récit et sa construction, édition Delachaux & Niestlé, Paris 1985, 1994.
- Maurice Blanchot, L'espace littéraire, éditions Gallimard, 1955.
- Patrick Vauday, La matière des images, éditions L'Harmattan, 2001.
- Gérard Dessons, Introduction à la Poétique, éditions, Dunod, Paris 1995.
- Gérard Genette, Palimpsestes, éditions du Seuil, 1982.
- Gérard Genette, Figures III, collection poétique, éditions du Seuil, 1972.
- (*) للاطلاع على رواية لورا إسكيفيجر تظهر علاقة الرغبة والشهوة بالطبخ، أعدت هذه الرواية للسينما في فيلم من إخراج الفرنسيو أرو.
- Laura Esquivel, Chocolat amer, éditions Robert Laffont, 1991. Le film, adapté au cinéma par: Alfonso Arnaú, Les épiques de la passion, 1993.
- Renate Germer, La vie après la mort dans l'ancienne Egypte, éditions Flammarion, 2001, Traduit de l'anglais par Jean-François Allain.
- La cité des enfants perdus, Réalisation: Marc Caro & Jean-Pierre Jeunet, 1995.

ما الذي في الكأس؟ يوسف الخال ومجلته «شعر»، لحاج أماناتاييس، دار النهار، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية

ديمة الشكر

يروى الناقد الهولندي الراحل «إد دي مور» أنه سال أدونيس مرة - وكنا في مهرجان شعري في أمستردام -
لم لم تقدر تجربة «شعر» أن تستمر في نهاية المطاف؟ تربث أدونيس قليلاً ثم نظر إليّ، ابتسم بمرارة وقال: كانت قد
انتهت، الكأس كانت فارغة. لم يعد هناك من إلهام لما كنا نود عمله.

ماذا كان يوجد في تلك الكأس؟ وبم فرغت؟ هذا هو السؤال. وهو سؤال شرعي يزداد إلحاحاً بعد مرور قرابة
خمسین عاماً على تجربة مجلة «شعر» ومؤسسها يوسف الخال. وشرعيته تلك تعطي الكتاب الذي بين أيدينا ميزته
الوحيدة ربما: ميزة الجواب، من دون أن يكون هذا الأخير شافياً أو مقنعاً أو جديداً.

متسلحاً بالتوثيق والوثائق والبحث العلمي والمنهجية الصارمة، والجهد الشخصي في اقتفاء أثر المعلومات التي
وجدت، يعلن حاج أماناتاييس أن المنهج الذي يتبعه هو «المنهج التوثيقي والتاريخي». وهو يهدف من خلال كتابه هذا
أن يورخ للسورة الثقافية للشاعر يوسف الخال. ويهدف من جهة ثانية إلى وضع مجلة «شعر» تحت مجهر التحليل
نفسه.

فرجت العادة في دوائر البحث العلمي، على النظر إلى الكتب «العلمية» من جهة التزامها بالمنهج الذي
اختطته، والنظر فقط فيما إذا حادت عنه، قاركةً للكتاب بعدها أن يدبر شؤون حياته، ويصمد في وجه الباحثين
اللاحقين.

لا يخفى أن الكتب «العلمية» بصيغتها وشكلها الغربيين، قليلة في ثقافتنا العربية. لذلك ربما ينبهر القارئ
بترتيب الكتاب وتبويبه وملحقاته وإشارته إلى المصادر والمراجع بدقة ومهنية. إذ إن الكاتب التزامها شكلياً، - أقول
شكلياً وأؤكد - لأن التبويب لم يكن موظفاً من أجل إظهار الأفكار بشكل واضح، ربما لهذا، تكررت المعلومات في
الكتاب مرات عدة. من ناحية أخرى، حملت عناوين الفقرات ادعاءً مبالغاً فيه وابتعدت عن وظيفتها في أن تكون

دالة على شيء محدد بشكل علمي محايد، وبدت كعناوين كبرى وشعارات لا ترفدها ولا تدل عليها الفقرات التي تليها. أما الجداول الموجودة في متن الكتاب، فقد بدت في غالبية الأحيان حلية ترنيية، تظهر المعلومات بالطريقة ذاتها التي تظهرها الفقرات، أي إننا نصل إلى النتيجة ذاتها مع جدول أو من دونه. لذا لا يسعني إلا أن أرى انفصلاً حاداً بين «شكل» الكتاب «العلمي» ومضمونه المتخفف من «العلمية».

يتألف كتاب جاك أماتاييس السالمسي من قسمين رئيسين: الأول، بعنوان «سيرة يوسف الحال الثقافية» والثاني، بعنوان «مجلة شعر، منبر الحداثة». وكما يفترض بالكتب العلمية، فإن كل قسم بدوره يتألف من فصول عدة. القسم الأول يبين جهد الكاتب في تدقيق ومن ثم توثيق كل تفصيل يتعلق بحياة يوسف الحال: من المدارس التي انتسب إليها، إلى انتسابه إلى الحزب القومي السوري، عمله في الصحافة، دراسته الجامعية في كلية حلب الأميركية ومن ثم الجامعة الأميركية في بيروت، ذهابه إلى أميركا، وليبيا وعمله فيهما، ثم عودته إلى لبنان وصولاً إلى إنشاء مجلة «شعر»، ومن ثم توقفها، إنشاؤها وتوقفها ثانية. وعمله للتقطع في الصحافة والكتابة، وأخيراً الانصراف إلى الصياغة اللغوية للكتاب المقدس. يكرس جاك أماتاييس القسم الثاني من الكتاب لمجلة «شعر»: منطلقاتها الفكرية، هويتها، وأهدافها التي سمحت للوصول إليها عن طريق الجدل الذي أحدثته في الشعر والنقد العربيين الحديثين، ومقاربتها للتراث واللغة.

في القسم الأول من الكتاب، ينجح جاك أماتاييس في وضع سجل رسمي للشاعر، إذ إن كل تلك المعلومات ترتب في جداول كما لو كانت أرشيفاً صامتاً، وتحتل حيزاً أكبر من المتوقع في «سيرة ثقافية»، وأحياناً على حساب معلومات أخرى تتطلب تحليلاً للوصول إلى نتائج. أي باختصار، إن عملية جمع المعلومات هي من أولى مهام الباحث لكنها ليست المهمة الأخيرة، فهي بحاجة إلى تحليل ونفاذ وحمق كي تسير فعلاً للوثرات الثقافية التي طبعت شخصية يوسف الحال.

تحليل المعلومات الموثقة هو في صلب المنهج التاريخي التوثيقي، ويوسف الحال ومجلته «شعر» هما مثال ممتاز للمفاضلة بين نوعين من المعلومات:

أولاً: المعلومات الشائعة التي اندست في متن النقد العربي الحديث، وهي على نوعين: نوع اختار تقديس الشاعر وتحويله رائداً للحداثة بومتها، لكن دون الربط العلمي النقدي بالحكم مع نتاجه الشعري، أو دوره المتفرد في تحريك مجموعة موهوبة من الشعراء الناشئين في بيروت الستينات، وفرض موقع مرموق لمجلة أدبية متخصصة، ونوع ثانٍ اختار ألا يرى في يوسف الحال إلا شاعراً قليل الموهبة الشعرية، كثير الضجيج، قادر على خلق معارك أدبية، وإثارة مشكلات «أدبية» عبر نافذة «سياسية» تعلن لحياتها التام والمطلق للحيرة الكاملة غير المنقوصة في الشعر واللغة، وتالياً تهدف إلى هدم التراث:

ثانياً: المعلومات غير المعروفة المنسدة في أرشيف الشاعر بخجل، وهي تفصح فيما لو حللت «علمياً» عن شخصية كاريزمية، شجاعة، ومثيرة للجدل باستمرار. شخصية، سيطرت عليها لاحقاً غيبة الأمل، ومنعتها من إعادة النظر في تجربتها. إذن، لدينا معلومات شائعة واسخة من جهة، وأخرى غير معروفة، يتيح تحليلها لنا إعادة قراءة التجربة.

المفاضلة ما بين النوعين ترفد البحث «التوثيقي التاريخي» بكل ما يلزم كي يضع الشاعر والمجلة في سياقهما التاريخي، يعطي لقيصر ما له، ويسمح لنا بالنظر «موضوعياً» إلى داخل المكاس: ماذا نجد في كاس يوسف الخال ومجلته «شعر»؟.

إذا أخذنا معلومة من النوع الأول، أي المعلومة الشائعة المعروفة التي تحولت إلى مسلمة راسخة ونظرنا في طريقة وضعها من قبل الباحث في متن الكتاب، لقدرنا ربما حجم الحسارة الناجم عن عدم تحليلها «علمياً» وربطها مع سياق تاريخي موجود في تلك الفترة: لا يخفى أن يوسف الخال وبانتسابه إلى الجامعة الأميركية في بيروت بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٤، وقع تحت التأثير الطاغوي لشارل مالك، لدرجة أن الأسس العشرة الشهيرة التي وضعها في محاضراته «مستقبل الشعر في لبنان» عام ١٩٥٧، متأثرة أو مقتبسة سيان من مبادئ الرابطة الفلسفية العربية التي أسسها شارل مالك عام ١٩٤٢ وكان الخال منتسباً إليها. هذا التأثير الطاغوي لشارل مالك سيستمد في فقرات عدة، مرة عند الحديث عن انتسابه إلى الجامعة الأميركية، ومرة عند الحديث عن الرابطة الفلسفية العربية، وثالثة عند الحديث عن انفصاله عن الحزب القومي السوري هو وغانس تويني، وهكذا على امتداد البحث، على نحو يبدو فيه البحث العلمي عالقاً في متاهة من المعلومات، تمتع من التناهي. فماذا يعني في النهاية أن نكرر أن الخال متأثر بأفكار شارل مالك، دون أن يضيء التحليل هذا التأثير أو يبرره؟ بل ربما على العكس، إذ إن التكرار ليس من أدوات «النقد» قطعاً، وهو في حال حدوثه يسيء إلى موضوع النقد (وهو هنا يوسف الخال) على نحو يظهر فيه الشاعر غير قادر على فهم ما تأثيره والانطلاق قدماً، أي بكلام آخر: عدم القدرة على الإبداع انطلاقاً من تأثير ما، والدوران في فلك التأثير فحسب. فحادثة انفصال يوسف الخال عن الحزب القومي السوري «بتأثير من شارل مالك» مثلاً، ليست أمراً نافلاً يمكن الاكتفاء بسرده، بل تتطلب تحليلاً وكشفاً. وقصة انتساب يوسف الخال إلى الحزب القومي السوري وتأثره بالزعيم أنطون سعادة ثم اللقاء به عام ١٩٣٧، والكتابة في «النهضة» والانفصال عن الحزب بعد ذلك هي أيضاً ليست مجرد «معلومة شائعة» أو مسلمة فحسب، بل هي في صلب التأثير: هنا نجد مثلاً قد هوى، فيوسف الخال قال عن اللقاء المذكور: «بعد ثلاث ساعات من الجدال القنعنا فعلاً بأن الحزب بتنظيمه عسكري تراثي». ماذا حدث فعلاً وقتها؟ هل هو تأثير شارل مالك فحسب؟ من ناحية ثانية، وعند الحديث عن حادثة إعدام أنطون سعادة يقول جاك أماتاميس: إن يوسف الخال كتب أربع مقالات في جريدة «الهدى» تحت اسم مستعار، وعلى الرغم من أن الباحث يشهر في المقدمة إلى اطلاعه على ميكروفيلم الهدى في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، فإنه لا يقتطف من المقالات شيئاً، ولا يضع صورة عنها في الملاحق. من غير المناسب حقاً أن تتم استعادة المعلومات «الشائعة المعروفة» من دون تحليلها، خصوصاً وأن المجلة، ورغم انفصال غالبية أعضائها عن الحزب، بقيت وإلى اليوم (عام ٢٠٠٤) متحمة بالقومية السورية. هذا الكلام «السياسي» اثر في النقد العربي وفي النظر إلى يوسف الخال ومجلته «شعر» وجميع من عمل فيها. لكن الخلاص منه (وهو ضرورة) لا يكون باستعادة معلومات قديمة «شائعة» من دون تحليل، هنا تبرز الحاجة عملياً إلى منهج النقد التاريخي الذي يشترط الإحاطة بالخلفية الاجتماعية السياسية ككل، لا الاكتفاء بالتفاصيل والجزيئات من دون تحليل. فإن كان سائداً وقتها الانتساب إلى الحزب القومي السوري، فهذا ربما يخفف من وطأة الكلام عن تأثير الشاعر بأنطون سعادة والحزب. أما إن كان التأثير بأنطون سعادة حادثة مفصلية في حياة يوسف

الحال وطبعتها كلها، فإن هذا يعني ضرورة تحليل المعلومات «الشائعة» أولاً ووضعها في إطارها التاريخي، ومن ثم البحث عن تلك للمعلومات «الهامشية» وتسلط الضوء عليها بشكل علمي من أجل منع «مسلمة التأثير بالحرب» من إعاقة النظر فعلاً إلى يوسف الخال ومجلته «شعر». هذا هو الخطأ الأكبر في بداية الكتاب، وهو ينعكس على كل الفصول والأقسام ويضيع جهد الكاتب حقاً، فهذه للمشكلة «البنوية»، إن جاز القول، انعكست مثلاً في التبريب السيئ للفقرات والفصول. (عدا عن إن بعض عناوين الفقرات تمثل أحكام قبيحة ولا تمت بصلة إلى البحث العلمي). المعلومات القليلة نفسها وغير «المعالجة»، تظل تستعاد وتكرر بلا أي طائل أو مبرر «علمي» منهجي، يستنداء، إلى حد تضيق فيه الفروق بين «كتابة السجلات» و«التوثيق العلمي».

في «كتابة السجلات»، نجد أن الخال درّس في الجامعة الأميركية بين عامي ١٩٤٤-١٩٤٦، بيد أن التوثيق العلمي «يتطلب الإجابة عن السؤال الأساسي: ماذا درّس الخال عملياً في الجامعة الأميركية؟ أمانايس يجب إنّه درّس العربية فقط. هذه النقطة المهمة لم تستوقف الباحث، هنا لا زيارة إلى سجلات أرشيف الجامعة الأميركية، ولا صورة عنها في ملاحق الكتاب، مع أنها من أهم المعلومات الواردة وهي كفيّة بأن تضيء بصورة «مفارقة» ما كان سائداً عن يوسف الخال واقتنائه اللامتناهي بالشعر الغربي مثلاً، أو يمكن أن تضيء لنا حقاً علاقته باللغة، خصوصاً أنها كانت شغف الخال الملحن على الدوام.

وهناك ناحية خطيرة في سرد المعلومات «الهامشية» بطريقة «معقمة معزولة» عما يحيط بها، إذ يكتب جاك أمانايس «ثم في ١٠ نيسان بمناسبة مرور لويس عوض في بيروت، انتهاز الخال الفرصة للإشادة بدعوته الرائدة عام ١٩٤٧ إلى تحطيم لغة السادة المقدسة وقرار لغة الشعب العامية». وفي موضع آخر عندما استلم يوسف الخال في أميركا رئاسة تحرير «الهدى» وتحت عنوان «كبير»: «خصومة الموارنة المتعصبين»، يسرد الكاتب كيف كسب يوسف الخال «البروتستانت المذهب» ثقة الأوساط اللبنانية آن نشر قصيدته «لبنان» على صفحات الهدى، تلاها مقال عن «قيمة التراث» اللبناني بمناسبة عيد مار مارون». وفي موضع ثالث يذكر جاك أمانايس ضمن فقرة «ترجمة الشعر» ولع يوسف الخال بالشاعر جون كيّس، (وهو أمر طبيعي بالنسبة لشاعر أن يقرأ ويحب غيره من الشعراء، بل من الممكن جداً أن يقتبس منهم)، بيد أن المفارقة تكمن في السؤال التخميني التالي للباحث: «فهل من المعقول ألا يترجم بعضاً من هذه الأشعار إلى العربية؟ الأرجح أنه فعل، وإلا كيف استطاع التدرّب على الأسلوب الجديد؟». عبر الأمثلة الثلاثة أعلاه، تظهر صورة الخال على الشكل التالي: انتهازي متملق، وغير مبدع.

لن أدخل في «الانتهازية» أو «التملق» لأنها صفات شخصية أولاً، وغير صحيحة ثانياً. ساكتفي بالتمال الأخير المتعلق بالترجمة كونه يدخل في صلب نظرتنا إلى الشعر العربي الحديث. من المعروف أن البدايات الوعرة لشعرنا الحديث في نهاية الأربعينات خضعت للدراسة والتحليل من قبل النقاد العرب والغربيين، وكثيراً ما تم الربط بين الشعر العربي الحديث و«ترجمة» الشعر الغربي عن الفرنسية والانكليزية فقط. وهي نظرة نحيلنا فوراً إلى كتاب شموئيل موريه:

Modern Arabic Poetry 1800- 1970, the Development of its Forms and Themes under the Influence of Western Literature.

الذي يرى في الشعر الحديث مجرد تأثر بالأشعار الغريبة والانكليزية منها على وجه الخصوص، ولا يجد حرجاً في ذلك، رغم أن الشعر العربي الحديث انبثق من قلب للتراث العربي، تطور إلى « شكله الحديث » نتيجة عوامل عدة، أهمها: أنه كان نتيجة متطلبات فنية ألامها التغيير في الذائقة، وتغير النظرة إلى الشعر ومفهومه. وهذا التغيير حدث على مراحل عدة متباعدة. هنا من المناسب القول: إن عزل يوسف الخال عن عاصره أو سبقه من الشعراء، لا يصيب في المحصلة باتجاه إنصافه البتة. فعلى الأقل تأثر الخال بالمهجريين وعلى رأسهم جبران خليل جبران، والناظر في أشعاره الأولى (ديوان الحرية: «نغم»، «إلى سومي»، «أهواك») لن يغفوه على الغالب رؤية الأثر الكبير لشاعر كبير هو سعيد عقل. كما أنه من ناحية ثانية لا يمكن لنا « تاريخياً » إهمال دور المدرسة المصرية: جماعة الديوان ومجلة «أبوللو»، في تغيير الذائقة والحساسية العربيتين بالطريقة نفسها («الصدامية» ربما) التي قامت بها مجلة «شعر». بعد كل هذا ليس من المعقول أن يبدو الخال « متأثراً » بالترجمة فحسب. خصوصاً إنه في الفقرة ذاتها، يشير جاك أماتاييس إلى محاولتين في الاقتباس عام ١٩٤٥. ولا أنكر أن التوثيق هنا مهم، بيد أن التركيز على التأثر والاقتباس، يظهر أن يوسف الخال ظلاً يهتأ للشعر الغربي. وهو أمر ينافي على الأقل دور يوسف الخال ودور مجلته «شعر». ثم إن الترجمة ليست عملاً مشيئاً بحق الشاعر ولا التأثر هو أيضاً بالعمل للشين، لا أحد يولد من عدم، والكل يتعلم من الآخرين، والعبرة أولاً وأخيراً في الاستمرار بعد التأثر وفي النتائج الأدبي في المحصلة.

المشكلة في رأيي هي في عدم رؤية ما حدث بعد التأثر، (فالنظرة للشعر العربي الحديث بوصفه نتاجاً للترجمة فقط لم تصمد)، إذ إن التجربة استمرت وخلقت أشكالها وأوهامها، وفرضت نفسها في النهاية، وليس من « العلمية » في شيء أن يستمر التأثر بمصادر قديمة لها نظرتها الخاصة التي حكمتها ظروفها وسياقها التاريخي، وعدم التطلع إلى أية مصادر أخرى. فنتيجة للاستعانة بمعلومات / مصادر « شائعة معروفة » وعدم إعادة النظر والتحليل، يصبح نتائج الباحث أقرب إلى إطلاق « أحكام قيمة » بدلاً من أن يرفد البحث. وأحكام القيمة تلك متناثرة في متن الكتاب بشكل كبير. فمن حيث لا يدري يسيء جاك أماتاييس إلى يوسف الخال حين يتساءل في نهاية القسم الأول من الكتاب: « ألم يستعمل ذاتي العربي المهني »، وهو حكم قيم كبير لا أساس علمياً ولا إطار تاريخياً يستند. إذن، مرة أخرى يبدو عزل الشاعر عما كان يحيط به من جدالات تخص « اللغة العربية »، وعدم الاستفادة « العلمية » من الكتب اللاحقة التي تناولت هذا الموضوع عائقين على قدرة جاك أماتاييس على إقناعنا برأيه، وهو رأي يقوم فقط على إعجاب لا متناهي بيوسف الخال. فكتاب جورج طراد مثلاً تناول بالتحليل الدقيق تنظير وتطبيق يوسف الخال للغة المحكية، وهو توصل إلى نتائج « ملموسة وموضوعية » آن كف عن الاستسلام لمعلومات شائعة ومعروفة. إعجاب جاك أماتاييس بيوسف الخال هو من الكتاب كله، وهو إعجاب لا ينطلق من المعرفة والتحليل قدر ما ينطلق من « الإيمان ». لهذا ربما تم اختراق المنهج التوثيقي التاريخي من قبل منهج آخر.

نقد ذهني:

ففي متن الكلام عن « سيرة ثقافية » تُظهر عناوين فقراتها تقسيم حياة الخال إلى مراحل مؤرخة بدقة، تندس فقرات أخرى تفصيح عن منهج متخفف مواز للمنهج المعلن: « صورتان للشاعر: المسيح وأوديس »، « التربة القاحلة »، « التكريس هو الماء المحيي »، « حقيقة خلق الإنسان على صورة الله ومثاله »، « حقيقة الخطيئة الأصلية أو السقوط »،

وتتناثر على امتداد الكتاب جمل من نوع : « على غرار دعوة أنطون سعادة التي يضيف إليها الحال دعوة القديس بولس إلى التجدد » ، « إن ما قام به في حقل الثقافة والفن والأدب عمل فريد لما تميز به من الحس الرسولي » ، « ملامع الإنسان كما تتجلى في فكر يوسف الحال تطابق تماماً معطيات الكتاب المقدس في عهده القديم والجديد » ، « في مثل هذا العمل بالذات يتحقق وجه من رسالة الشاعر النبوية على غرار دور الأنبياء في العهد القديم ، هذا بغض من بغض يفصح عن المنهج الموازي ، وهو منهج نقدي ديني بامتياز ، يطال النظر إلى القصائد ، وغالبيتها مستقاة من ديوان يوسف الحال الأكثر شهرة : « البحر المهجورة » . ففي فقرة معنونة « حقيقة الخطيئة الأصلية أو السقوط » يربط الباحث بين القصيدة واللاهوت المسيحي ، ويرى في قصيدة « الحوار الأزلي » سقوطاً من نوع غريب « هي حالة السقوط أي التخلف التي يعيش فيها الشعر العربي » . وفي موضع آخر يكتب الباحث : « ثانية وانطلاقاً من حقيقة الفداء المسيحية بخلص يوسف الحال إلى الإحياء بأن الثقافة العربية وخصوصاً الشعر تحتاج إلى مخلص وفاد يزيل عنها خطيئتها » . وحين يقول يوسف الحال في القصيدة ذاتها : « متى تلمسنا أصابع الشك ؟ » يرى جاك أماتاييس أن منهج ديكارت هو المقصود حتماً قبل أن يستنتج : « وتعبير أصابع الشك يستوحى من إنجيل يوحنا » .

لا يسلم من هذه القراءة « الدينية » حتى نتاج الحال وموقفه من التراث الشعري . تحت عنوان « قضية التراث في ثوب شعري » نجد عنوانين فرعيين : « إله مات » و « الرحيل » . تحت الأول نُحْمَل رسالة يوسف الحال إلى سلمى الحضره الجيوسي تأويلاً ديبياً إذ قال الحال فيها : « إن آلهة العالم العربي قد ماتت ... أفلا نظن أننا في نهضتنا أو ثورتنا الحاضرة نحو حياة أفضل يجب أن ندفن آلهة جاهليتنا الراهنة ؟ » . جاك أماتاييس يحلل الرسالة ، ويرى في المقابلة ما بين التراث والآلهة بقاء وفداء : « بواسطة هذه المقابلة يضع بقينه ببحث التراث العربي على مستوى واحد مع إيمانه الثابت بقيامة المسيح ، كما يعبر عن حقيقة الفداء المسيحي » . أما تحت العنوان الثاني « الرحيل » فيحلل جاك أماتاييس هذا المقطع : « هناك احضن وجه التراب / وأسمع صوت الإله » على الشكل التالي : « يبدو لي أن في هذين البيتين احتفالاً شبه ديني ... إلا أنه ليس من المستبعد أن يكون قد استوحى تجربة موسى النبي التي ورد ذكرها في سفر الخروج » .

من الواضح تماماً إعجاب جاك أماتاييس الذي لا ينتهي بهوسف الحال ، بيد أن هذا الإعجاب وهذه المقاربة الدينية لنتائج الشاعر ، تقوده إلى استنتاجات خاطئة ، وإلى إطلاق أحكام قيمة وفرض نتائج خطيرة لا تمت بصلة للبحث العلمي . كان يكتب : « لذلك ، فالشاعر المسيحي الذي يرتبط بتراثه المسيحي هو شاعر أصيل . غير أن الأوساط الثقافية المتعصبة لم تقبل نهضة الحقيقة وعملت على مقاومة حركة الشعر الحديث بسبب نزعتها المسيحية والمفاهيم والرموز الدينية المسيحية التي كانت تستخدمها وتعمل على ترويجها محترمة إياها منافية للإسلام » . لا يسعني التعليق على هذا الكلام لافتقاره إلى أدنى مقومات البحث العلمي ، سأكتفي فقط بالسؤال : هل كان لحركة الشعر الحديث نزعة مسيحية؟ واليوم ما هي نزعتها؟ . هل كانت تلك الحركة وتستخدم الرموز الدينية المسيحية؟ أم أن النظر إلى الكلمات الواردة في القصائد من ناحية اعتبارها رموزاً مقطوعة من منبت ديني فحسب ، ليس نقداً ويعتم على عمل الشاعر في أن يفصح عن أفكاره بطريقة شعرية حرة؟ الكلمات ليست مجرد رموز مباشرة . والرمز ليس معطى سلفاً في قصيدة ، ولا يأتي من عدم ، بل يتشكل وينبني فيها وفقاً لمتطلبات فنية دقيقة : التشبيه والاستعارة والجاز والكنابة . ويتشكل ويأتي من واقع ما ، بما هو محسوس أصلاً ، وبكلام آخر ، إن الرمز ينتج عن نوع من الجدل بين

وعى الشاعر والواقع الذي يمحس فيه، ويقترض أن يقصص عن عالم الشاعر ونظراته ورؤيته إلى واقعه وعالمه، لا أن يفصح عن مجرد الاستعانة برموز من الكتاب المقدس. ولو وسع جاك أماتاييس من زاوية نظره قليلاً، هل كان سيجد في قصيدة «المسيح بعد الصلب» ليدر شاكر السياب لاهوتاً ما؟ أم أن الأمر يتعلق بالتشبيه والاستعارة والمجاز والكنائية والتي تتشكل وفقاً لمتطلبات واقع ما، وتفصح عن الجدل بين وعى الشاعر وواقعه؟

لا نزال في الشعر الحديث إذن، وفيه نجد خلطاً يوحى حسب الكتاب الذي بين أيدينا وكأنه انتقل بلحسة ساحر من نظام الشطرين المقتضى، إلى نظام «حديث»، مليء بالرموز الدينية المسيحية، غير واضح المعالم اللهم إلا التأثير بالشعر الغربي وفكر هيراقليط وأتطون سعادة وشارل مالك، وترافقه في الآن ذاته رغبة فائقة لافقة تماماً في الثورة والتغيير والتمرد والرفض، كما لو كان هذا الشعر ينبثق أو ينبت من أرض محروقة و«تربة قاحلة». ينوء جاك أماتاييس بالمصادر التي استعان بها من أجل دراسة المجلة، ويذكر كتاب شموليل موريه ليه، ويصفه قائلاً: «يتناول أشكال الشعر العربي وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي في أقسام رئيسة تتناول الشعر المقطعي والشعر المرسل والشعر الحر بمراحلته». اعتقدت أن المقصود بالمرحلتين هو «تيار التفعيلة» و«تيار قصيدة النثر»، لكنني لم أجد في الكتاب أي أثر لمصطلح «تيار التفعيلة»، هناك فقرة بعنوان «قصيدة النثر» يصف فيها جاك أماتاييس عام ١٩٦٠ قائلاً: «وهكذا في مدار سنة تقريباً توصل شعراء مجلة «شعر» إلى هدم الحواجز بين النثر والشعر في الأدب العربي». هنا مرة أخرى يبدو أن التمسك بالتوثيقي (وهي وثائق منتقاة بدقة) على حساب التاريخي من جهة، وإغفال المقارنة كاداة النقد الأولى، وإغفال المصطلحات التي اعتمدها أخيراً من جهة ثانية عمل غير موفق. إذ هناك تياران في الشعر الحديث: تيار «التفعيلة» و«تيار قصيدة النثر»، وهو لم يمر بمرحلتين بل بمراحل وتطورات، كانت خجولة في النصف الأول من القرن العشرين، لكنها ازدادت تواتراً وتصميماً في النصف الثاني منه. وفي النصف الثاني نجد الحال الذي لا ينكر أحد مساهمته في كلا التيارين، وتالياً، فإن عملية إخضاع نتاجه الشعري للمقارنة مع نتاج شعراء عاصروه أو كانوا سابقين عليه، ستضيء حتماً مكانته في مسيرة الشعر العربي الحديث، وتضعه تالياً في سياق تاريخي محدد، مكان الشاعر، ضمن تاريخ وسياق محددين هو في النهاية من متطلبات المنهج التاريخي الأساسية.

ثم يكتب جاك أماتاييس «بل ذهب الحال إلى أبعد من ذلك قائلاً: إن الشعر الحر من القافية والوزن الكلاسيكي هو شعر المستقبل»، وهذا الكلام بالنسبة لمن يعرف مسيرة التغيير والانتقال إلى الشعر الحديث يبدو صحيحاً. بيد أن أماتاييس يؤول الشاعر ما لم يقل حين يضيف من عنده: «لم تتأخر هذه الأفكار عن التأثير في نفوس بعض الشعراء الشباب وكان محمد الماغوط السباق إلى تطبيقها في مجموعته «حزن في ضوء القمر». وفي هذا الكلام مغالطات كبرى، ليست أولاً إن المقصود بكلام الحال قصيدة التفعيلة وليس قصيدة النثر، وليست ثانياً أن الماغوط يمثل حالة استثنائية في كتابة الشعر بعيداً عن أية عوامل مؤثرة خصوصاً في بداياته، وقد تم تقديمه إلى خميس شعر من قبل أدونيس الذي قرأ شعر الماغوط دون أن يعلن اسمه وترك الحاضرين يتخبطون (بودلير؟... رامبو؟)، لكن أدونيس لم يلبث أن أشار إليه وقال: «هذا هو الشاعر». وليست ثالثاً أن قصيدة النثر كانت قد ظهرت قبلاً بشكل رسمي في درواوين توفيق صايغ (ثلاثون قصيدة / ١٩٥٤) وأكبر أديب (لبن / ١٩٥٢) على سبيل المثال لا الحصر. إغفال المصطلحات وإغفال المقارنة في هذه الحالة أفضيا إلى نتائج مغلوطة، تخلط تيارين بكلمة «الشعر الحر»، وبالمناسبة يوسف الحال استعمل مصطلح الشعر الحديث) وتختصر المراحل إلى مرحلتين.

المفاجئ حقاً هو أنه بدلاً من أن تتيح لنا سيرة يوسف الحال وسيرة مجلته «شعر» إضاءة ما أنجز، وتصحيح ما ساد من أفكار خاطئة، نجد ما تكرر المغالطات ولا تدقق في المصطلحات. ويبدو عزل يوسف الحال عما يحيط به عن طريق إلغاء المقارنة، أمراً مسبقاً إليه أكثر مما هو مفيد. فلو تتبعنا كلام جاك أماتاييس فيما يخص قصة انتساب الحال وغالبية أعضاء مجلة «شعر» إلى الحزب القومي السوري، لأفصح الكلام دونما جهد عن موقف سياسي محدد، رغم جنوح الجميع إلى الإنكار. هنا يكفي أن نستعين بكلام الباحث ذاته عند تحليله لوجهة نظر يوسف الحال في «إقرار أسبقية المضمون على الشكل ووحدة المعضية»: «حيث نبه الشعراء والسياسيين إلى أن الانكباب على البحث عن أشكال حكم وتعبير جديدة، ليس السبيل إلى النهضة والتقدم. وهذه الأمور ما هي إلا الوسيلة والمظهر والشكل». كيف يضع الشاعر الساسة والشعراء في سلة واحدة؟ هذا يبدو موقفاً إيديولوجياً حتى العظم، ولو تذكرنا أن أنطون سعادة كتب كتاباً أثر بشكل كبير في المنتسبين إلى الحزب ومجلة «شعر» على حد سواء (الصراع الفكري في الأدب السوري)، والذي يعتبره غازي براكس «من الركائز القوية التي قامت عليها بنائية الحركة الشعرية المعاصرة لما تضمنته من نظرات عميقة في الأدب وتخطيط وتوجيه لإقامة أدب سام جديد»، لسألنا: هل الأدب يخضع لتخطيط وتوجيه كما يحدث عادة في الأحزاب؟ من الواضح أننا لو تذكرنا لما صجزنا عن رؤية صوري السياسي والشاعر تقاطعان. وفي موضع آخر يستشهد جاك أماتاييس بمقالة لغازي براكس نشرت في: «مجلة «آفاق» ذات المنحى الفكري القومي السوري والتي كانت تطبع في مطبعة دار مجلة «شعر»، أو «الحال إخوان». والمراجع أن يوسف الحال لم يقبل بنشرها في مجلة «شعر» لما فيها من ربط صريح بين الحركة الشعرية الحديثة وفكر أنطون سعادة». فهل كان يوسف الحال يراقب ويشر وفق وجهة نظر سياسية إذن؟

بالعودة إلى بيروت الستينات، وبالتذكّر أن الاعتماد المقصود والمعلن عن «الأيديولوجيات» كما طرحها الأدب الواقعي والاشتراكي والأدب الملتزم (مثلاً مجلة «آداب» كما لا ننكف نكر) هو موقف سياسي في حد ذاته، لظهر يوسف الحال إيديولوجياً أيضاً، وخصوصاً أن تضخيم أيديولوجيات الآخرين كان موقفه المعلن. السؤال بسيط: وما الغضاضة في أن يكون الشاعر ذا موقف سياسي؟ تبدو الأمور فاقمة عندما يحزل الشاعر عن محيطه، وتبدو فاقمة عندما عزلت مجلة «شعر» عن محيطها. الكل كان منتسباً إلى أحزاب سياسية في ذلك الوقت، وكان هذا جزءاً من تيار عام، لذا يجب التعرف عن تضخيم قصة الانتساب إلى الحزب القومي السوري عن طريق عزلها عن سياقها التاريخي. وهنا أيضاً ضمن منهج «توثيقي تاريخي» نجب الإشارة إلى الأجواء السائدة في بيروت الستينات، لا القول بأن حرباً شنت على مجلة أدبية غالبية أعضائها من الحزب القومي السوري ومسيحيين، فيبروت والتي لغرض ما كانت ذهبية وبتميزة أوحث بأن كل ما فيها وكل من فيها مبدع كبير أن يصل إليها، هنا انعكست المدينة باطنائها المتعددة على الأدب. للمقارنة كانت فيما لو حصلت لانفجرت المنهج التاريخي التوثيقي، ولوضعت الحال والجميع في سياقهم وبيئتهم التاريخيين، على نحو سمح لنا بإقصاء تلك المعلومات الشائعة الطاغية التي تمنعنا حتى من إعادة النظر. والمقارنة أيضاً كانت ستتخذ الجمل، فمجلة «شعر» يجب أن تقارن بمجلة «أبوللو» ومجلة «حوار» ومجلة «الأدب» كي يستوي المنهج التاريخي التوثيقي. هي ليست حالة معزولة أو متفردة، ومقارنتها مع غيرها من المجلات يضيئها ويبين مقدار ما انجزته. فهي الجمل التي تأسست بجهود يوسف الحال، هو صاحب الفكرة وهو ذو شخصية كبرى، والهمم وأقنعت مجموعة من الكتاب الشباب بالعمل معاً من أجل الشعر. والنظر في مجلات «أبوللو»

وه حوار» وه الأديب» لن يلاقي صعوبة في وضع نقاط مشتركة بين المجلات الثلاث : مجلات أدبية ظهرت لفترة قصيرة نسبياً، ثم توقفت. طغت شخصية رئيس التحرير عليها، وهو شاعر في الحالات الأربع : زكي أبو شادي / أبو لولو، البير أديب / الأديب، توفيق صايغ / حوار وأخيراً يوسف الحبال / شعر. توقف المجلة في الحالات الأربع ارتبط بشكل مباشر برؤساء التحرير.

كان من المفيد ربما في حالة مجلة «شعر» كونها الأكثر شهرة، تسليط الضوء على تركيب «هيئة رئاسة التحرير» فيها، والنظر في اختلاف موقع أدونيس، فهذا وحده يكشف بصورة جلية الخلاف الذي فرط عقد المجلة في النهاية. هنا يُفتقد الجدول، إذ لو وضعت جداول تبين محتوياتها، طريقة التبويب، هيئة التحرير، عدد النسخ للمباعة، (خصوصاً) أنه من الشائع أن يضع مئات فقط من كل عدد كانت تنفذ (التمويل، لكانت أفضلت إلى نتائج «ملموسة» وساعدت في فهم أكبر لإنجاز المجلة وأثرها. فدور الجدول لإظهار المعلومات بطريقة «إحصائية» على الأقل، كيما تقضي إلى نتائج محددة. والجدول يُعتقد في هذا الكتاب حين تكون الحاجة إليه شديدة، بينما يظهر بتواتر حين تنتفي الحاجة إليه. في القسم الأول من الكتاب تكثر الجداول التي تبين لنا كشفاً بالمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية التي انتسب إليها الحبال، وجدولاً آخر يبين لنا انتسابه إلى الجامعات في حلب وبيروت، هناك جدول بالمقابلات الصحفية، وآخر بالندوات الإذاعية، جدول برسائل الحبال للنشورة في الصحافة، وجدول بالمقالات والافتتاحيات المنتشرة. كافة للمعلومات الواردة «صامتة» في الجداول هي ذاتها الموجودة في متن الكتاب. ولا فرق بين الحالتين، إذ يمكن الوصول إلى «النتائج» ذاتها مع جدول أو من دونه. بينما حين يكون الجدول مطلوباً كي يقضي إلى نتائج مختلفة، خصوصاً في القسم الثاني من الكتاب والمخصص للمجلة، يختفي. وإني استغرب حقاً اختفاء الجداول هنا، خصوصاً إن جاك أماتاييس كان قد قدم دراسة عن شكل المجلة ومحتوياتها إلى جامعة تل أبيب بعنوان «فهرست مجلة «شعر» ١٩٥٧-١٩٦٤» كما أشار دي مور في مقالته المذكورة أعلاه، قبل أن يعلق: «قام أماتاييس بفهرسة كاملة لهتويات المجلة وفي رأيي، هو عمل مفيد جداً ولم يؤخذ بجديّة كبيرة من قبل مدرّسيه».

وعطفاً على المجلات الأدبية، كان من المفيد ذكر «مجلة أدب» في متن كتاب كهذا للتذكير بها، وربما كان من المفيد حقاً لو عرّفنا إليها جاك أماتاييس بشكل موسع أكثر، هنا كان التوثيق مهماً مثلما كان مهماً في تصويب من هو المترجم الحقيقي لكتاب: «ثلاث مسرحيات» من منشورات الفكر الحر في بيروت، والذي أشيع أنه من ترجمة يوسف الحبال بينما هو من ترجمة خليل جواد وحسين شعبان.

وعطفاً على التوثيق المفيد، من المناسب بحث الطمانينة في قلب نديم نعيمة الذي عبر عن الملهاضاع «الإنجيل الخامس»، قللاً في مقابلة مع يسري الأمير في مجلة الآداب عدد ٢٠٠١/١٠/٩: «وعندما ارتحل بحثنا عبثاً عن الإنجيل الخامس بين مطلقاته وفي كل مكان. وهو إلى الآن لا يزال علامة استفهام كبرى غريبة وموجعة جداً. فالملوث الدقيق الأنيق يذكر في «ثبت المصادر والمراجع» وجود «الإنجيل الخامس» لدى السيدة مها بيرقدار الحبال.

وأخيراً عطفاً على الكأس التي بدانا بها، لا أخال كتاب جاك أماتاييس سنداً قوياً للمنظر في داخلها، وأستغرب الاحتفاء الذي قوبل به الكتاب. احتفاء يقارب للشعور بالارتياح التام السعيد: غيرنا أنجز العمل بدلاً منا، فلنكتف بالتصفيق. انظر في الكأس ولا اصفق.

فلسطين في العقل السياسي الأميركي

كاثلين كرسستن، ترجمة: مفيد عبدوني، دار قدس، دمشق، ٢٠٠٤.

واحد من مئات كتب الرحلات عن الشرق الأوسط، التي نشرت في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية على امتداد القرن التاسع عشر، والتي نقلت صورة إسرائيلية ومتعالية، تنتقص من حق الفلسطينيين والعرب. لكن الصورة اكتملت في أواخر القرن العشرين المنصرم، ولم يحدث ذلك عندما «خلقت» فلسطين في عام ١٩٤٨، أي عندما أصبحت الصهيونية قوة في فلسطين قبل ما يزيد على خمسين عاماً، إما في منتصف القرن التاسع عشر، عندما بدأ المؤرخون الغربيون والشرقيون والجغرافيون وعلماء الأهرام البشرية، إضافة إلى المبشرين المسيحيين الغربيين، والرحالة العاديين من أمثال توين... عندما بدأ كل هؤلاء يزورون فلسطين، وينقلون انطباعاتهم عن الأرض والشعب إلى القراء والتجمعات والطوائف على امتداد العالم الغربي، فقد شكلت أعمالهم ما أسماه الراحل إدوارد سعيد «المؤسسة المتحدة للتعامل مع الشرق»، عبر وضع حقائق عن الشرق، أو الإدلاء بأراء عنه، أو وصفه وتوجيهه والتحكم به. وفرض استشراق القرن التاسع عشر نوعاً من السلطة الفكرية على الشرق، وأصبح أداة من أجل فرض السيطرة الأميركية، وعمل دوماً من خلال فرضية التفوق الغربي على الشرق وعلى شعبه أصحاب البشرة السمراء.

لكن الاستشراق الأميركي يحمل في طياته عناصر العقيدة الدينية والسياسية، ومثلما شجعت عقيدة القضاء والقدر الامتداد نحو الغرب في شمال أميركا، فإن نبض القرن التاسع عشر لامتداد نفوذ الولايات المتحدة

تبحث «كاثلين كرسستن» في هذا الكتاب عن مكان فلسطين في العقل السياسي الأميركي، فلا تجد غير صور مسبقة، نمطية، ومتحيزات، شكلت المرجعية التي بما وترعرع صناع السياسة في الولايات المتحدة الأميركية في إطارها، والتي تحولت إلى سياق تُدرك فيها جملة القضايا العربية، وخصوصاً قضايا الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. ولم يؤد العرب دوراً جوهرياً في هذا الإطار، نظراً لأنهم كانوا مغيبين ومحتقرين وناقصين، أو تم تجاهلهم كلياً.

وترجع المؤلفة إلى البدايات كي تعثر على صور العرب الفلسطينيين في ذاكرة القرن التاسع عشر، الذي تشكلت فيه الصور النمطية عن فلسطين والعرب، فتجد - كمثال - رحلات «مارك توين» عبر أوروبا، والأرض المقدسة التي سُميت «الأبرياء في الحارج»، ونشرت في عام ١٨٦٩م، حيث صور فيها فلسطين كبلاد «حزينة وكاسرة للقلوب»، «فيها مناظر ومشاهد مملّة وكتيبة»، «والتخذ لنفسها مكاناً من الحشيش والرماد». أما «سكانها العرب فهم أساساً أناس متسولون بطبيعتهم وغريزون». وقد شكلت هذه الصور الانتقاصية أساساً لأولئك الذين ينشرون الدعاية في أن فلسطين كانت أرضاً مهجورة إلى أن استوطنتها الرواد اليهود. وقد استفلت إسرائيل، مبالغات توين القاضية للأرض والشعب تبشع استغلال، كي تروج للمهجرات اليهودية الجماعية، وكي تنتشر الدعاية المخرفة بين الأميركيين لمصلحتها.

غير أن كتاب مارك توين، كما تلاحظ المؤلفة، هو

الأميركية إلى الشرق، قد اعتمد على رغبة في تصدير المسيحية و« الحضارة » إلى السكان الكفرة في الشرق. وتركزت انظار الولايات المتحدة على فلسطين، « الأرض المقدسة وأرض التوراة، بصفتها مكاناً يجب أن تُعاد فيه المسيحية ومملكة إسرائيل، ويُسترد من المسلمين الدخلاء ». وعزز فهم الغرب للإسلام حواجز أمام التفاهم بين الغرب والشرق، ويجسد ذلك مرجعيته في عهد الصليبيين.

ومثل نظرائهم الغربيين، بدأ كتاب الولايات المتحدة الأميركية يكتبون عن الإسلام، وعرضه بشكل متحيز وإقصائي، وفي هذا الإطار الاستشراقي، نمت موازنة عرب فلسطين باليهود الحمر، « غير المتحضرين »، بل أكثر من ذلك. وبسبب المكانة ذات المغزى للأرض المقدسة عند المسيحيين الغربيين، تمّ تقديم الفلسطينيين بوصفهم غرباء في بلادهم، فهم ليسوا من الشعوب المذكورة في التوراة، كما اتهم ليسوا مسيحيين أو يهوداً، ولذلك فهم غرباء عن التراث المسيحي اليهودي « الصحيح ». ولم ينج العرب والفلسطينيون من حملات السباب والشتم، إضافة إلى تجاهلهم الكلي. وسيطر على الخيال الشعبي الأميركي والغربي، وبين أوساط الجمهور المثقف، ومن هم مهتمون دينياً، الأدهاء بعدم وجود مواطنين وسكان عرب في الأراضي المقدسة، أو أنهم غرباء عنها، ويناسب هذا الطرح، ويتفق مع مفهوم المستعمرين الأميركيين الذي يعتبر أن الأراضي غير الغربية المتخلفة موجودة في كل مكان، وجاهزة لوضع اليد عليها من طرف شعوب وقوى غربية أكثر قدرة. وتحسك المفكرون والكتاب الصهاينة بهذه الفكرة في ظل شعار « فلسطين من دون شعب، لشعب من دون أرض »، كما رمت في الأدبيات والكتابات الصهيونية الإسرائيلية المبكرة بين أوساط المسيحيين الغربيين، الفكرة للتمثلة في أن عودة اليهود إلى فلسطين هي وفاء لنبوءات توراتية. وعليه، ترى المؤلفة أنه ولادة نصف قرن قبل اتفاقات أوسلو، لم يكن يُعترف بأن طرد

الفلسطينيين من أراضيهم عام ١٩٤٨ هو سبب جوهري للصراع بينهم وبين الإسرائيليين، حيث « ترى الغالبية العظمى من الأميركيين بمن فيهم أولئك الذين على قدر من المعرفة والدراية، أنه لم يكن للفلسطينيين تاريخ في يوم من الأيام، ولم يكونوا في فلسطين إلى أن بدأوا العمل على تدميرها، وإلحاق أعمال العنف في إسرائيل ». وتستذكر المؤلفة في هذا السياق، سؤال أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي الذي سأل مسؤولاً سعودياً ذات مرة: « من أين أتوا؟ »، قاصداً اللاجئين الفلسطينيين في الشتات. وهذا يبرز صلب المشكلة، أو التصور الأميركي العام عن المسألة الفلسطينية. حيث نجح الإسرائيليون بالفعل، وعبر سنوات طويلة، في إنجاز فكرة أن فلسطين هي أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ولم يكن ليخطر على بال أميركي أن هذه الأرض التي يجري الصراع عليها تنتمي إلى شعب معيّن قبل عام ١٩٤٨. بالمقابل، وعلى الطرف النقيض، ترى المؤلفة أن العرب والفلسطينيين لم يفعلوا شيئاً ليطرحوا قضيتهم في القرن التاسع عشر، ذلك لأن موجة القومية التي اكتسحت أوروبا في تلك الفترة، لم تهب رياحها لتصل شواطئ العالم العربي إلا في وقت متأخر، كما لم تتوفر للفلسطينيين إدارة منفصلة خاصة بهم لأن الحكم العثماني، لذا لم يتمكنوا من تحقيق شعور متطور من العيش في وحدة إقليمية تدعى فلسطين، لكن الإدراك بـ « قومية فلسطينية محددة »، بدأ ينمو مع بداية القرن العشرين.

إن كل ما يعتقده صناع السياسة في الولايات المتحدة الأميركية حول الوضع الفلسطيني، كان في إطار شرقي، حيث وقفت فلسطين كإرض مقدسة توراتية، مقدر عليها بأمر إلهي إصلاح ما يقوم به المسيحيون واليهود، ويكون فيه الأهالي العرب مهمشين ومقصيون. ومع ازدياد نفوذ قوة الحركة الصهيونية، ازداد تعزيز وتقوية هذا المفهوم بفضل مفكرى اللوبي الصهيوني. ولم ينهض أحد للعمل على تقديم صورة صحيحة للوجود العربي والمسلم في

مثل نظرائهم الغربيين، بدأ كتاب الولايات المتحدة الأميركية يكتبون عن الإسلام، وعرضه بشكل متحيز وإقصائي، وفي هذا الإطار الاستشراقي، نمت موازنة عرب فلسطين باليهود الحمر، « غير المتحضرين »، بل أكثر من ذلك. وبسبب المكانة ذات المغزى للأرض المقدسة عند المسيحيين الغربيين، تمّ تقديم الفلسطينيين بوصفهم غرباء في بلادهم، فهم ليسوا من الشعوب المذكورة في التوراة، كما اتهم ليسوا مسيحيين أو يهوداً، ولذلك فهم غرباء عن التراث المسيحي اليهودي « الصحيح ». ولم ينج العرب والفلسطينيون من حملات السباب والشتم، إضافة إلى تجاهلهم الكلي. وسيطر على الخيال الشعبي الأميركي والغربي، وبين أوساط الجمهور المثقف، ومن هم مهتمون دينياً، الأدهاء بعدم وجود مواطنين وسكان عرب في الأراضي المقدسة، أو أنهم غرباء عنها، ويناسب هذا الطرح، ويتفق مع مفهوم المستعمرين الأميركيين الذي يعتبر أن الأراضي غير الغربية المتخلفة موجودة في كل مكان، وجاهزة لوضع اليد عليها من طرف شعوب وقوى غربية أكثر قدرة. وتحسك المفكرون والكتاب الصهاينة بهذه الفكرة في ظل شعار « فلسطين من دون شعب، لشعب من دون أرض »، كما رمت في الأدبيات والكتابات الصهيونية الإسرائيلية المبكرة بين أوساط المسيحيين الغربيين، الفكرة للتمثلة في أن عودة اليهود إلى فلسطين هي وفاء لنبوءات توراتية. وعليه، ترى المؤلفة أنه ولادة نصف قرن قبل اتفاقات أوسلو، لم يكن يُعترف بأن طرد

فلسطين، أو يدفع بها إلى دائرة اهتمام الغربيين، أو يفند تلك المزاعم .

وتعرض المؤلفة للدور التي كان يؤديها الرؤساء الأمريكيون، بدءاً من «ولسن» وصولاً إلى «بوش» الثاني. فقد مارس الحنين إلى الوطن، وللشوق التوراتي دوراً في قرار «ولسن» دعم البرنامج الصهيوني في فلسطين. لكن الأسباب العملية هي التي كانت دافعة ومحركة للرئيس، إذ لم يكن ولسن مهتماً بطريقة أو بأخرى بمصير فلسطين السياسي، ولم يبدل جهداً لفهم حق العرب الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، ولم يبال لتأثير الخطط الصهيونية عليهم. ومارس دوراً قيادياً ريادياً في دعم الصهيونية، إذ إنه أول رئيس للولايات المتحدة دعم فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، حين صادق على الخطة البريطانية لإصدار بيان لدعم الحركة الصهيونية، والذي عرف باسم وعد بلفور. ولم يتخذ «فرانكلين روزفلت» أية قرارات سياسية مهمة فيما يتعلق بفلسطين، لكنه حافظ على استمرارية ما أصبح معروفاً بنظام من إطار الرجعية، في وقت خرج من تاريخ فلسطين، فحين جاء إلى السلطة عام ١٩٣٢، كانت موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين في حالة ازدياد متصاعد، ومتسارعة مع وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا، وفي فترة بدء المحادثات الجديدة الحاسمة حول دولة لليهود في فلسطين، وبالتالي، ثُبِتت الصهيونية عملياً كأمر روتيني، بوصفها موروثة من ولسن. ولم يتساءل صانع القرار في واشنطن عن المعنى الحقيقي والمواقف التي تترتب على هذا الالتزام، كما لم تدرك الولايات المتحدة، وقتها، أن ما بدا التزاماً بـدولة أو وطن يهودي على جزء من أرض فلسطين، سرعان ما تحول إلى التزام بإحالة كل أرض فلسطين إلى اليهود. وتعزو المؤلفة استمرارية النهج السياسي تجاه فلسطين في عهد روزفلت إلى القصور الذاتي السياسي، وهو نوع من القصور أتى بعد الممارسات الروتينية السابقة، يقاوم التحديات أو يخاطب ويشكك

في أطروحات لفاهيم مقبولة. وأخذت تنحو قرارات السياسة الأساس، خاصة تلك التي خلقت تأثيراً مباشراً وقليلاً، أو يكاد يكون معدوماً في مصالح الولايات المتحدة، منحي نصيب فيه نقشاً ثابتاً على الصغر، مشكلة سياسة جوهريّة لا تخضع للمساواة فقد، ولا تتغير جراء قصور ذاتي أساسي. هذا ما فعله الدعم الأمريكي لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، ليتم إعلانها دون مبالاة، متحيزة إلى الحلفاء في زمن الحرب، وإلى الأصدقاء السياسيين داخل الوطن، لتصبح ركيزة من السياسة التي لا يمكن مهاجمتها أو تغييرها.

إن التاريخ الأصلي لفلسطين، ولنشأة إسرائيل، لم يكتب من طرف مؤرخين مستقلين محترفين، بل كتبه مؤرخون رسميون أو عسكريون، مشاركون في الحرب أو سياسيون، وجنود، وصحفيون، وكتاب السير، وقلة منهم كانت موضوعية، ربما يستثنى منهم بعض المؤرخين الجدد، لكن التاريخ ملك للتصريح كما تقول ذلك المؤلفة بمرارة، وقد قبل الأميركيون، ومعهم غالبية صانع القرار السياسي الأمريكي، مسار التاريخ هذا، لأنه كان سهلاً عليهم أن يفعلوا ذلك. إذ ومع مضي «هنري ترومان» إلى الحكم، بعد وفاة روزفلت، كان موضوع وجود إسرائيل وبخايلها أمراً مهماً، دون أدنى معارضة، وعليه، كان دعم ترومان الذي قدمه لإسرائيل غير محدود، مع أن دوره في خلق إسرائيل أكثر تعقيداً، سواء لجهة الدوافع السياسية الداخلية أم الأخلاقية. وترى المؤلفة أن الفلسطينيين نادراً ما دخلوا في حسابات السياسة في الولايات المتحدة الأمريكية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، مما شأ مع مبدأ ما هو بعيد عن العين بعيد عن العقل. وبعد تشيبتهم عن ديارهم اختفى اسم فلسطين من سجلات العالم السياسية، فأصبح الشعب الفلسطيني ذاته من دون اسم، وبات الفلسطينيين يعرفون بأنهم فقط «لاجئون عرب»، دون هوية أو وضع محدد، سوى أنهم جماعة من سكان المخيمات. وتلك ظاهرة استمرت طوال

مع منظمة التحرير الفلسطينية، والاعتراف بالفلسطينيين كعامل حاسم في أي حل سلمي، وإشراكهم في عملية السلام. وقد مثل كارتر ندرة بين رؤساء الولايات المتحدة في تعامله مع المشكلة الإسرائيلية العربية، لكنه حُرم في النهاية أمام إلحاح إطار المرجعية الذي استمر، مع جهوده الحثيثة في تغييره، ولم يسجل التاريخ لأي رئيس في الولايات المتحدة فوزه في الانتخابات طاملاً بممارسة ضغطاً على إسرائيل، والاستثناء الوحيد آيزنهاور. أما كارتر، فلم يستطيع أن يبدل جهوداً جديّة في فترة ولايته، في معارضة رغبة إسرائيل في إبقاء الفلسطينيين خارج معادلات السلام، لأنه غرق في مشكلات سياسية، وفي النهاية، سقطت جهود كارتر في البدء بعملية سلام جدية.

ولقد أثار الاهتمام الذي حظيت به القضية الفلسطينية من طرف جميع كارتر فرعاً في إسرائيل، وفي أوساط المؤيدين لها في الولايات المتحدة الأميركية، فشنت حملة دعائية هائلة موالية لإسرائيل، ومع مجيء «رونالد ريغان» إلى الحكم تغيرت التوجهات، إذ لم يكن يحمل بين جنابيه أي تعاطف مع الفلسطينيين، كونه من نتاج أعراف سياسية تقليدية معزول بها في الولايات المتحدة، وأخذ معظم أفكاره حول العلاقات الدولية من حركة المحافظين القدامى، الذين يعتقدون أن الاتحاد السوفيتي مسؤول عن كل ما يقع في العالم من أذى أو ضرر. وتقدم صترة السياسة في الشرق الأوسط طوال ثمانين سنوات من إدارة ريغان تفسيراً مهماً عن الأسلوب الذي يستطيع فيه النهج السياسي أن يخلق سياسة. إذ عندما تولى ريغان وزملاؤه السلطة، رجعوا بالنهج السياسي إلى تفكير السبعينيات. تمّ ذلك وكان جهود كارتر في حل قضية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني لم تحدث، أو ذهبت أدراج الريح، وارتدت فريق ريغان إلى إطار المرجعية القديم، حيث لا مكان فيه للفلسطينيين والقضية الفلسطينية، وتكون فيه إسرائيل متفوقة في

إدارات الرؤساء «داويت آيزنهاور» و«جون كينيدي» و«ليندون جونسون»، ولهذا وصل جبل من صناعات السياسة إلى مرحلة لا يعرفون فيها، ولا يعتقدون أن من الضرورة أن يعرفوا، قصة الفلسطينيين وقضيتهم، فقد استولت إسرائيل على الأرض، لأنها انتصرت في عام ١٩٤٨، واستولت على التاريخ أيضاً. ثم صارت إسرائيل دولة، ولم يعد للفلسطينيين دولة، لذلك، فرضت إسرائيل حدوداً للشخاطب بشأن «المشكلة الفلسطينية - الإسرائيلية». وحين تولى «ريتشارد نيكسون» السلطة عام ١٩٦٩، كان على قدر يسير من معرفة الوضع الفلسطيني وتشعباته السياسية، وعندما أصبح «هنري كيسنجر» وزيراً للخارجية عام ١٩٧٣، وبقي في هذا المنصب أثناء تولي «جيرالد فورد» أيضاً، فإنه بات معنياً بالفلسطينيين، ومدركاً دورهم في عملية السلام العربي - الإسرائيلي، لكنه كان يحاول إضعاف قوتهم السياسية المتنامية كعامل سياسي مهم في مفاوضات السلام.

وتعتبر المؤلفة أن كلا من نيكسون وكيسنجر كانا من أبناء عصرهم، ونتاج زمنهم، في فهمهم لقضية الصراع العربي - الإسرائيلي، إذ تشكلت آراؤهم وفق أعراف معزول بها لدى الأسرائيليين نحو العرب، وكذلك انطلاقاً من رؤيتهم الاستراتيجية العالمية. كان إطار مرجعيتهم موجهاً سوفيتياً، وسلط الأضواء على إسرائيل أكثر ما كان معنياً بالعرب. ومن ضمن أحد بنود الاستراتيجية العالمية الأميركية وعناصرها الأساس، ضمان أمن إسرائيل، والحؤول دون أن يرى السوفييت الصراع العربي - الإسرائيلي من منظور عربي، أو من منظور فلسطيني، لكن مجيء «جيمي كارتر» إلى الحكم في الولايات المتحدة الأميركية غير أو قلب - كما تقول المؤلفة - المفاهيم الحاططة التي امتدت طوال عقود من الزمن عن عدم أهمية الفلسطينيين، أو بكلام أوضح، انتشلت سياسة الولايات المتحدة من إطارها الضيق المحدود القديم في التفكير بالقضية الفلسطينية، وذلك من خلال محاولته التعامل

اعتبارات وتفكير سياسة الولايات المتحدة، ويحظى الصراع مع الاتحاد السوفييتي بصدد الحرب الباردة بالأولوية القصوى لدى الولايات المتحدة، وتكون إسرائيل فيه حليفاً ضرورياً، بغض النظر عن سجلها في سياسات الاستيطان غير الشرعي في الضفة الغربية أو سياساتها العدوانية تجاه لبنان أو حقوق الإنسان.

وفوت الإدارة الأميركية في عهد ريغان فرصاً متكررة لدفع عملية السلام، طوال ثماني سنوات من عمرها، فاندلعت الانتفاضة الفلسطينية الأولى، لأن الفلسطينيين وصلوا إلى نقطة فقدان الأمل، وعدم رؤية أي خلاص أو فرج من الاحتلال الإسرائيلي. وترى المؤلفة أن الانتفاضة الفلسطينية كانت تعبيراً عن خيبة أمل الفلسطينيين الطويلة، وكانت أيضاً تأكيداً على هويتهم الوطنية، ومصدراً للنفخ والاعتزاز لجميع الفلسطينيين الذين عززوا من سلطة الاعتدال في منظمة التحرير، ولجبروا عن استعدادهم للعيش المشترك مع الإسرائيليين. وقد حقق الفلسطينيون من خلال الانتفاضة ما لم يكن أحد في الولايات المتحدة وإسرائيل رغباً أو مستعداً ليمنحهم إياه: الاعتراف بوجودهم كمجتمع وطني، رغب في تقاسم الأرض مع إسرائيل في ظل تعايش مشعرك.

وترى المؤلفة أن ما يدهو إلى الاستهجان، هو أن تكون سنوات ريغان التي كانت فيها إدارته معارضة بشدة للمفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية، هي ذات الإدارة التي كانت في النهاية مضطرة لتجيز فتح حوار مع المنظمة. لكن مسافة سنوات ريغان، أن إرادة دم الفلسطينيين في غرة والضفة الغربية، التي أدت إلى الاختراق الذي حقق التقارب بين منظمة التحرير والولايات المتحدة الأميركية، كان يمكن تجنبها، ولكن التقدم نحو السلام قد تم قبل سنوات عديدة، لو أن إطار التفكير لدى إدارة ريغان لم يكن منحازاً لإسرائيل إلى درجة كبيرة.

وعندما تولى جورج بوش منصبه في ١٩٨٩، أراد

أن يدفع مع وزير خارجيته جيمس بيكر عملية السلام نحو الأمام، لكن بعض العوامل حالت دون ذلك خلال عام ونصف العام من بداية ولايته، إضافة لعدم توفر رؤية استراتيجية لسلام الشرق الأوسط ليهما. وحين ركز بوش وبيكر اهتمامهما ثانية على عملية السلام، فإن الأوضاع في الشرق الأوسط والساحة الدولية جعلت الوضع قابلاً لتدخل الولايات المتحدة، حيث عقد مؤتمر مدريد للسلام في العام ١٩٩١، وكان نقطة تحول في تاريخ الصراع الفلسطيني والعربي الإسرائيلي. واتبع كل من بوش وبيكر سياسة تتفق مع اهتمامهما السياسي أو اهتمام الولايات المتحدة لا أكثر، وليس لأن ليهما رابحاً في اخلاقية أو عدالة المواقف العربية. وأحدثت التطورات في الشرق الأوسط، ولا سيما الانتفاضة وحرب الخليج، تغيراً في فهم الجمهور في الولايات المتحدة حول الفلسطينيين والعرب، وهو تغير في إطار المرجعية الذي ينظر من خلاله إلى العرب وإسرائيل، لكن التركيز الأحادي الجانب للولايات المتحدة على وجهة النظر الإسرائيلية في الصراع، يجعلها عاجزة عن تجاوز الدور الذي وضعته ورسمته لنفسها دوماً، كوسيط وصانعة للسلام. فعندما أنهى «بيل كلينتون» مدة ولايته، كانت عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية على وشك الانهيار، مع أن كلينتون أوشك على إنجاز اختراق «درامي» في مفاوضات السلام، إلا أنه أخفق في النهاية من التحرر من ذات النهج السياسي الذي حثه التفكير، ولم يفلت من سياسة معظم سابقيه من الرؤساء، ذلك النهج الذي ركز دوماً على إسرائيل واهتماماتها، بدلاً من التعامل مع اهتمامات الفلسطينيين والإسرائيليين ووجهات نظرهم بشكل متساوي. وفي نهاية المطاف، أخفقت إدارة كلينتون في إنجاح عملية السلام جراء هذا الاختلال في التوازن. ومع مجيء جورج بوش الابن إلى الحكم، صار الانحياز إلى إسرائيل وتبني مطالبها سافراً. وهنا نتحدث للمؤلفة عن ظاهرة هؤلاء اللزودج داخل إدارة بوش وعالم المحافظين الجدد، حيث لا يميز هؤلاء

فلا الدعم الاصولي المسيحي لإسرائيل، ولا حسابات النقط، سوف تكون لها الأهمية في مجالس الإدارة الأميركية، بحيث تستغني عن المدخل الأساس لأولئك الموالين، الذين يعرفون كيف يلمعون بالمتعصبين للمسيحيين، ويعرفون كذلك أن ما يؤاتي مصالحهم ومصالح إسرائيل هو المصالح النفطية لأشخاص أمثال: بوش وتشيني. وهنا يقوم وراء موظفي الحكومة الأميركية لإسرائيل بصنع السياسة الأميركية، ويؤثر عليها بطرق خطيرة جداً.

المصالح الأميركية من المصالح الإسرائيلية، ويشجعون بشكل مكشوف على التطابق المزعوم بينهما. وقد وضع المحافظون الجدد على أجندتهم مسألة تخليص العراق من زعيمه، ومن مخزون أسلحته منذ زمن بعيد، مع وجود بوش الأب في السلطة، وتم تنقيط أوراق المحافظين الجدد بمغاهيم، مثل: «إعادة صياغة العراق»، و«إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط»، و«تنشئة بدائل عن عرفات»، وأصبحت كلها أجزاء مألوفة من اللغة الدبلوماسية لإدارة بوش. وتخلص المؤلفة إلى أن العامل الأكثر حسماً المرجح لصنع السياسة الأميركية، هو جماعة الموالين لإسرائيل،

الهيمنة أم البقاء: السعي الأمريكي إلى السيطرة على العالم نعوم تشومسكي، ترجمة: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤

باته «خير لك أن تكون ذكياً من أن تكون غيباً»، وذلك بالرجوع إلى «النجاحات البيولوجية على الأقل: فالخنافس والبكتيريا، على سبيل المثال، المجمع من البشر لجهة البقاء على قيد الحياة». وهنا يحضر كلام «برتراند رسل» (الذي ورد في الطبعة الإنكليزية لكتاب تشومسكي، ولم تتضمنه الطبعة العربية) الذي يحقد فيه مقارنة مرة ما بين منتجات الأرض، حيث يقول: «بعد العصور التي انشجت فيها الأرض الفراشات والمفصليات ثلاثية الفصوص، التي لا تؤذي أحداً، تصاعدت مسيرة التقدم، فانتجت كائنات من شاكلة نيرون وجينكي زغان وهتلر. ولكنني أعتقد أن هذا سيكون كابوساً قصير الأجل، إذ ستصبح الأرض من جديد قابلة لاحتضان الحياة، وسيسود السلام روعها مرة أخرى».

ويرى تشومسكي أن عام ٢٠٠٣ استهل بعدد كبير من الدلائل التي تشير إلى أن الهافوش بشأن بقاء الجنس البشري على قيد الحياة، كلها مخاوف واقعية جداً، حيث

كل من يقرأ تشومسكي، ويتابع كتاباته السياسية، ودراساته اللغوية، والعلمية، يلمس تماماً التسق الذي ابتكره تشومسكي نفسه ببراعة كبيرة، ويعرف قوة كلامه عن الخناق، والميل للحرب لدى قادة وساسة أميركا، وهرطانياتها حليفها الأساسي. وتتمتع كتاباته في هذا المجال من بين الوثائق الحيوية القليلة عن زمننا الحالي.

وفي أحدث كتبه الذي يحمل عنوان «الهيمنة أم البقاء: السعي الأمريكي إلى السيطرة على العالم»، يقرم تشومسكي بتشرح الدوافع الحقيقية، والواقب الكارثية للحرب الأميركية الحالية، المسماة «الحرب ضد الإرهاب»، ويمثل هذا الكتاب فصلاً جديداً في حياة هذا المعارض أو «المنشق» المشتهر للاهتمام.

يبدأ تشومسكي كتابه باقتطاف من «أرنست ماير»، أحد كبار علماء الأحياء، يرى فيه أن الشكل البشري من التنظيم العقلي قد لا يكون موضع تحييد عملية الاصطفاء الطبيعي، فتاريخ الحياة على وجه الأرض، يدحض الزعم

تستخدمها في فرض «الهيمنة الكلية» على العالم. ويرتكز مسعى تشومسكي على تفكيك بعض الخيوط المتشابكة في هذه اللوحة المعقدة، مركزاً الانتباه على القوة العالمية التي تسعى إلى التسلط على العالم، وتأثير أفعالها وعقائدها الموجهة تلقاً أساسياً لدى كل فرد على سطح كوكب الأرض.

إذاً، فإن نزعة الهيمنة الأميركية تهدد بقاء البشرية، وليس عبثاً، في هذا الحيز الزمني، أن يعتقد تشومسكي بأن كل الشرور التي ارتكبت ضد الإنسانية، كانت بشكل مباشر، أو غير مباشر، من فعل الإدارات المتعاقبة في الولايات المتحدة. وقد بدأ الأمر بذيخ الاهالي العزل من سكان أميركا الشمالية الأصليين، ثم تعدد تدخلات أميركا جنوباً وغرباً، من خلال سلسلة من الاعتداءات ضد المكسيك والمستعمرات الفرنسية في أميركا الوسطى وكندا. وقد ارتكب جورج واشنطن وغيره من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة أعمالاً إبادة جماعية ضد الهنود. ثم انتقلت الولايات المتحدة الأميركية إلى سلسلة من عمليات نهب الموارد الطبيعية للعالم الجديد، من غير أي اعتبار للبئية، وخلقت اقتصادها القوي من خلال هذه العمليات وسواها. وما أن فرغت من هذه المهمة حتى بدأت الولايات المتحدة التخطيط «للهيمنة على العالم»، فشاركت في حربين عالميتين، إضافة إلى سلسلة من الحروب الصغيرة في مختلف أنحاء الأرض.

ويحاول تشومسكي كشف بصمات الولايات المتحدة الأميركية في جملة من الأحداث والوقائع العالمية، فهتلر وموسوليني، صعدا إلى السلطة بمساعدة من أميركا، وجزئياً بمساعدة من بريطانيا، حيث استدعى صمود الفاشية في فترة ما بين الحربين العالميتين قلق الشعوب ومخاوفها، بينما اعتبر شيعاً موالياً من طرف الحكومتين الأميركية والبريطانية، ومن قطاع المال والأعمال. ويرجع

بورد أمثلة على بعض الوقائع التي تؤيد هذه المخاوف. فقبل نحو أربعين عاماً من خريف ٢٠٠٢، أمكن بالكاد تجنب حرب نووية، كان من المحتمل أن تكون القاضية. وفوراً بعيد هذا الاكتشاف المذهل، عمدت إدارة بوش الابن إلى عرقلة جهود منظمة الأمم المتحدة الرامية إلى حظر عسكرة الفضاء الخارجي، وهو خطر جسيم يتهدد البقاء، كما وضعت هذه الإدارة حداً نهائياً للمفاوضات الدولية لدرء الحرب البيولوجية، وضمت إلى ضمان حتمية الحرب على العراق، ورغم المعارضة الشعبية التي لم يسبق لها مثيل. وفي شهر أيلول ٢٠٠٢، أذاعت إدارة بوش على الملا استراتيجيتها للأمن القومي، والفصحت فيها عن حقها في اللجوء إلى القوة العسكرية للقضاء على أي تحته منظور للهيمنة الأميركية على العالم. كذلك مضى الرئيس بوش ومساعدوه في محاولاتهم الحثيثة لتقويض للمساوي الدولية الآيلة إلى تقليص الأخطار التي تكتنف البيعة، والمسلم بانها أخطار جسيمة. وكشفت الدراسات في مستهل العام ٢٠٠٣ عن أن الخوف من الولايات المتحدة الأميركية قد بلغ ذرى عالية جداً في جميع أنحاء العالم، مشفوعاً بارتياح شديد بقماداتها السياسية. وثمة سوابق تاريخية عديدة على رغبة القادة الأميركيين في التهديد بالقوة، أو في اللجوء إلى العنف لإزاء مخاطر غير مسيرة، لكن الرهان في أماننا هذه أكبر بمراحل من أي وقت مضى، فنادراً ما كان الاختيار بين الهيمنة والبقاء مطروحاً على هذا النحو الصارخ.

وإذا كان لكتاب تشومسكي «الهيمنة أم البقاء» من رسالة يريد أن يوصلها إلى العالم، فهي تتمثل في أن الولايات المتحدة الأميركية تمثل اليوم المثال المحدد على ما يمكن أن تنجزه العبقرية الإنسانية، من حيث التقدم الاقتصادي والقرعة العسكرية، ولكن اختلال الأوضاع الإنسانية، يضع كل هذه القوة تحت تصرف فئة قليلة

تشومسكي تقسير ذلك إلى أن النسخة الفاشية من القومية المتطرفة سمحت باختراق اقتصادي غربي واسع النطاق، وخطمت الحركة العمالية، والقوى اليسارية ومعها الديمقراطية المفرطة التي كانت تسمح بحرية الحركة. وكان الدعم الموسولتي قوياً وفاضاً، فقد حظي هذا «النبيل الإيطالي الرابع»، حسب وصف الرئيس روزفلت عام ١٩٣٣، بقدر وافر من الاحترام إلى حين اندلاع الحرب العالمية الثانية. وهنا يُذكر تشومسكي، بأن ايشع واطفق نظام عرفه التاريخ وصل إلى السلطة في بلد كان يُمثل، بكل المقاييس المقبولة، أعلى ذرى الحضارة الغربية في مجالات العلوم والفنون، ولطالما عُدّ قدوة في الديمقراطية قبل أن يأخذ النزاع الدولي أشكالاً لا تتسع لهذا التصوراً وكعدام حُسن بعده بنصف قرن، ظلّ النظام النازي يحتفظ بمساندة بريطانية وأميركية كبيرة إلى أن شن هتلر عدوانه المباشر الذي مس بشكل خطير مصالح الدولتين.

أما بخصوص الوضع الحالي، فإن تشومسكي يصف العصر الجديد الذي دخلته البشرية بمصر الرعب الكبير، لكن العالم لم ينقلب، هكذا على حين فرة، إلى عالم محفوظ بالمخاطر الاستثنائية في ١١ أيلول ٢٠٠١، حتى يتطلب صيغ تصريف جديدة، تفكك القانون الدولي والمؤسسات الدولية، وتحمج البيت الأبيض سلطة الاستغفاف بحكم القانون في الداخل الأمريكي. صحيح أن أحداً لم يكن باستطاعته أن يتنبأ بأحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ في واشنطن ونيويورك، ولكن الجميع كان يعرف أن احتكار الغرب الصناعي والراسمالي للإرهاب قد ولى إلى غير رجعة، والجميع كان يعلم، بأنه يمكن لأي جماعة إرهابية أن تدخل إلى أميركا بعض أسلحة الدمار الشامل، مثل: القنابل الذرية الصغيرة، أو ما يُعرف القنابل القذرة، أو الفيروسات البيولوجية، أو بعض الأسلحة الكيميائية،

والجميع يعلم أن نسبة حظ الإرهابيين في الإنجاح ضربتهم داخل أميركا نفسها تصل إلى ٩٠٪، ولكن ينبغي أن يعلم الجميع أن جورج دبليو بوش لم يكن أول رئيس أميركي يعلن الحرب على الإرهاب، كما يتوهم الكثيرون، والواقع هو أن هذه الحرب كانت قد أعلنت لأول مرة قبل نحو عشرين سنة، في ذلك التاريخ، من قبل رونالد ريغان وبوش الأب. وقد حدد كل من هذين الرئيسين بورتين للإرهاب في العالم، الأولى، هي أميركا الوسطى، والثانية، هي الشرق الأوسط، وقام ريغان ونائبه بوش الأب بحملة كبيرة «لاستفصال سرطان الإرهاب من هاتين المنطقتين»، واعتبرا ذلك بمثابة إحدى أولويات سياستهما الخارجية. إناءً للحرب على الإرهاب التي شنتها إدارة ريغان كانت سابقة لحرب الإدارة الحالية، وقد قامت بتعمية شعبية واسعة غير مسبوق، من أجل إقناع الشعب الأمريكي بالتدخل في أميركا الوسطى، ونجحت بذلك نظراً للقرب الجغرافي والعلاقات التاريخية ما بين أميركا الشمالية والوسطى. واتخذت إدارة ريغان، الهندوراس، كقاعدة عسكرية هاربة للإرهاب في المنطقة كلها. وطوال السنوات الأكثر بشاعة ورحباً في الشرق الأوسط، كان المبعوث الخاص لريغان إلى المنطقة هو وزير الدفاع الحالي لبوش الابن، أي دونالد رامسفيلد. وقد ارتكبت إدارة ريغان، في الشرق الأوسط وفي أميركا الوسطى، مجازر بشعة، وكانت الأعمال الأكثر بشاعة ودموية في الشرق الأوسط قد تمت بالاتفاق ما بين أميركا وعملائها المحليين، تلك التي أدت إلى تدمير لبنان، والأراضي الفلسطينية المحتلة من قبل إسرائيل، وعليه، فإن الإرهاب ليس من جانب واحد، بل من جانبين، ويمكن القول إن إرهاب القوي أشد عنفاً وطمشاً. أما أميركا الوسطى التي عانت من هجمات قادة واشنطن الإرهابيين وعملائهم المحليين، فقد تعرضت هي الأخرى لمجازر بشعة ومروعة.

باعتزاز أن إحدى «الحجج التي تُسجل لمصلحتها» هي أن الجيش الأمريكي يساعد على «إنزال الهزيمة بلاهوت التحرير»، هذه الهرطقة التي استسلمت لها الكتيبة الكاثوليكية اللاتينية، حين تبنت «خيار تقطيل الفقراء»، وكتب عليها أن تذوق «أموال الأرض» جراء تخليها عن الصراط المستقيم. وبما له دلالة الرمزية، أن السنوات العشر المروعة من إرهاب ريغان-بوش الأول، قد استُهلّت قبل اعتلائهما سدة الحكم بقليل، باغتيال أسقف سلفادوري محافظ صار بمثابة «صوت من لا صوت لهم»، وذلك في تواطؤ لا يخلو من قوات الأمن المدعومة أميركياً، واختتمت السنوات العشر تلك بذهاب ستة من المثقفين السلفادوريين اليسوعيين على يد كتيبة من النخبة التي سلحتها ودربتها واشنطن، وكانت تلك الكتيبة تملك سجلاً حافلاً بالفظاعات والأعمال الدموية. ويرجع تشومسكي دلالات هذه الحوادث في الثقافة الغربية إلى أنه لم يُقرأ عن هؤلاء القساوسة المشاهير، ولم يتم تداول اسمائهم على الألسن. وهكذا يكونون قد «قتلوا مرتين: مرة بالقتل ومرة بالنسيان».

يدين تشومسكي طغيان صدام حسين، والمجازر التي ارتكبها بحق شعبه، وكذلك الحروب المستمرة مع الجيران، كما يدين بن لادن، والقاعدة، وجريمة ١١ أيلول الثلاثينية التي ذهب ضحيتها آلاف البشر. لكنه يدين كذلك تحامل الولايات المتحدة مع المتطرفين في أفغانستان، أي القاعدة وطالبان، حيث استخدمتهم الإدارة الأميركية في فترة ما، بغية تحقيق مآربها وتصنية حساباتها مع العدو السوفييتي، وحتى صدام حسين «كان من عملاء أميركا في فترة الثبائيات عندما شن الحرب على إيران، وتلقى مختلف أنواع الدعم من دونالد راسفيلد شخصياً». وعليه، فإن أميركا ليست بريئة إلى الحد الذي تحاول أن توهمنا به، وأيديها ملوثة بالدماء،

وينتقل تشومسكي إلى متابعة حملة أخرى من حملات الإرهاب الدولي، الهادفة إلى التغلب على «الصحدي الناجح»، وهي الحرب الإرهابية على نيكاراغوا. إذ تنمّر حالة نيكاراغوا أموراً كثيرة بالنظر إلى حجم الحملات الإرهابية التي شنت لتغيير أنظمة الحكم، وإلى دور القيادة الأميركية الحلالية في تنفيذها، وطريقة طرحها أثناء تقديمها، ثم في إعادة تشكيلها استعداداً داخل الثقافة الفكرية، حيث تكتسب الحالة مزيداً من الدلالة والأهمية، لأنها غير خالصة البتة في ضوء أحكام أعلى المرجعيات الدولية، أي لدى من يتصفون بادني قدر من الالتزام بحقوق الإنسان والقانون الدولي.

فقد كانت نيكاراغوا أحد أهداف قادة واشنطن، والتي اشتكت إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي، وأصدرت المحكمة حكماً لصالحها، وأمرت الولايات المتحدة بإيقاف المجازر والإرهاب الدولي، لكن الإدارة الأميركية نظرت باحتقار إلى قرار محكمة العدل الدولية، وقالت إنها هي التي تقرر ما هو شرعي وما هو غير شرعي في نيكاراغوا، وليس هذه المحكمة. وحين لجأت نيكاراغوا إلى مجلس الأمن الدولي، الذي أصدر بدوره قراراً يؤيد قرار محكمة العدل الدولية، ويدعو جميع الدول بما فيها الولايات المتحدة الأميركية إلى احترام القانون الدولي، فما كان من واشنطن سوى أن استخدمت حق النقض «الفيتو»، بغية إفشال القرار الدولي، فاستمرت في عملياتها العسكرية هناك حتى أخضعت شعب نيكاراغوا لإرادتها وهيمنتها.

ويتحدث تشومسكي بمرارة عن الإرهاب الدولي الذي تبنته عدة إدارات أميركية، حيث إن إنجازات الإرهاب الدولي منتزعة من صفحات التاريخ الملعون، لكنها مبعث تفاخر لدى مرتكبيها، فمدرسة الأمير كيتين الشهيرة التي تدرب ضباطاً في أميركا اللاتينية على آلهامهم، تعمل

مثل هؤلاء المستبدين الذين كانت تتعامل معهم وتدعمهم، سواء في أميركا اللاتينية أم في الشرق الأوسط.

ولمذكر تشومسكي بأن الرئيس كندي، بعد استلامه مقاليد السلطة ببطءة أشهر، أمر باستخدام كل وسائل الرعب في الأرض، بغية إخضاع كاسترو، أو تصفيته جسدياً، وحتى قبل عشرة أيام من مقتلته أمر المخابرات بتكثيف جهودها في هذا الاتجاه. وكانت الإدارة الأميركية تخشى من أن يصبح النظام الكوبي قدوة لبقية الأنظمة في أميركا اللاتينية، ومن أن تحاول كوبا تحدي أميركا، فهيبة أميركا يجب أن تفرض نفسها على الجميع، ومن يتحداها ينبغي عليه أن يدفع الثمن الباهظ. ومرد ذلك إذا ما استطاعت أميركا أن ترعب العالم كله، فإن ذلك هو السبيل الوحيد، أو الأفضل، لتحقيق مآربها الاقتصادية والسياسية. ومنذ عهد ريفان والقيادة الأميركية تطلق الذعر في العالم من حين لآخر لتخويف من لم يخف بعد، ويتحدث العديد من المسؤولين الأميركيين عن عدم كفاية الأساليب السلمية لإقناع البشر، وبالتالي، ينبغي أن تترك الأجهزة الشرسة في الاستخبارات تفعل فعلها لإرهاب الدول المترددة في اتباعنا، وبعد ذلك يمكن للسياسة أن تتدخل.

لقد عارض تشومسكي الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأميركية على أفغانستان، وأطاحت بنظام حركة طالبان، ورأى أن هدف هذه الحرب ليس رغبة الولايات المتحدة في القضاء على تنظيم «القاعدة»، وإنما هو توسيع هيمنتها في منطقة آسيا الوسطى، إذ بمجرد تحول نظام طالبان إلى مواجهة الولايات المتحدة، أصبحت الحرب ضده جريمة حرب. ويتوقع تشومسكي أن يصل عدد الأفغان الذين لقوا حتفهم جراء التدخل الأميركي إلى ستة ملايين شخص.

وأثبتت الحملة على أفغانستان، مدى قدرة الولايات المتحدة على الضرب، وقلب الأنظمة والمشاكسين، وبالتالي، فليفهم من يفهم، أو فليسكت، وواقع الأمر، أن نجاح أميركا في تخويف حركات الاحتجاج المضادة لها في غواتيمالا، وهندوراس، وتشيلي، وبقية أنحاء أميركا اللاتينية، شجعها على نقل المناهج ذاتها إلى منطقة الشرق الأوسط لتطبيقها عليها. ففي لبنان شقح للاجئون الفلسطينيين بواسطة عمليات إرهابية مدعومة من طرف الولايات المتحدة، حيث شهد لبنان صدمات مؤلمة جديدة، فحوالي العشرين ألف شخص قتلوا العام ١٩٨٢ أثناء الغزو الإسرائيلي. وغتل أضعاف ذلك في السنوات التالية على يد الجيش الإسرائيلي والمترتبة اللبنانيين المتعاملين معه. ثم استمرت الأمور على نفس الشاكلة في التسمينات، وتكررت الغزوات الإسرائيلية مع كل أعمال الدمار والقتل والإجرام الناتجة عنها، وأضى ذلك أيضاً إلى طرد وتهجير مئات الآلاف من سكان الجنوب اللبناني، فاصبحوا مشردين ولاجئين كالفلسطينيين. وأثناء ذلك كله، كان الدعم الأميركي متواصلاً وكبيراً، ولولاه لما تجرأت إسرائيل على فعل ما فعلته، وفي الثمانينيات من القرن الماضي، زاد قمع إسرائيل للسكان الفلسطينيين في الضفة وقطاع غزة، وراحت تصدر أراضيهم وتزرع للمستعمرات فيها، ولولا الدعم العسكري والاقتصادي والدبلوماسي والريديولوجي الأميركي لإسرائيل لما استطاعت تحقيق مخططاتها. وفي الأيام القليلة التي تلت حرب الخامس من حزيران، واحتلال ما تبقى من أراضي فلسطين، قال موشي ديان لماونيه وزرائه ما يلي: «قولوا للفلسطينيين: إتهم مسيحيون أياً ما قاسية كالكلاب! وإن أي واحد منهم يريد أن يهاجر فليهاجر فوراً، وليتج بنفسه».

ووصل إذلال الشعب الفلسطيني إلى ذروته مع بناء

تحت خانة الإرهاب ثم المقاومة؟

ويستند تشومسكي إلى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة المتعلق بمشروعة أعمال المقاومة، وكانت الولايات المتحدة وإسرائيل، الدولتين اللتين صوتتا ضد القرار. وأنكرت هاتان الدولتان أن تكون مثل هذه الأعمال مقاومة مشروعة، ووصفتها بوصمة الإرهاب. والموقف الأمريكي-الاسرائيلي هذا يتعدى للمناطق المحتلة، إذ تعتبر الولايات المتحدة، ومعها إسرائيل، حزب الله، مثلاً، إحدى المنظمات الإرهابية الرئيسية في العالم، ليس بسبب أعماله الإرهابية، بل لأنه تصدى لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان، ونجح في طرد الغزاة بعد عقدتين من تحدي إسرائيل لقرارات مجلس الأمن بالانسحاب. لا بل إن الولايات المتحدة تشتط بحميداً إلى وصف الشعوب بـ«الإرهاب» إذا ما قاومت العدوان الأمريكي المباشر، عن الفيتناميين على سبيل المثال، وصولاً إلى العراقيين في أماننا هذه.

عمر كوش
دمشق

جدار شارون العنصري، الذي سيؤدي إلى اقتطاع أراض واسعة من الضفة الغربية وضماها إلى إسرائيل، والمهزون في الأمر، إن المصائب تتوالى على الشعب الفلسطيني ولا أحد يتحرك لإنقاذه من محنته، والسبب هو أن جلالة «إسرائيل» مدحوم من قبل الولايات المتحدة للقوة الأعظم في العالم. وبالتالي، فلا يحق لأمركا أن تتبجح بالدفاع عن قيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وغير ذلك من البلاغيات المستهلكة، فحليفتها إسرائيل تدرس على هذه القيم يوماً منذ حوالي الأربعين عاماً، ومن يتجرأ على نقدها يتهم فوراً بمعاداة السامية.

ويعيد تشومسكي النقاش حول الفارق بين الإرهاب والمقاومة إلى نقطة حرجية ومهمة، إذ يتعلق الأمر بمشروعية الأعمال الهادفة إلى تحقيق «حق تقرير المصير، والحرية، والاستقلال، كما هو منصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة، لدى شعوب حرمت قسراً من ذلك الحق، ولا سيما الشعوب الراضحة تحت نير الانظمة الاستعمارية والعنصرية والاحتلال الأجنبي». هل تندرج تلك الأعمال

شرق وغرب: الشرخ الأسطوري

جورج قزم، ترجمة: ماري طوق - بإشراف جورج قزم، دار الساقي - بيروت ٢٠٠٣

التي تعيد تعريف قضايا كثيرة، بما في ذلك ما يدعى «الشرق». ينطلق قزم من مسألة الحرب على العراق، وقد أصدر كتابه قبل سقوط بغداد، كي يبرهن على أن الشرق في الغفلة الأمريكية مرتبط بالإدارة السياسية، ورجال الإعلام والمتنزهين من الأكاديميين، أكثر مما هو مرتبط بواقع الشرق الفعلي. فالولايات المتحدة تختزع الشرق الذي تريد، أخذة في الاعتبار مصالحها والفتضاء المحتمل لثأوراتها السياسية المستقبلية.

يتناول الفصل الأول من الكتاب معنى الشرق في الفترة

يحقق الدكتور جورج قزم موقعاً مميزاً بين الباحثين الذين تناولوا موضوع العلاقة التاريخية بين أوروبا والشرق. وقد أصدر عدداً من الكتب التي تلامس هذا الموضوع بشكل أو بآخر، مثل كتابه الشهير: «تفجير المشرق العربي»، الذي صدر قبل عشرين عاماً، وطبع بالعربية والفرنسية أكثر من مرة وكتابه الجديد: «شرق وغرب: الشرخ الأسطوري» استئناف لاهتماماته النظرية السابقة، ومداخلة في الوضع القائم الآن، الذي يأخذ فيه الشرق دلالة جديدة، إثر الهيمنة الأمريكية على المستوى العالمي،

كثيرة من الحضارة الرومانية. بل إن في الغرب ما هو أكثر تنافلاً وتعصباً من السلب المطلق المنسوب إلى الشرق، وآية ذلك، تلك النظريات البيولوجية التي تقول إن الغرب يملك جينيات خاصة أكثر دينامية وإبداعاً من «الأجناس البشرية الأخرى»، وهو ما يجعل الغرب مؤهلاً، بيولوجياً، وباصطفاء طبيعي للهيمنة على الشعوب الأخرى وقيادتها. هكذا لا يصبح استعمار الشعوب، الذي بدأ قبل خمسة قرون ولا يزال مستمراً حتى اليوم، فعلاً بريهاً قريباً من «الاستبداد الشرقي»، بل يظهر كتعبير «طبيعي» عن رسالة تمدنية، ينقلها المتفوق إلى الآخر المفلوق من عجينة أخرى.

إن موقف الغرب إزاء الشرق، مهما تكن أشكاله وأدواته، لا يخفي الإنجاز الثقافي والحضاري الغربي، الذي بدأت الأزمات الغربية الحديثة، واستمر إلى اليوم، رغم استنفاد الثورة البرجوازية الأوروبية لإمكاناتها التحررية، منذ زمن طويل، وتحولها إلى راسمالية مشغولة بالمسائل والأرباح. وهذا الواقع، الذي يبدو الغرب فيه مرجعاً للتقدم من ناحية، ومرجعية للاستعمار وقمع الشعوب من ناحية ثانية، هو الذي أدى إلى انقسام فكر الإصلاحين الإسلاميين في تقويم الغرب إلى تيارين: أولهما، يدعو إلى التعامل مع الغرب والحوار معه والإنفاذ من ثقافته، في حين اكتفى التيار الثاني بالتدبير بالغرب، والهجوم الشديد على «مادته» والدينوية. ومن الغرابة، التي يمكن فهم أسبابها، أن الغرب اختار دائماً التعامل مع التيار التقليدي، وسعى بأشكال مختلفة، بما فيها العدوان العسكري، إلى تثبيت البنى التقليدية في الحكم والمجتمع، وإلى تزويد الأنظمة التقليدية بالوسائل الحديثة من أجل الحفاظ على التقليدي في جميع المجالات. بل إن الكثير من الأنظمة المزعجة في عداتها للحدث، لم تكن قادرة على البقاء لولا دعم الغرب المستمر لها.

مفارقة غريبة أخرى، لا تختلف عن سابقتها، هي

الزمنية التي سبقت سقوط الاتحاد السوفييتي، حيث الشرق هو الدول الاشتراكية، والغرب هو جملة الدول للدرجة في حلف الأطلسي. كان الشرق في تلك الفترة شرقاً سياسياً، إن صح القول، يقوم على توازن الرعب، وعلى أشكال من الرعب لا تنفصل عن مصالح الغرب الحيوية، والأمريكية منها بشكل خاص. أخذ الشرق بعد سقوط الاتحاد السوفييتي صورة جديدة في المحملة الأمريكية. لم يعد شرق الاشتراكية والماركسية الملحدة، التي أنشئت لمواجهة منظمة للوتمر الإسلامي، أصبح شرقاً جديداً سمته التعصب، الذي يفصل بصعوبة عن الإسلام الذي تنبثق منه شروط كثيرة.

لا ينسى الدكتور قزم، وهو محلل لحولات صورة الشرق، أن يشير إلى صورة الغرب عن ذاته، التي تتحدث بالديمقراطية، والعقلانية، والإيمان بالبحث العلمي، في مقابل شرق مسكون بالروحانيات ومعادٍ للحضارة. والمقصود بذلك، منذ القديم حتى الآن، الشرق بالمعنى الإسلامي خاصة، الذي يرفض قيم الغرب ويرفضه الغرب، بحجة رفض التسلط والاستبداد الشرقي، ورفض «التعصب الديني» الذي يتضمن العنف والانغلاق. يرد قزم على أسطورة «الشرق المستبد» القائم على الدين، ويذكر بالنازية التي قسمت العالم بين آريين وساميين، ومارست إرهاباً وتدميراً شديدين، علماً أن النازية كانت متحررة كلياً من مرجعيتها المسيحية. غير أن التحلي عن الدين، لم يمنع النازية من استرجاع أساطير الأصول الجرمانية، وتحولها إلى معتقد مسيحي وشديد الاستبداد. يبرهن على هذا أن التحرر من الديني لا يعني قبول الديمقراطية وإنشاء النظام الديمقراطي، ولا الانفتاح على الحضارات الأخرى. إضافة إلى ذلك، فإن القول بجوهر إسلامي مستبد قول لا معنى له، ذلك أن الحضارة الإسلامية استفادت من التراث الهيليني، وتجاوزت مع الحضارات القديمة في مصر وبلاد فارس، وتعلمت أشياء

موقف الفكر الغربي، والمرتبط بالسلطات السياسية خاصة، من الدين. فهذا الفكر في بلاده تحزّر من الدين، ولم يعد يرى في الدين عنصراً لتفسير الحياة الاجتماعية، فهو يتعامل في تفسيره للمظاهر الغربية مع علوم الاقتصاد وعلم الاجتماع والتاريخ والإحصاء، لكنه يتخبر موقفه عندما يقف أمام المجتمعات الشرقية. فهذه المجتمعات عنده دينية، ولا تفسّر وتُشرّح إلا بالمعايير الدينية، حتى تكاد تبدو مجتمعات لها جوهر إنساني مختلف، لها معايير خاصة بها مستقلة كلياً عن معايير المجتمع الغربي. من اللافت للنظر هنا، أن الغرب الذي يرى في حضارته حضارة كونية، يساهم في صناعة «المحوصية الشرقية» التي يرجع وينسبها للانغلاق والتعصب. بهذا المعنى، يصنع الغرب الشرق الذي يريد، كي يحتفظ بحقه في الفصل بينهما، على مستوى «التحليل العلمي» والواقف السياسية أيضاً. فيقدر ما أن للغرب علماً يحلّ قضاياها، يختلف عن ذلك الخاص بالشرق، فإن للغرب موقفاً سياسياً موازياً، وهو ما أصبح يدعى اليوم بالسياسة التي تكيّل باكثر من مكياّل.

يساوي الغرب بين الشرق والدين، ويعتبر ذاته آله تحزّر من المعيار الديني منذ زمن طويل. لكن هذا الادعاء لا ينقصه التناقض، فالغرب العلماني اعترف بدولة إسرائيل التي قامت على أساس ديني، وقام، عملياً، بخلقها ودعمها وتثبيتها. بل إن هذا التناقض واضح بطريقته الدينية، التي تفسّر انغلاق الشرق بالعامل الديني. فمن المفترض أن التفكير العلماني يفسّر الدين، أو التعصب الديني، بالعوامل الاجتماعية التي تقول بضرورة وجود الدين، والتي تخلق أيضاً الوعي الديني في شكله للتعصب. لقد ادعى خطاب الغرب المتعصب عن نفسه، إلى تعيين ذاته رسولاً لهداية الشرقيين الضالين، إلى درجة يحتفل فيها الغربيون اليوم، والولايات المتحدة بشكل خاص، «بعودة الله». ذلك لأن القومية الأمريكية تمتد

بجذورها إلى البروتستانتية والعهد القديم. وسواء كشف الغرب عن تمسكه بالدين أو عن التحزّر منه، فإنّه انتج، في الحالتين معاً، ديناً خاصاً به هو: «دين القوة»، الذي يجعل من الغرب عالماً «مقدساً»، ومن الشرق عالماً غريباً عن القداسة ومنعماً بالآثام. وظهر دين القوة هذا، الذي أوكل إلى الولايات المتحدة الدفاع عن المقدسات الغربية، بعد أحداث الحادي عشر من ايلول، حيث قبلت الأيديولوجيات العلمانية الغربية بالمزامم والسياسات الأمريكية: الهدف مقدس، والوسائل علمانية.

يتطرق الدكتور قرم في كتابه إلى قضايا الهوية والانتماء، مشيراً إلى امرين: أولهما، دور الغرب في إنتاج الخصوصيات الشرقية، التي تعطي الغرب خصوصية أخرى، وتسوّغ دوره في مواجهة: الشرق – الدين، والدين الشرقي – الإرهاب. أمّا ثاني الأمرين، فهو حديث المفكرين الشرقيين عن خصوصيتهم المطلقة التي هي استرجاع، لا ذكاء فيه، للحديث الغربي عن الشرق. هكذا يصبح الشرق حاملاً للمشعل الإلهي، ويُسمّى الغرب آلة الحرب ضدّ الله. والأمر أكثر خطورة من آليته البسيطة، ذلك أن المفكرين، الذين يواجهون الغرب الكافر بالشرق المؤمن، لن يجدوا في الديمقراطية إلا بضاعة غريبة، وفي العلمانية آلة حرب غريبة و«مؤامرة يهودية – مسيحية ضدّ الإسلام»، علماً أن التاريخ يبرهن على أن الإسلام لم يعرف في تاريخه إلا سلطة مدنية.

يرى الدكتور قرم أن الديني لم يخف من القومية المعاصرة، حتى في شكلها الأوربي، فما حصل هو انتقال الديني من مركزه المحوري القديم، أي الكنيسة وجماعة المؤمنين، إلى الجماعة العرقية أو القومية. والقوميات المعاصرة، كما الأيديولوجيات أيضاً، غرفت بوفرة من اللاهوت التوراتي، فكلّ قومية تضع في ذاتها شعباً مختاراً، سواء انتهى إلى العناية الإلهية، أو توقف قبل الوصول إليها، بما في ذلك الماركسية التي وعدت الطبقة

إسرائيل وثقافة الهولوكوست من جهة ثانية. وما أن جاء الحادي عشر من أيلول حتى بات الإسلام في نظر الغرب معادلاً للإرهاب.

يتطلع جورج قرم إلى إصلاح فلسفة التنوير، في شقيها الغربي والعربي. فقد كانت المركزية الأوروبية في صميم الفكر التنويري الأوروبي، الأمر الذي أعطى «الآخر» مركزاً متدنياً، وأقصاه عن المعايير والحقوق الإنسانية، إضافة إلى حتمية التقدم القائم على العلم، وهو ما أضعف الاهتمام بالأخلاق والقضايا الأخلاقية. وحملت الماركسية هاتين الصفتين معاً، وأضاف لها الماركسيون العرب تفاؤلاً ساذجاً، فصل الطبقة العاملة عن غيرها، الأمر الذي هتمش قضية الديمقراطية. ولم يستطع التنويريون العرب أن يصلوا إلى أسفلتهم الخاصة، ولا أن يبنوا الفكر التنويري على قواعد متسقة، فوصل بعضهم إلى التفرغ، الذي يعزلهم عن مجتمعهم، والبعض الآخر إلى التلقيق، الذي وضعهم دائماً في مواقع دفاعية لا هجومية.

أما بالنسبة لليوم، وفي حدود العلاقة الراهنة بين الشرق والغرب، فإن على المثقف العربي أن يعمل من أجل استيعاب الثقافة الغربية استيعاباً نقدياً، وأن يكشف عن الوجه النرجسي في الثقافة الغربية، الذي يمجّد ما هو غربي، ويستخفّ بما هو غير غربي. وعلى المثقف العربي، أولاً، أن يتحرّز من طروحات الثقافة الغربية عن انقسام العالم إلى شرق وغرب لا يلتقيان، ومن حديث الخصوصيات الذي يوهمه بأنه يمتدّ عن ذاته، في حين أنه يستظهر أفكار الغرب عنه، التي تتركّز الوضع العربي الراهن، الذي يحتاج إلى تغيير كبير.

ينطلق كتاب قرم من الراهن، ويتعامل مع أسئلة الراهن بموضوعية وحزينة ومعرفية، بعيداً عن الكتب «الأكاديمية» التي تدّعي العلم وتحاذر السياسة، وعن ذلك النوع من الكتب المشغول بالماضي قبل غيره.

رندة بعث

دمشق

العاملة، بل الإنسانية جمعاء، بأن تقودها إلى «أرض الميعاد». وواقع الأمر، إن العلمانية التي يتبناها الغرب لنفسه كاذبة، فهي علمنة مخادعة تجتزأ الثقافة الغربية، وتدفعها اليوم إلى الانتساب إلى جذور يهودية-مسيحية، بديلة عن الجذور الإغريقية-الرومانية التي تبنتها ثقافة النهضة الأوروبية. وفي الواقع، فإن الجذور الأخيرة وثنية وحلولية وتعددية، وهي الركائز الأولى للديمقراطية، ولنزع السحر عن الفكر والعالم، لا عنف فيها ولا تعصب، كترسّت نفسها لخدمة الإيمان الديني المتسامح، بعيداً عن أساطير الخلاص النهائي. وقد عزّز من هذا الانقلاب النصر الأميركي في الحرب الباردة، الذي جعل من غرب النهضة الأوروبية غرباً يهودي-مسيحياً، صورته المركبة هي دولة إسرائيل، التي لا تسمح لها «غربيتها» بأن تكون دولة عنصرية أو عدوانية، فهي من الغرب، ولها دور الغرب في هداية العالم الضالّ. في هذا الانقلاب تصالح التاريخ العلماني والتاريخ الديني للغرب، وأصبح «الآخر» هو المسلم المكروه، وأصبح الغرب يتعامل مع الإسلام بصفته عقيدة كلية متعصّبة، تنضح عنفاً، وتتنفس لا عقلانية كاملة. يرد الدكتور قرم على هذا بالرجوع إلى تاريخ الإسلام الذي استفاد من حضارات كثيرة، ويتأكد أن الإسلام قبل التعددية الدينية في مجتمعاته، وأن وضع الإسلام الراهن لا ينفصل عن فشل الحضارة العربية، وعن الصراع بين الحداثيين والتقليديين، الذي زج بالإسلام في الصراع السياسي وأعطاه طابعاً شتاسماً، بعد أن كان ديناً مفتوحاً بعيداً عن الانغلاق.

في التحولات التي اعتزت الخطاب الإسلامي الراهن، لا بدّ من الإشارة، كما يرى الدكتور جورج قرم، إلى خسارة القومية العربية العلمانية معرفتها ضد الاستعمار أولاً، وضد إسرائيل لاحقاً، إضافة إلى فشلها الشديد في خلق مجتمع ديمقراطي حداثي، التي سبقت خيبة الماركسية والتوجهات الاشتراكية. وهكذا ترك المجال لهيمنة «الإسلام السياسي» من جهة، ولانتصارات



(81) 2004

ISSN 1607-7024

AL-KARMEL(Ramallah)